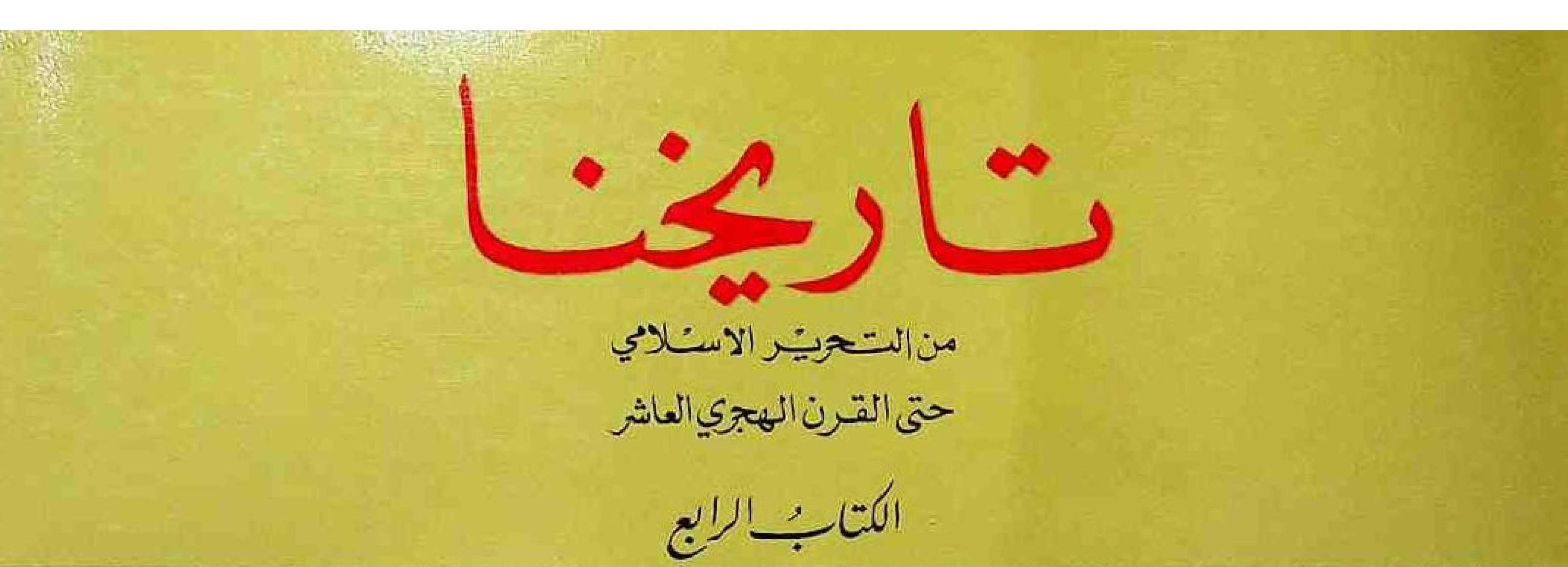


تاريخنا

من التحرير الاسلامي

حتى القرن الهجري العاشر

الكتاب الرابع

هذا الكتاب

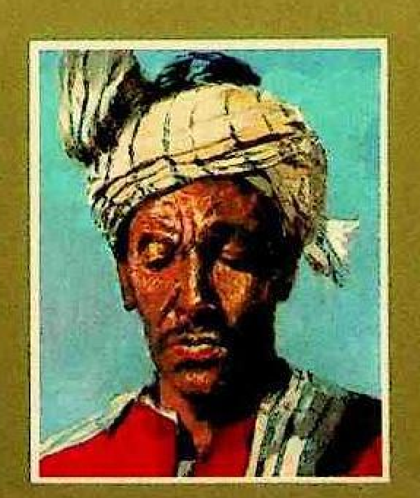
... وكانت الامة الاسلامية تقود اول مسيرة عالمية ـ وآخر مسيرة ايضا ـ لتحرير المجتمع الانساني باكمله من قبضة مراكز القوى واجهزة القمع والتسلط . وكانت قد خرجت لتوها من معارك كبرى على جبهات رئيسية ضد الفرس والبيزنطيين في وقت واحد ، ونشرت مبادىء الاسلام على رقعة شملت جميع اراضي الامبراطوريات في الشرق القديم ، وأنهت الحكم الوراثي في فارس وجميع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال افريقية حتى طرابلس ، ثم تقدمت صوب ارمينيا وآسيا الصغرى لتصفية اطراف هذا النظام المريض في القسطنطينية واقطاعيات امراء اوربا .

ثم حدثت المفاجأة .

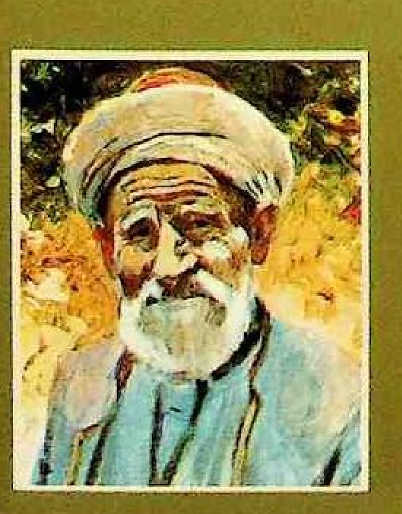
واعلن معاوية بن ابي سفيان ـ بعد اربع وعشرين سنة على وفاة الرسول عليه السلام ـ انه لا يعترف بأمامة علي بن ابي طالب ، ولا يبايعه على الخلافة الا اذا سلم اليه قتلة عثمان . وفي اول الامر بدا هذا الطلب بمثابة قضية جانبية يمكن حلها وديا داخل حظيرة الامة ، لكنه في الواقع لم يكن قضية جانبية اصلا ، بل كان طعنة نافذة ـ ومصوبة بتعمد ـ الى قلب الامة باسرها .

(النظرية والتطبيق ـ صفحة ٢١)







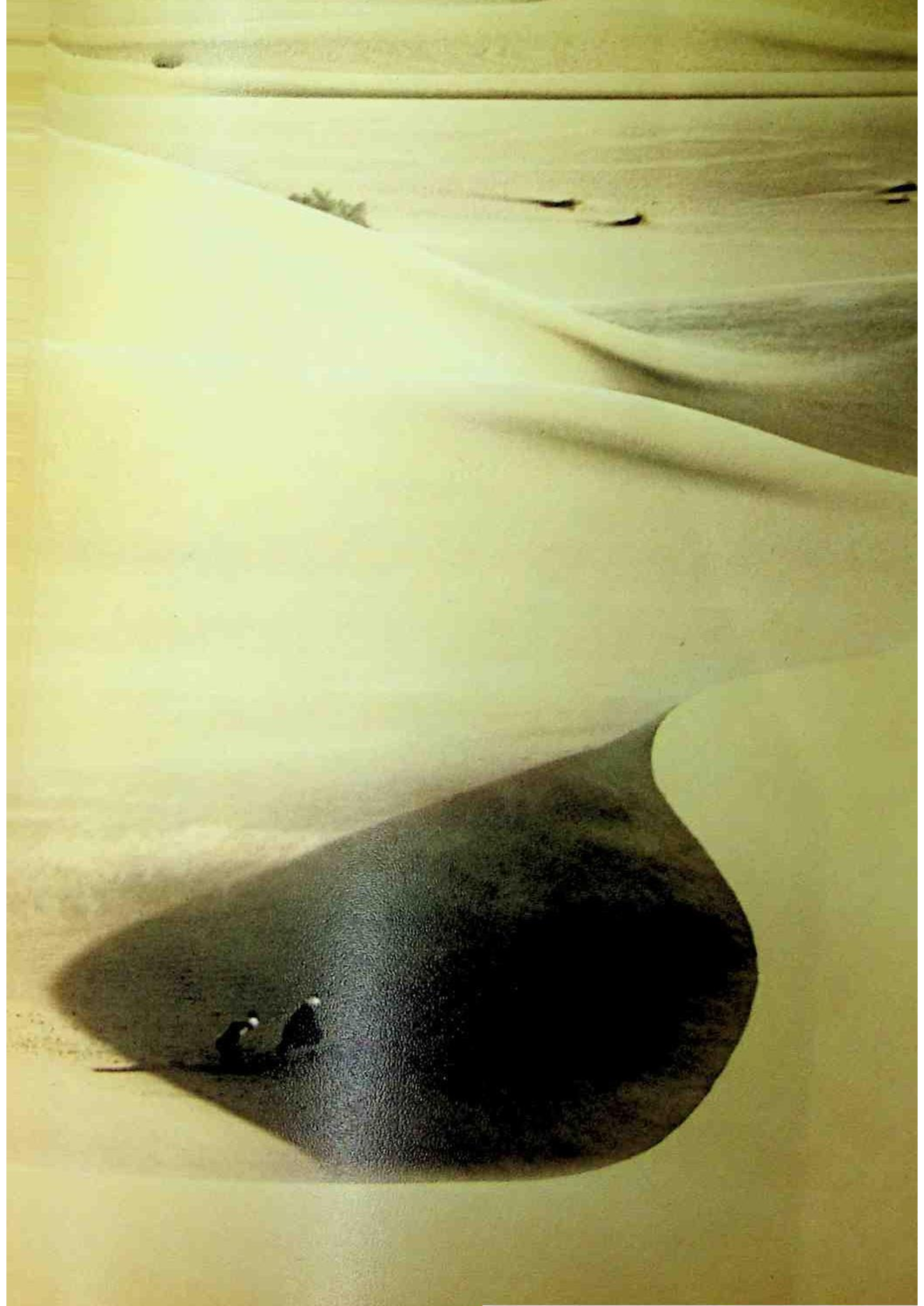


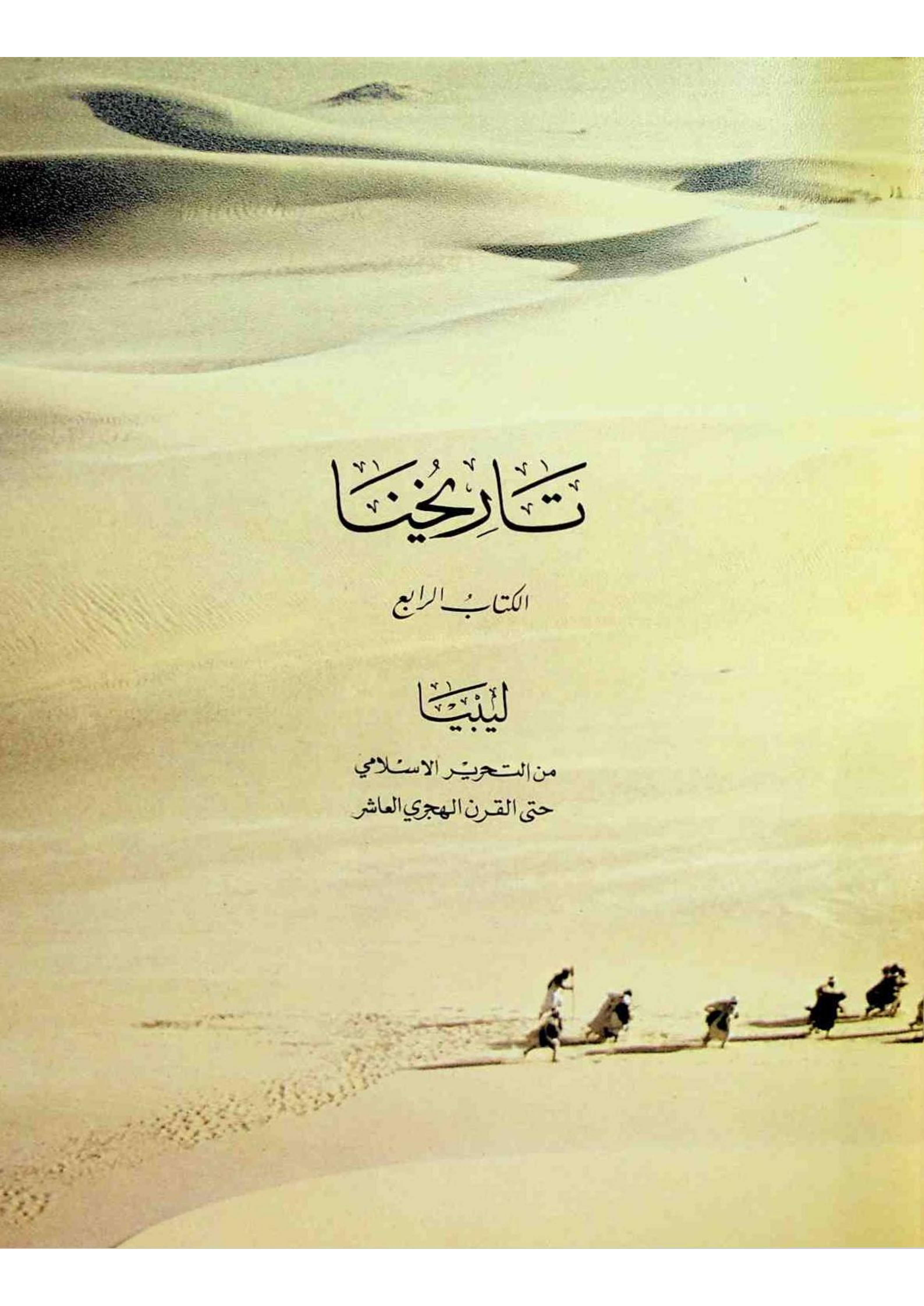
شارك في كتابة نصوص هذا العمل ثلاث لجان من اساتذة التاريخ في العالم العربي ، وقامت باعداد رسومه وخرائطه لجنة من أفضل الرسامين العالميين وراجعته لجنة اخرى على الاصول المتوفرة في متاحف ليبيا ومناطق آثارها ، وبعد ذلك كله أعيدت صياغة نصوصه وترتيب مواده في نسق مبسط من شأنه أن يلائم جميع المستويات.
اننا لم ندخر وسعا في أن نفتح أمام تاريخنا بابا الى كل بيت .

دار التراث



دار التراث





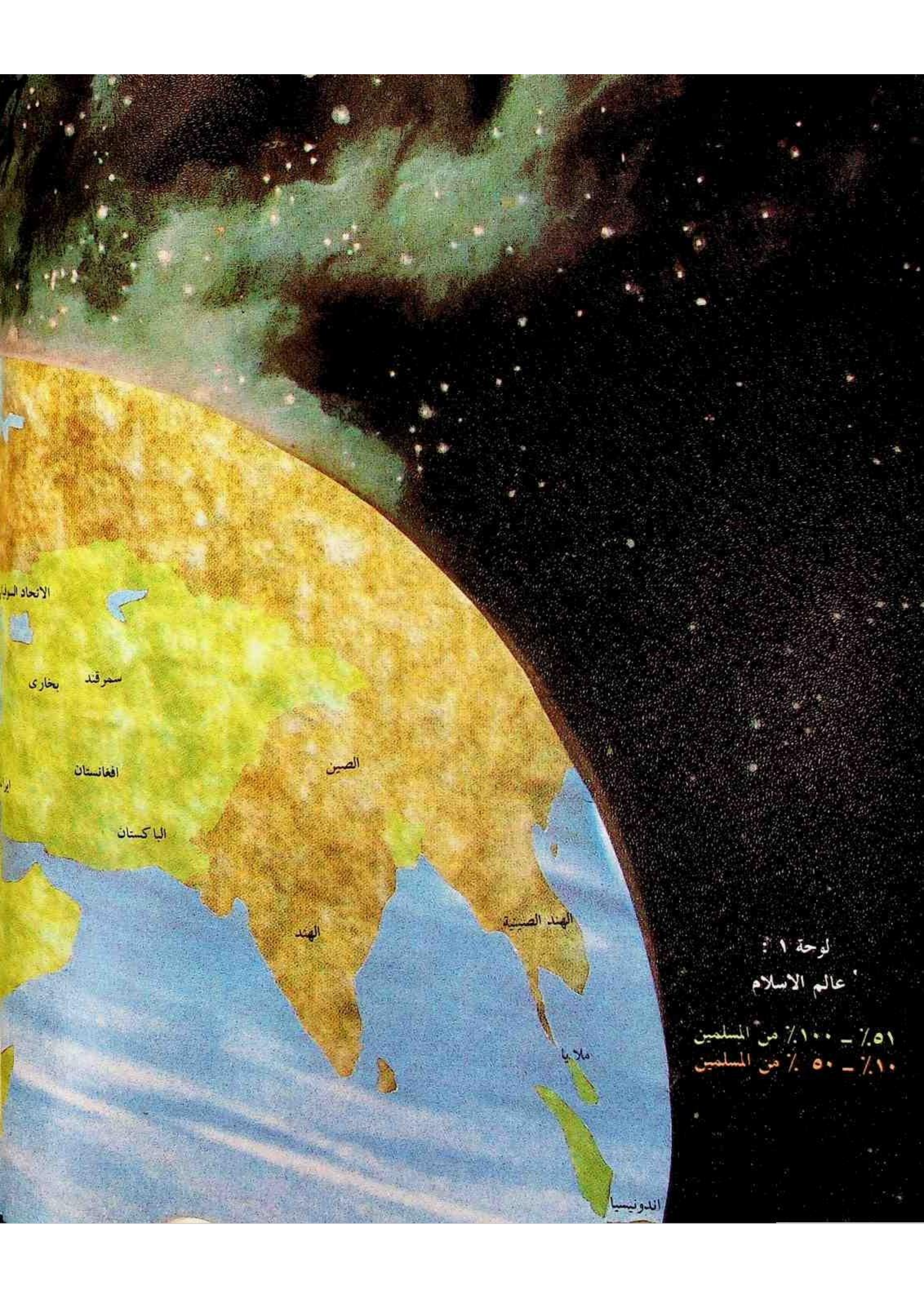
تاريخنا
الكتاب الرابع
ليبيا
من التحرير الاسلامي
حتى القرن الهجري العاشر

خطة الكتاب



❃

هذه العلامة تعني : راجع القسم الرابع من الفهرس



لوحة ١ :
عالم الاسلام

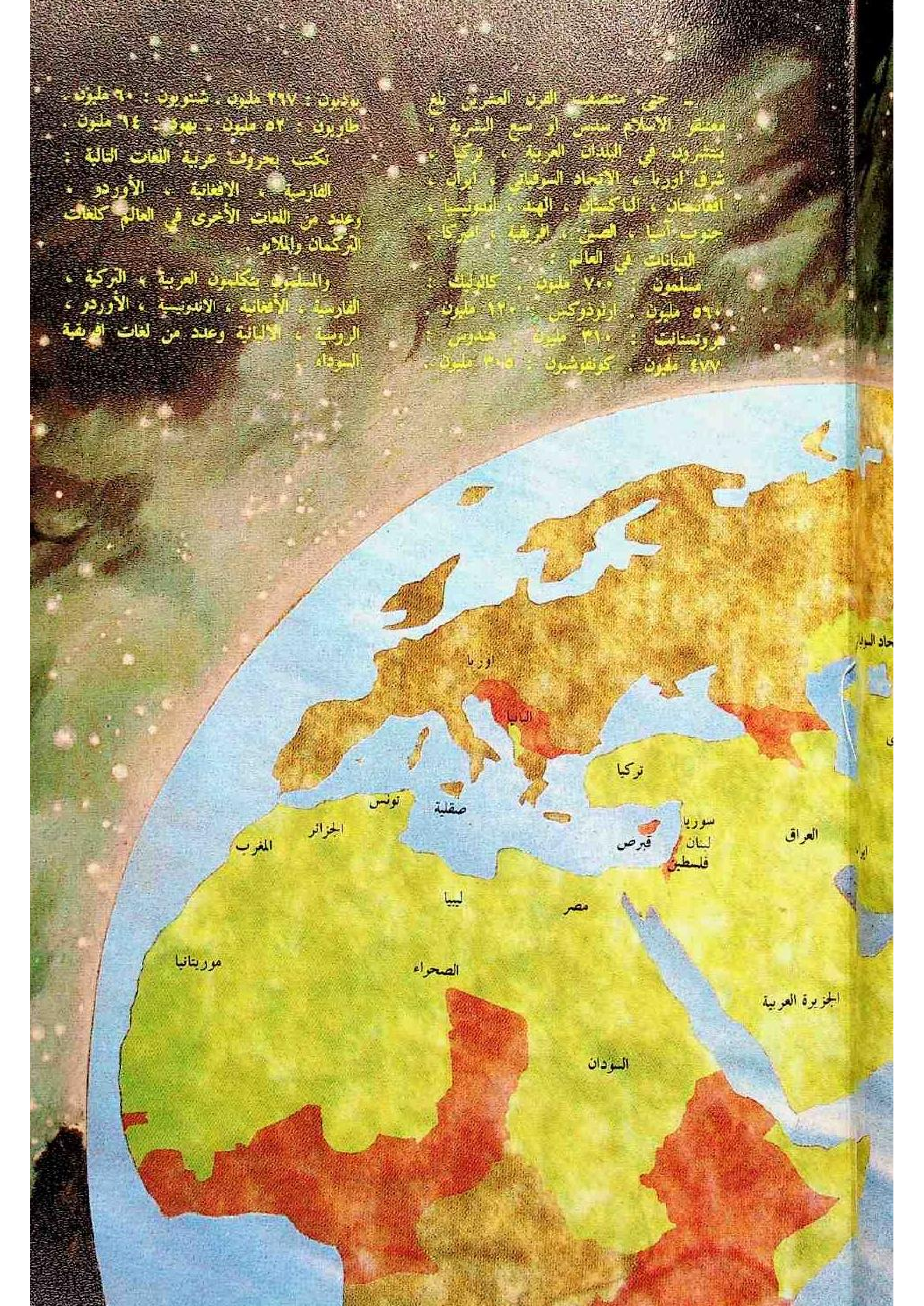
— حتى منتصف القرن العشرين بلغ معتنقو الإسلام سدس أو سبع البشرية ، ينتشرون في البلدان العربية ، تركيا ، شرق أوربا ، الاتحاد السوفياتي ، ايران ، افغانستان ، الباكستان ، الهند ، اندونيسيا ، جنوب آسيا ، الصين ، افريقيا ، امريكا .

الديانات في العالم :

مسلمون : ٧٠٠ مليون . كاثوليك : ٥٦٠ مليون . ارثوذوكس : ١٢٠ مليون . بروتستانت : ٣١٠ مليون . هندوس : ٤٧٧ مليون . كونفوشيون : ٣٠٥ مليون . بوذيون : ٢٩٧ مليون . شنتويون : ٩٠ مليون . طاويون : ٥٢ مليون . يهود : ١٤ مليون .

تكتب بحروف عربية اللغات التالية : الفارسية ، الافغانية ، الأوردو . وعدد من اللغات الأخرى في العالم كلغات التركمان والملايو .

والمسلمون يتكلمون العربية ، التركية ، الفارسية ، الأفغانية ، الاندونيسية ، الأوردو ، الروسية ، الألبانية وعدد من لغات أفريقية السوداء .





لوحة ١ :
عالم الاسلام

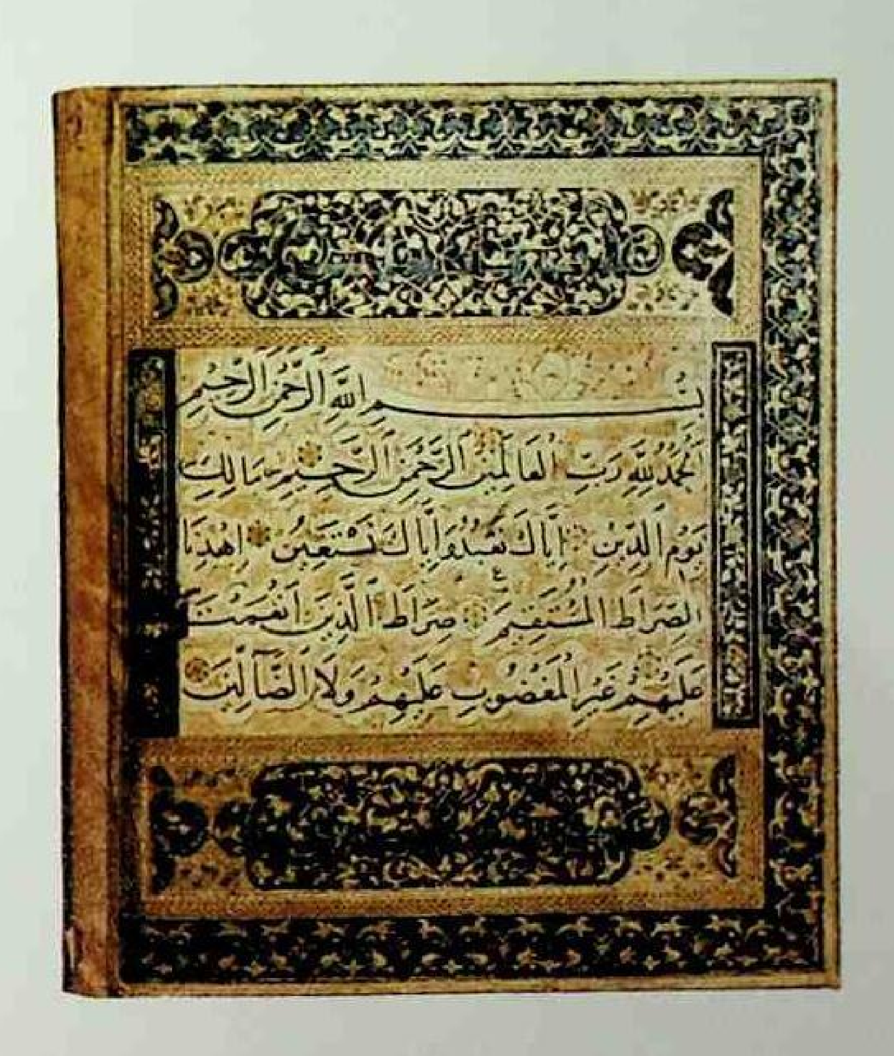


ـ حتى منتصف القرن العشرين بلغ معتنقو الاسلام سدس او سبع البشرية ، ينتشرون في البلدان العربية ، تركيا ، شرق اوربا ، الاتحاد السوفياتي ، ايران ، افغانستان ، الباكستان ، الهند ، اندونيسيا ، جنوب آسيا ، الصين ، افريقيا ، امريكا .

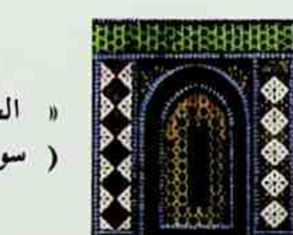
الديانات في العالم :
مسلمون : ٧٠٠ مليون . كاثوليك : ٥٦٠ مليون . ارثوذكس : ١٢٠ مليون . بروتستانت : ٣١٠ مليون . هندوس : ٤٧٧ مليون . كونفوشيون : ٣٠٥ مليون . بوذيون : ٢٦٧ مليون . شنتويون : ٦٠ مليون . طاويون : ٥٢ مليون . يهود : ١٤ مليون .

تكتب بحروف عربية اللغات التالية :
الفارسية ، الافغانية ، الأوردو . وعدد من اللغات الأخرى في العالم كلغات التركمان والملايو .

والمسلمون يتكلمون العربية ، التركية ، الفارسية ، الأفغانية ، الاندونيسية ، الأوردو ، الروسية ، الالبانية وعدد من لغات افريقية السوداء .


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك
يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا
الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت
عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

فاتحة

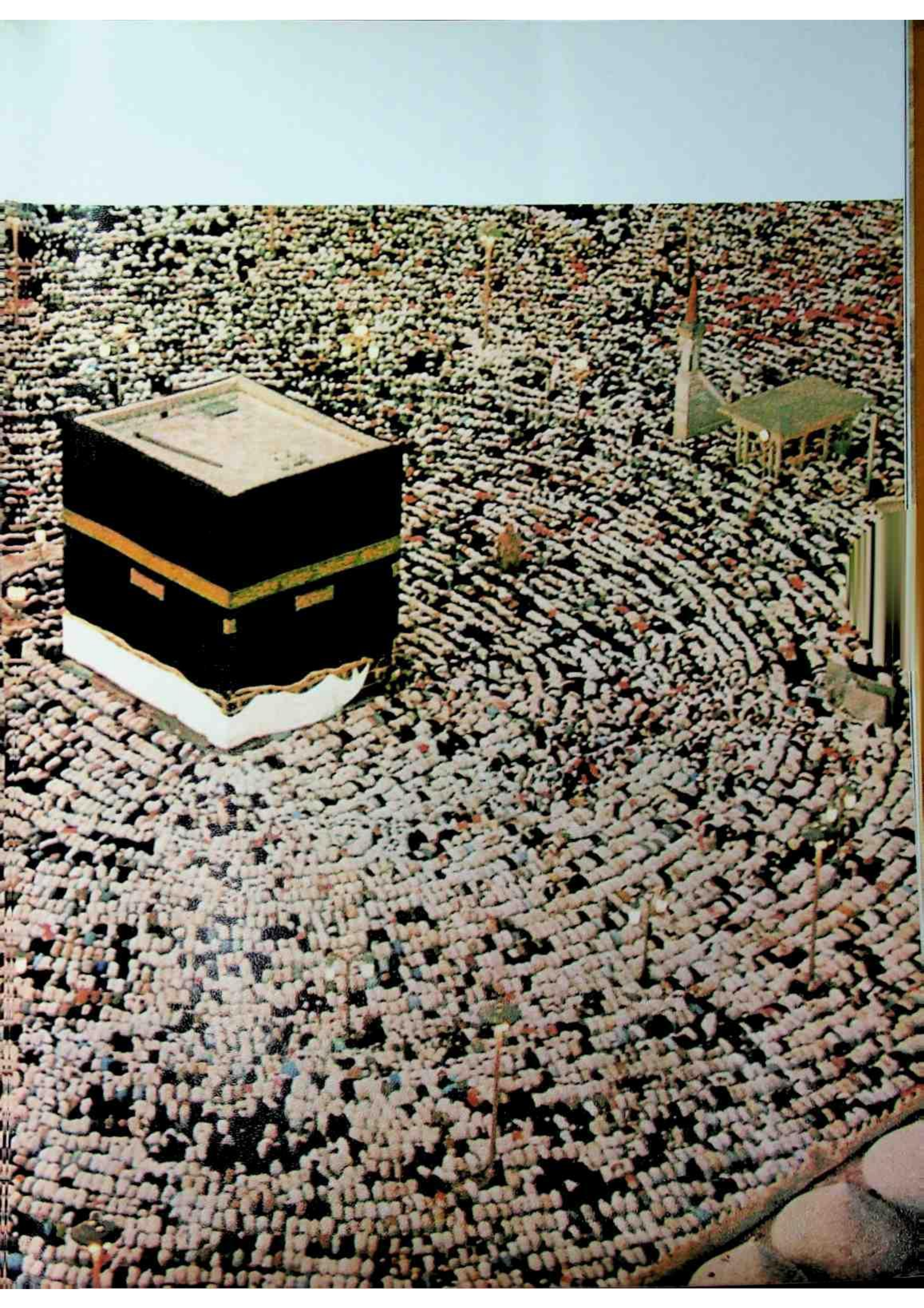


« الحمد لله رب العالمين »
(سورة الفاتحة ، الآية ٢)

اطواق حول الارض :

خمس مرات في اليوم يقف المسلم لاداء صلواته وهو يستقبل الكعبة .

وخمس مرات في اليوم يستطيع كل مراقب لكوكب الارض من الفضاء ان يشاهد ملايين المسلمين يستقبلون الكعبة في اطواق متلاحقة من المصلين ، ويرى اذ ذاك انهم في الواقع لا يقفون خاشعين بين يدي الله فحسب ، بل انهم ايضا ـ ودون ان يدروا ـ يقفون خاشعين في مواجهة بعضهم البعض حول الكرة الارضية بأسرها . هذه هي يد الاسلام البيضاء التي امتدت فجأة عبر اسوار القرن السابع لكي ترفع الحواجز بين الشعوب ، وتعيد ترتيب الاشياء ، وتحطم الأصنام الحية والميتة ، وتسترجع الانسان الى ربه ونفسه من قبضة الخوف ومن قبضة الجهل على حد سواء .



لوحة ٢ : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»
(سورة الحج ، الآية ٢٧)





« اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون »
(سورة الانبياء ، الآية ١)

في القرن الاول قبل الميلاد قال شيشرون :
« اننا مولودون للعدل ، وان الحق مستمد من الطبيعة لا من افكار الناس . فكل تعريف نختاره لانسان معين ينطبق دائما على جميع البشر ، وانه لبرهان كاف على انه لا فرق في النوع بين انسان وانسان ... » .

شيشرون نفسه كان يرى من الفروق بين انسان وانسان ما دعاه الى تخصيص اكثر من خطبة لاظهار ازدرائه للاغريق واليهود والمسيحيين والزنوج جميعا ، وكانت كلمة الانسان لا تعني عنده في الواقع سوى الرومان وحدهم . لكن قوله : « ان الحق مستمد من الطبيعة لا من افكار الناس » ، كان فعلا تشخيصا خارقا لفكرة خارقة وغريبة عن اطار العصر كله .

ففي روما بالذات كان الحق مستمدا من افكار الرومان .
وقبلها ، وبعدها ، وفي كل مكان آخر شهد تكوين دولة لجماعة من الناس ، كانت الفكرة ان يستمد المرء قوانينه من نظرياته الخاصة ورغباته الشخصية ، حتى يصبح العدل نفسه بالنسبة اليه هو ــ فقط ــ ما تقوله هذه القوانين . ومنذ قيام اسرائيل القديمة ، كانت تشريعات الهيكل اليهودي تقصر العدالة في الدنيا والآخرة على شعب الله المختار دون غيره . أما في روما ، فقد كانت الفكرة نفسها هي الاصل في قانون حقوق المواطنة الذي كان يعني في مجمله ان العدالة مقصورة على الرومان وحدهم بنص قانوني صريح .

احيانا كانت هذه القوانين تبدو حكيمة واحيانا ساذجة وقصيرة النظر لكنها دائما ، وفي جميع العصور ، كانت قوانين شخصية تنحاز الى جانب طبقة معينة أو شعب معين ، وتنطلق من مفاهيم نفعية محدودة لمعنى العدالة نفسها : بعضها يعتمد اساسا على الوهم مثل تشريعات التوراة التي كانت ترى ان المساواة بين اليهود وغيرهم من الشعوب هي في حد ذاتها معصية لا تغتفر . وبعضها يعتمد اساسا على التفوق العسكري مثل تشريعات الرومان التي كانت تقضي بأن لا يتمتع بحق العدل أصلا سوى مواطن روماني .

في الجانب الآخر ، كان ثمة ما دعاه شيشرون باسم « الحق الطبيعي » ، وهو في الواقع قانون مختلف جدا يتميز ــ اول ما يتميز ــ برفضه لنسبية

القوانين في عالم الله الواحد . فهو لا يتقيد بمصالح شعب معين او افكار معينة ، بل بمصلحة الناس جميعا على اختلاف الوانهم وحضاراتهم . واذا كانت هذه الفكرة المطلقة تبدو الآن مألوفة للعقل الانساني ، فانها في بدايات القرن السابع للميلاد كانت غريبة عنه وغريبة عن عالمه النسبي بقدر كل الغرابة في عالم المعجزة .



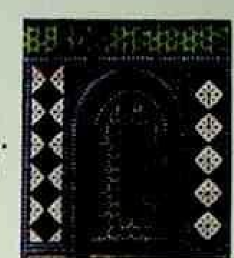
« كنتم خير أمة أخرجت للناس ... »
(سورة آل عمران ، الآية ١١٠)

هذه المعجزة وقعت في مكة :
في مدينة داخل الصحراء . على بعد كاف من جميع القواعد العسكرية الرومانية والفارسية . في عصر تصاعدت خلاله ملامح الصراع الانساني الى حروب عالمية واسعة النطاق ، وانقادت فيه مجتمعات الانسان وراء اهوائها وقوانينها النسبية الى هاوية سحيقة من العدوان والبربرية واليأس .

هذه المعجزة وقعت ايضا في الوقت المناسب :
في مرحلة تأثرت خلالها جميع القيم الانسانية بأحداث الصراع المستمر بين نظام الدولة وبين نظام القبيلة . فاصبحت القيم الاخلاقية لدى القبائل هي القدرة على السطو والحيلة ، واصبحت القيم نفسها لدى الدول هي القدرة على التوسع والسيطرة . وتسللت سيول القبائل من الهون والقوط والجرمان والوندال الى املاك الامبراطوريات العالمية في موجات غطت معظم آسيا واوربا وشمال افريقية . واختارت الامبراطوريات ان ترد على هذا الغزو ببناء مزيد من الاسوار حول المدن ـ وبناء مزيد من قواعد الحاميات المكلفة بالدفاع عنها ـ في محاولة رهيبة لتحطيم المجتمع الانساني نفسه الى قطعتين :

مجتمع في المدن ، يستمد هويته من الدولة التي يخضع لها ، ويعيش من اجلها ، ويموت من اجلها . ومجتمع الصحراء ، يستمد هويته من اسلافه واجداده ، ويعيش بتقاليدهم وافكارهم ، ويموت عادة من اجلهم ايضا .

وبين هذين الطرفين المتناقضين لم يكن ثمة امل في ان يولد مجتمع انسان جديد ، يعيش بهويته الانسانية وحدها ، او يدرك عالمية الانسان ووحدة قوانينه ، او يرى اصلا ثمة جدوى من وراء هذه الافكار . لقد كان ذلك عملا يحتاج الى نذير من ملكوت الله وحده .



« انها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشر »
(سورة المدثر ، الآية ٣٥ ـ ٣٦)

صوت النذير ارتفع من مكة .
لكنه لم يكن موجها الى اهل مكة ، بل الى اهل الارض . وكانت الارض نفسها قد اصبحت منذ ذلك اليوم بلدا واحدا لامة واحدة .

الامة ليست هي الشعب .
وليست هي القبيلة او الدولة او اي نظام اجتماعي آخر عرفته الحياة قط . فالقانون بين جميع الاحياء هو ان تتصارع الانواع على البقاء ، اما شريعة الامة فهي ـ اولا ـ ان تتعايش الانواع :

لا فضل لانسان على آخر ، فالفضل لله وحده .
ولا عزة لشعب على اخر ، فالعزة لله وحده .
ولا حق لانسان على آخر ، الا في طاعة الله وحده .

ان تنظيم الامة الاسلامية ، كما تمثل في بعض آيات القرآن الكريم واحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يكن اصلاحا لشكل الجماعة الانسانية في القرن السابع ، بل كان اعادة لتركيبها من جديد في بناء مختلف جملة وتفصيلا عن نظام الدولة او القبيلة او الشعب .

فكل نظام اجتماعي آخر عرفه العالم حتى ذلك الوقت كان يستمد هويته من تحريض انسانه على عزل نفسه عن بقية ابناء جنسه البشري بحجة أنه أفضل منهم مولدا أو دينا . وكان اليهود والرومان قد اختاروا هذا الطريق بالذات الذي انتهى تلقائيا بتوريطهم جميعا في حرب ابادة مستمرة ضد جميع جيرانهم .

في نظام الامة اصبحت التفرقة بين الناس جريمة لا يمكن غفرانها :
« ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا ، اولئك هم الكافرون حقا ... » .

(سورة النساء ، الآية ١٥٠ ـ ١٥١)

ورد الامة الاسلامية على هذه التفرقة رد واضح وحدد نصا :
« قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق

ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .



« وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ... »
(سورة الانعام ، الآية ١١٦)

في كل نظام آخر كانت العصبية هي السبيل الوحيد الى تطويق الانسان واستغلاله باسم مجد الدولة او القبيلة او الشعب . وكانت الفكرة ان يلجأ كل نظام الى شحن مواطنيه باساطير خارقة عن اصلهم ومنشئهم بمعزل عن بقية الجنس البشري . فكان اليهود يخصون انفسهم وحدهم برحمة الله وعدله ، وكان الاغريق والرومان يملكون ارباب الاوليمب الى جانبهم ، وكانت بقية الشعوب بالنسبة لهم جميعا مجرد برابرة .

في نظام الامة اصبحت العصبية بالذات عملا يبرأ منه الله ورسوله :

« ... ان الله لا يحب كل مختال فخور » .
(سورة لقمان ، الآية ١٨)

« ... فلبئس مثوى المتكبرين » .
(سورة النحل ، الآية ٢٩)

« ... اليس في جهنم مثوى للمتكبرين » .
(سورة الزمر ، الآية ٦٠)



« فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »
(سورة المؤمنون ، الآية ١٠٢)

في كل نظام آخر ، كانت الانساب هي الاساس في تكوين الجماعة ، وكان مصير الانسان نفسه محددا سلفا على قدر ما تملك اسرته ــ او لا تملك ــ من الجاه والسطوة . فالملوك يولدون في الاسر المالكة . والاثرياء يولدون في الاسر الثرية . والمختارون يولدون في الشعوب المختارة . وبقية الناس في العالم لا يملكون من الفرص سوى ما تتيحه امامهم المغامرة والصدفة .

في نظام الأمة الاسلامية اصبحت الانساب فكرة عقيمة لا تعني شيئا :

فكان كل انسان مسؤولا وحده شخصيا :
« ... ولا تزر وازرة وزر اخرى ... » .
(سورة الأنعام ، الآية ١٦٤)

وكان العمل مفصولا كليا عن النسب :
« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .
(سورة البقرة ، الآية ١٣٤)

وكان الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام قد فصل هذه النقطة بالذات عندما قال مخاطبا اهله الاقربين في حجة الوداع :
« يا معشر قريش . اشتروا أنفسكم من الله . لا أغني عنكم من الله شيئا . يا بني عبد المطلب . لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب . لا أغني عنك من الله شيئا . يا صفية عمة رسول الله . لا أغنى عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت رسول الله . سليني بما شئت . لا أغني عنك من الله شيئا » .



« الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ... »
(سورة هود ، الآية ١٩)

في كل نظام آخر ، كانت امكانيات الجماعة الانسانية مسخرة لخدمة السياسة والمال . وكانت الدول ـ والقبائل ايضا ـ مجرد مراكز قوى لقلة من الرجال الذين اغتصبوا لانفسهم جميع السلطات ، وتفرغوا لاستغلال الاغلبية بقوة القمع وحدها . وعند بداية القرن السابع ، كانت هذه المسيرة الغريبة قد وصلت الى غايتها الحتمية في نهاية الزقاق المسدود ، فانقسم مجتمع الانسان نفسه الى انواع مختلفة تتصارع على البقاء ، ويعيش بعضها على بعض : الاسر الحاكمة والثرية على حساب سكان المدن ، وسكان المدن على حساب المزارعين والرعاة .

في نظام الامة الاسلامية اصبحت الدولة موجهة اصلا لخدمة المستضعفين بالذات :
« ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » .
(سورة القصص ، الآ ية ٥)

وكان الامر صادرا بوجوب تحريرهم من قبضة الاستغلال حتى بقوة

السلاح :

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ... » .

(سورة النساء ، الآية ٧٤)



« وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا »
(سورة الاحزاب ، الآية ٦٧)

في كل نظام آخر ، كانت الشرعية تتحقق وراثيا ، فمن حق الملك ان يحكم ، ومن واجب الرعية ان تخدمه . وسواء كان هذا الحاكم ملكا او اميرا ، فانه لا يستمد حقه في الطاعة من شرعية العمل بل من شرعية السيادة . انه سيد قبل ان يكون حاكما ، وليس من شأن الجماعة ان تطيعه او لا تطيعه بل من شأنها فقط ان تخضع له ، او كما قال شاعر بني أسد ، وهو يستغفر حجر بن حارث لكي يعفو عن قبيلته :

اما تركت تركت عفوا	أو قتلت فلا ملامـــــه
انت المـلك فوقهـــم	وهـم العبيـد الى القيامـه
ذلـوا لســوطك مثلما	ذل الاشيقر ذو الخزامه

في نظام الامة الاسلامية اصبح لقب الملك بالذات امرا غير مقبول ، وكان اختيار لقب الامام فكرة تعني اكثر من تغيير عابر في الالقاب .

فالامام لا يملك بل يحكم طبقا للشريعة .

والشريعة ليست قانونا خاصا من وضع الامام او من وضع الرعية ، بل هي سنة الله رب العالمين .

وسنة الله ليست هي قوانين الطبيعة التي تتمثل في صراع الاحياء ، بل هي فطرة الحياة نفسها التي تهدف للتعايش والسلام .

فمن سنن هذه الفطرة انها غير نسبية وغير قابلة للتبديل :

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

(سورة الاحزاب ، الآية ٦٢)

ومن سننها انها شريعة لا تنظر الى الاشخاص بل الى الاعمال :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(سورة الزلزلة ، الآية ٧ ـ ٨)

وفي سورة الشورى : « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ... ».
(سورة الشورى ، الآية ٣٠)

فهي لهذا السبب شريعة لا تعرف معنى الظلم :
« ... وما ربك بظلام للعبيد » .
(سورة فصلت ، الآية ٤٦)
« ... وما انا بظلام للعبيد » .
(سورة ق ، الآية ٢٩)

ولا تحاسب على الشر والخير لذاتهما بل تكافئ عليهما بما يليق بهما من العدل :
« ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما » .
(سورة النساء ، الآية ٣٩)

ومقاييسها للخير والشر ليست نابعة من مصلحة جماعة انسانية بعينها بل من مصلحة الجنس الانساني بأسره :
« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ... » .
(سورة الأنعام ، الآية ١٥١)

وبكلمة موجزة :
كانت الامة الاسلامية التي ظهرت فجأة على مسرح التاريخ عند منتصف القرن السابع اول تكوين عرفته الحضارة لجمع الجنس البشري كله في اسرة تليق بتفوق الانسان ونبله الفطري النادر المثال ، وكانت تشريعاتها في القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام بناء نظريا متكاملا ـ ونهائيا ـ لا ينتظر سوى التطبيق .

فماذا حدث ؟
ان التعرف على تاريخ هذه الامة يتوقف اساسا على ان نفهم ماذا حدث .





النظرية والتطبيق

بعد ثلاثين سنة تقريبا من وفاة الرسول عليه السلام ، كانت الامة الاسلامية تقود اول مسيرة عالمية – وآخر مسيرة ايضا – لتحرير المجتمع الانساني باكمله من قبضة مراكز القوى واجهزة القمع والتسلط . وكانت قد خرجت لتوها من معارك كبرى على جبهات رئيسية ضد الفرس والبيزنطيين في وقت واحد ، ونشرت مبادئ الاسلام على رقعة شملت جميع اراضي الامبراطوريات في الشرق القديم ، وأنهت الحكم الوراثي في فارس وجميع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال افريقية حتى طرابلس ، ثم تقدمت صوب ارمينيا وآسيا الصغرى لتصفية اطراف هذا النظام المريض في القسطنطينية واقطاعيات امراء اوربا . ورغم صعوبة المهمة ومشقة الطريق ، فقد كانت الامة الاسلامية تحرز انتصاراتها على كل الجبهات ، وكان من الواضح ان العصر بأسره يوشك ان يشهد تحقيق الامل الازلي في اقامة عالم لا تحكمه اهواء الافراد او الاسر ، بل تحكمه فطرة الانسان .

ثم حدثت المفاجأة .

واعلن معاوية بن ابي سفيان – بعد اربع وعشرين سنة على وفاة الرسول عليه السلام – انه لا يعترف بامامة علي بن ابي طالب ، ولا يبايعه على الخلافة الا اذا سلم اليه قتلة عثمان . وفي اول الأمر بدا هذا الطلب بمثابة قضية جانبية يمكن حلها وديا داخل حظيرة الامة ، لكنه في الواقع لم يكن قضية جانبية اصلا ، بل كان طعنة نافذة – ومصوبة بتعمد – الى قلب الامة باسرها .

اننا لا ننوي ان نتعرض هنا لوجهات النظر المختلفة بشأن الخلاف بين علي وبين معاوية ، فذلك أمر لا يقع اصلا في نطاق منهج هذا الكتاب . لكننا نحتاج الى ان نتعرف على اطراف الخلاف انفسهم ، لكي ندرك معنى التغيير الجذري ـ والحاسم ـ الذي طرأ فجأة على تركيب الامة الاسلامية في عصر معاوية .

احد الاطراف هو علي بن ابي طالب الذي قال عنه الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام يوم خيبر :
« لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه . يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » .
واعطاها عليا .

عاش في كنف الرسول ، وتثقف على يديه ، وتلقى عنه كل المعاني الدقيقة والجوهرية لاحكام الشريعة وقضايا امة الاسلام . وعندما تولى الخلافة كان منهجه في الحكم ذروة ما بلغه المنهج الاسلامي في بناء الامة من الشمول والنقاء .

فقد نقل مركز الدولة من المدينة الى الكوفة عند ملتقى طرق التجارة العالمية بين الهند وفارس ومصر واليمن والعراق والشام ، وبهذا الاجراء وضع الخليفة عاصمة الامة الاسلامية في مكانها الطبيعي حيث تلتقي جميع الطرق وجميع الاجناس . لكنه ، من جهة اخرى ، عرض نفسه لنقمة رجال قبيلته من قريش الذين لم يروا في نزعته العالمية ثمة ما يرضي مصالح القبيلة ، فتألبوا ضده في جبهة شملت الحجاز والشام واطراف العراق ، وجروه الى موقعة الجمل التي كانت في الواقع فاتحة اول حرب اهلية بين المسلمين .

منهجه في الحكم ، كما جاء في رسائله الى ولاته : « انصفوا الناس من انفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية . ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضربن احدا سوطا لمكان درهم » .

وفي كتابه الى ابن حنيف الانصاري عامله على البصرة :
« أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني ان رجلا من فتية اهل البصرة دعاك الى مأدبة ... فاسرعت اليها تستطاب لك الالوان وتنقل اليك الجفان . وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ... » .

منهجه في شرعية الحكم ، كما جاء في رسالته الى معاوية :

« .. وانما الشورى للمهاجرين والانصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن امرهم ردوه الى ما خرج عنه ، فان ابى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المومنين .. واعلم انك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى » .

الطرف الثاني معاوية بن ابي سفيان ، الذي يقال ان امرأة استشارت الرسول عليه السلام في الزواج منه فقال لها : « انه صعلوك » .

امه هند بنت عتبة التي اكلت كبد حمزة عم الرسول يوم احد ، فدعاها المسلمون باسم « آكلة الأكباد » .

عمته ام جميل بنت حرب التي دعاها القرآن باسم « حمالة الحطب » .

ابوه سفيان بن حرب الذي احتفظت له المصادر الاسلامية باخبار مطولة عن ولعه بايذاء المسلمين وخصومته للنبي وأهل بيته وعجزه المطلق عن التكيف مع روح التشريع الاسلامي في المجتمع والدولة على حد سواء .

من هذه الاخبار انه وقف يوم فتح مكة ينظر الى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يـا أبا الفضل لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيما » .

ومنها انه في حروب الشام كان يهتف كلما تقدم الروم : « ايه يا بني الاصفر » . فاذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني الاصفر » .

ومنها انه اعترض على خلافة ابي بكر الصديق ، وذهب الى علي بن ابي طالب والعباس بن عبد المطلب لكي يثيرهما ضد الخليفة قائلا : « يا علي وانت يا عباس ... ما بال هذا الامـر (يقصد الخلافة) في اذل قبيلة من قريش واقلها ؟ والله ، لو شئت لاملأنها عليه (يقصد الخليفة) خيلا ورجلا واخذنها عليه من اقطارها » .

ومنها انه دخل على عثمان بن عفان بعد ان صارت اليه الخلافة وقال له : « قد صارت اليك بعد تيم وعدي (يقصد بعد ابي بكر وعمر) ، فأدرها كالكرة ، واجعل اوتادها بني امية ، فانما هو الملك ولا ادري ما جنة ولا نار » .

معاوية نفسه استعمله النبي عليه السلام لكتابة بعض رسائله ، لكنه لم يأذن له ابدا بكتابة الوحي . وقد ولاه عمر على الشام ، واحتفظت له

المصادر خلال هذه الفترة بخبرين يشيران الى شكوك الخليفة في نوايا معاوية ووالده معا :

الخبر الاول ان أبا سفيان عاد من عند ولده معاوية والي الشام ، فوقع في نفس عمر ان ولده قد زوده في عودته بمال . وعندما زاره ابو سفيان لـكي يسلم عليه ، قال له عمر : « أجزنا يا ابا سفيان » قال : « ما اصبنا شيئا فنجزيك » . فمد يده الى خاتم في اصبعه ، فأخذه منه وبعثه الى هند زوجه ، وأمر الرسول ان يقول لها باسم زوجها : « انظري الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما » . فما لبث ان عاد بخرجين فيهما عشرة الاف درهم ، فطرحها عمر في بيت المال .

والخبر الثاني يقول ان الخليفة عمر ذهب لتفقد احوال الشام تحت ولاية معاوية ، فاستقبله معاوية في موكب عظيم اثار دهشة الخليفة الذي جاء راكبا على حمار ، فسأله : « أنك لصاحب الموكب الذي ارى ؟
قال : نعم
قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك ؟
قال : نعم
قال : ولم ويحك ؟
قال : لاننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فان لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، واما الحجاب فاننا نخاف من البذلة جرأة الرعية ...
فقال عمر : ما سألتك عن شيء الا خرجت منه » .

قبل مقتل عثمان ، كان رأيه ان يأذن له الخليفة بقتل علي بن ابي طالب وطلحة والزبير . وعندما يقول له عثمان مستنكرا : « سبحان الله ! أقتل اصحاب رسول الله بلا حدث احدثوه ولا ذنب ركبوه ؟ »، يقول له معاوية : « فان لم تقتلهم فانهم سيقتلونك » .

بعد مقتل عثمان ، كانت خطته ان يضع دمه على عاتق الخليفة علي بن ابي طالب ، ويخلع طاعته بحجة انه قد اغرى الناس بقتله ، ويشترط على الخليفة ان يسلم اليه قتلة عثمان لكي يقتص منهم شخصيا باعتباره ابن عمه وأحق الناس بأخذ ثأره . وقد كتب اليه قائلا : « .. اغريت بدم عثمان وخذلك الانصار ، فاطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف . وقد ابى اهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ... » .

ثم تندلع اول حرب اهلية بين المسلمين ، ويخرج عن اجماع الامة

الشيعة والخوارج . ويصل معاوية بن ابي سفيان الى سدة الحكم بعد ان تسبب في مقتل علي بن ابي طالب ، وتسبب في قتل ابنه الحسين ، ودس السم لابنه الحسن ، وعلق في اعناقهم دم عثمان . لكنه يتناسى قتلة عثمان انفسهم ، ولا يبدي شيئا من اهتمامه القديم بهم ، بل يتجاهلهم متعمدا ويسدل ستارا من النسيان على القضية بأسرها ، حتى تذكره عائشة ابنة عثمان عندما يدخل المدينة فتستقبله صارخة « واأبتاه ! » . اذ ذاك يقول لها معاوية بصراحة نادرة المثال : « يا ابنة اخي . ان الناس اعطونا طاعة واعطيناهم امانا ، واظهرنا لهم حلما تحته غضب ، واظهروا لنا ذلا تحته حقد ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره . فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندري علينا تكون ام لنا . ولئن تكوني بنت عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين » .❊

... ومع كل انسان سيفه :

ان كل كلمة في هذا الخطاب تقف بالضبط على طرف نقيض من معنى الامة الاسلامية التي ودعها الرسول منذ ثلاثين عاما فقط . فالاخوة بين المسلمين اصبحت في منهج معاوية : « ولئن تكوني بنت عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين » .

والامة التي كانت تقف متساندة كالبنيان المرصوص اصبحت في منهج معاوية : « اظهرنا لهم حلما تحته غضب ، واظهروا لنا ذلاً تحته حقد » .

والسيف الذي كان مجردا للجهاد في سبيل الله والمستضعفين من بني الانسان في الارض اصبح في منهج معاوية : « ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره » .

بدل الشورى ، جاءت ولاية العهد .
بدل الامام ، جاء الملك .
بدل شريعة الامة ، جاء قانون الدولة .
بدل الامة نفسها ، جاءت الاسرة الحاكمة .

وعند هذه النقطة افترقت الطرق :
فتوقف مد الثورة الشاملة وبدأ تاريخ الدولة العالمية مرة اخرى بنظام

الوراثة نفسه وترتيب الابناء حسب اعمارهم في القائمة القديمة نفسها .

لم

تتغير

شريعة

الامة .

ولم يكن بوسع أحد ان يغير من روحها شيئا . فقد تكفل القرآن الكريم بحفظها ، وتناقل علماء المسلمين أحاديث الرسول وسنته بحرص الراغبين في الحفاظ على نقاء هذا الكنز الانساني وسط عالم من الحكام والمحكومين لا يعتبر النقاوة اهم قضاياه . ورغم نظام وراثة العرش ، وتنازع الاسر على الخلافة ، فان الشريعة الاسلامية في القرآن والسنة ظلت نقية وفعالة ، وظلت تضفي روحها السمحة وقضاياها الانسانية الكبرى على سلوك الجماعة الاسلامية عامة ، وبعض حكامها المسلمين خاصة الذين اعطوا تاريخ السياسة امثلة نادرة من التسامح والعدل والمروءة .

غير

ان

الثورة

الشاملة

تأجلت .

وعادت الجيوش الاسلامية للعمل على جبهات المواجهة التي انحسرت

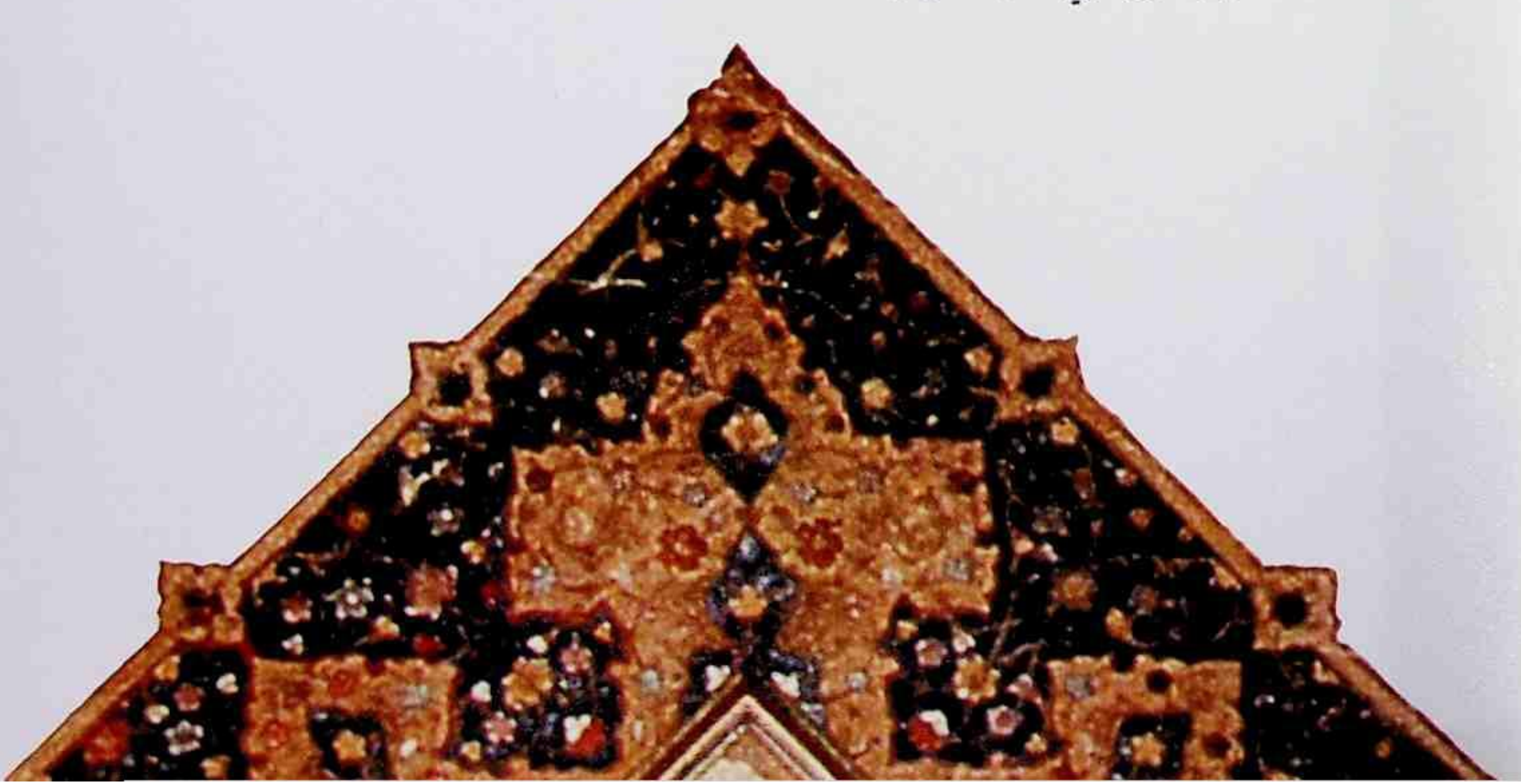
عنها ـ او وقفت عندها ـ خلال سنوات الفتنة . وفي هذه المرة لم تعد جيوش الاسلام تحارب بمنهج الامة بل بمنهج الدولة ، وكان التاريخ قد اثبت دائما ان ذلك معناه فقط ان تشتبك هذه الجيوش فورا في صراع الأسر على السلطة .

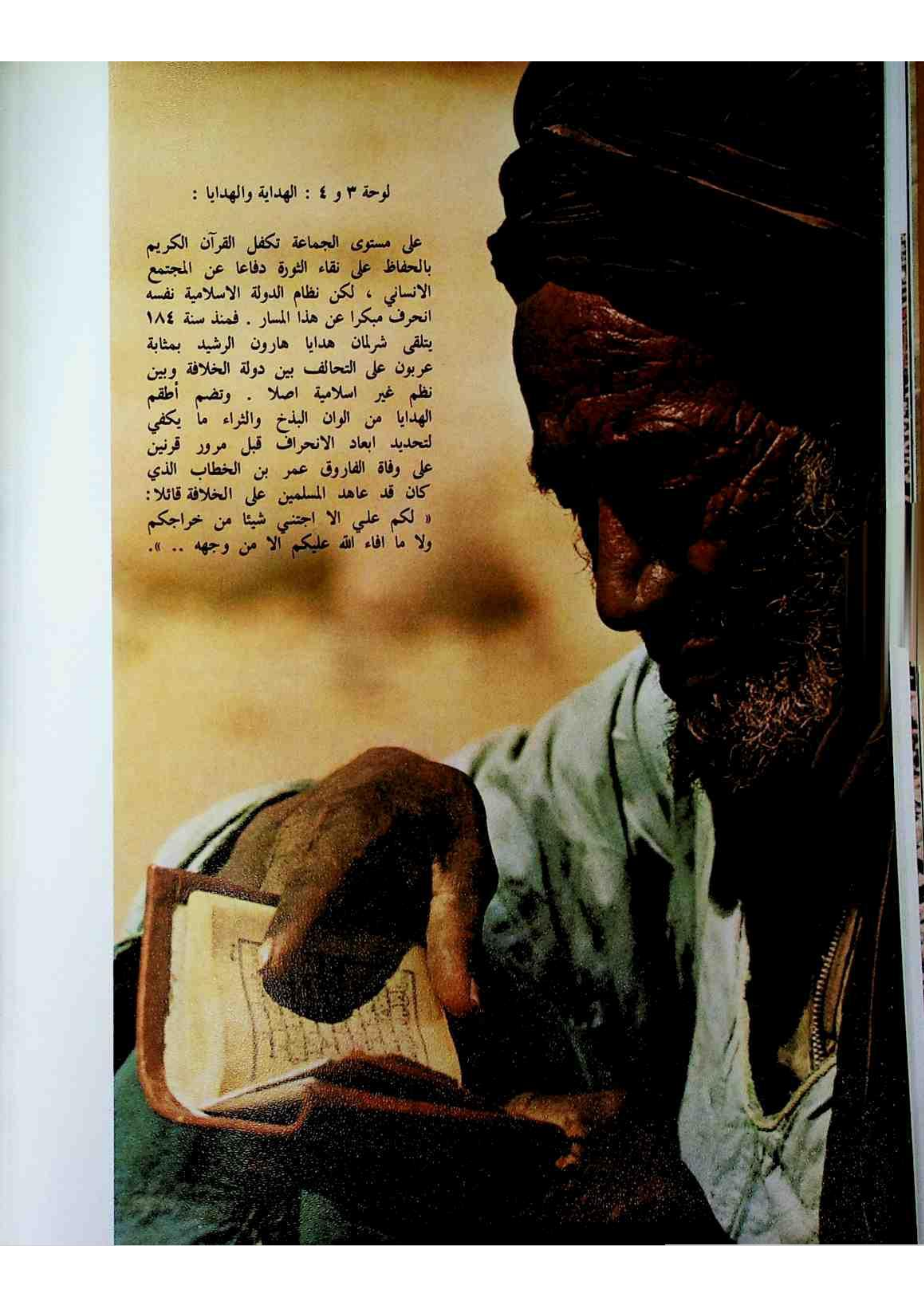
أما تأجيل الثورة فلم يكن يعني بدوره سوى تفتيت قوتها واستنفادها في مسارب جانبية متشعبة . وهو ما حدث فعلا في جسم الامة الاسلامية الذي شرعت الطوائف والفلسفات تقطعه بينها في هزات متلاحقة تمثلت احيانا في اعلان العصيان والخروج عن طاعة الدولة كما فعل الخوارج ، وتمثلت احيانا في التزام الخلاف والخروج عن الجماعة كما فعل الشيعة ، وظلت بطبيعتها تسير دائما في الطريق الضيق ، وتتورط في الوان غريبة من التطرف . فالخروج عن اجماع الامة باسم الاسلام فكرة متناقضة اصلا ، لان الاسلام بالذات هو نفسه شريعة الامة الواحدة .

في هذا الاطار يقع تاريخ الدولة الاسلامية التي اورثها معاوية لابنه يزيد في سنة ٦١ هجرية :

ثورة على مستوى الافراد والطوائف ، ودولة وراثية على مستوى الجماعة .

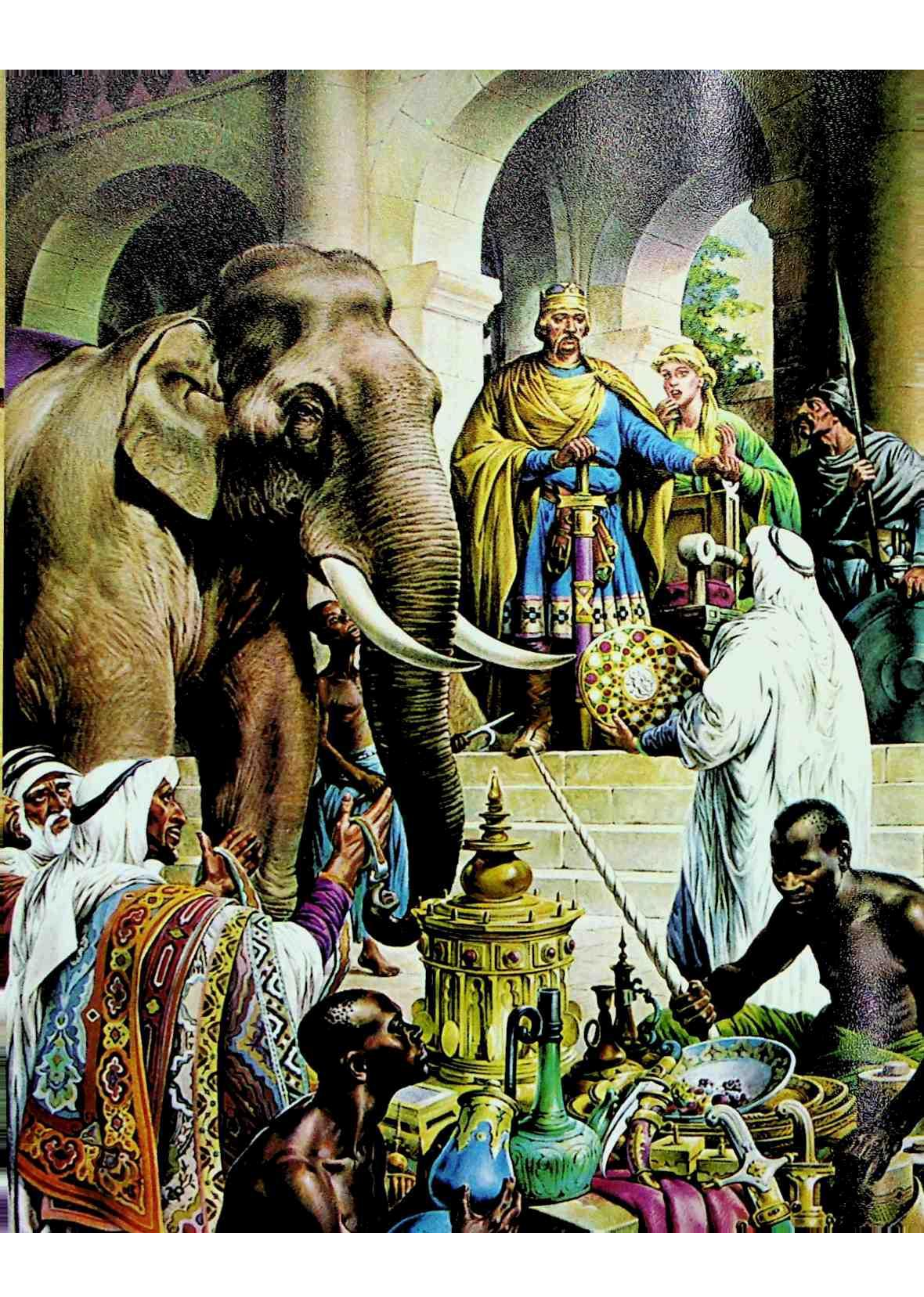
رجال ونساء يعمر قلوبهم حب الحياة والحق وتشدهم مشاعر المبادئ النبيلة التي كشفت عنها فطرة الانسان ، ودولة تقليدية قد تختلف كثيرا عن غيرها من دول القرن السابع في جميع التفاصيل ، لكنها تلتقي معها دائما على الطريق نفسه . ومنذ عصر معاوية كان المسلمون قد ادركوا ان دولتهم « حولها ابن ابي سفيان هرقلية » .





لوحة ٣ و ٤ : الهداية والهدايا :

على مستوى الجماعة تكفل القرآن الكريم بالحفاظ على نقاء الثورة دفاعا عن المجتمع الانساني ، لكن نظام الدولة الاسلامية نفسه انحرف مبكرا عن هذا المسار . فمنذ سنة ١٨٤ يتلقى شرلمان هدايا هارون الرشيد بمثابة عربون على التحالف بين دولة الخلافة وبين نظم غير اسلامية اصلا . وتضم أطقم الهدايا من الوان البذخ والثراء ما يكفي لتحديد ابعاد الانحراف قبل مرور قرنين على وفاة الفاروق عمر بن الخطاب الذي كان قد عاهد المسلمين على الخلافة قائلا : « لكم علي الا اجتني شيئا من خراجكم ولا ما افاء الله عليكم الا من وجهه .. ».



في شمال افريقية

في هذا الاطار يقع ايضا تاريخ شمال افريقية في ظل الاسلام . شعب انهكه الصراع المتطاول حول البحر المتوسط ، وانفرد به الروم على مقربة من قواعدهم في اسبانيا وصقلية ، فبسطوا ظلهم على ارضه بقوة السلاح ، وطاردوه بجيوشهم وقلاعهم العسكرية الى حافة الصحراء ، ثم جاءه العون من كتائب التحرير الاسلامي ، فانطلق لاستقبالها في المرحلة الاولى بإلفة زادتها شريعة الامة الواحدة رسوخا ويقينا .

في هذه المرحلة تم تحرير شمال افريقية ، واكثر من ذلك تم تحرير انسانها من عزلته وخوفه بما حملته له شريعة الاسلام من روح العدل والاخاء . وطوال هذه الفترة كان اصحاب الامر في شمال افريقية هم قادة جيش الجهاد من كبار الصحابة والتابعين مثل عمرو بن العاص ، وعبدالله بن سعد ومعاوية بن حديج وعقبة بن نافع وزهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير .

في المرحلة الثانية بدأ عصر الولاة ، وهي فترة تتميز باستقرار الدولة الاسلامية في دمشق بمثابة دولة لاسرة بني أمية ، وايقاف العمليات العسكرية على الجبهات الكبرى ، وتقسيم مناصب الولاة على اقرباء الخليفة او اعوانه الثقاة . وهي الفترة التي فيها انتشرت الثقافة العربية وعم الاسلام شعوب البلدان المتحررة وظهرت بوادر الحركات الاستقلالية والانتفاضات الثورية .

في المرحلة الثالثة بدأ عصر الامراء ، فتحول الوالي من موظف للخليفة الى امير مستقل عنه وموال له لا يرى ان حكمه اقل شرعية من حكم الخليفة نفسه . ذلك ان الشعور بضرورة تطبيق مبدأ العدل والمساواة بالمشاركة التامة

في الحكـم بين ابنـاء الامة الواحـدة كان قد توطد فـي نفوس اهل الشمال الافريقي ، فاتخذته الاسر الطامحة في الحكم وسيلة لتحقيق مطامحها ، فظهر الامراء الاغالبة في القيروان والرستميون في تيهرت والطولونيون في الفسطاط . وفي اعقاب هذه المرحلة كان من الواضح ان الخطوة التالية قد تتمثل فجأة في انشاء خلافة اسلامية في شمال افريقية غير خلافة المشرق نفسه .

في المرحلة الرابعة قامت بالفعل الخلافة الفاطمية الافريقية ، فوحدت الشمال الافريقي ، ثم تقدمت نحو مصر حيث استقرت ، باسطـة جناحيها على المغرب الكبير من جهة ، وعلى فلسطين وسوريا والحجاز من جهة اخرى ، في محاولة جديدة لتوحيد العالم الاسلامي المتفكك . لكن نزعة الاسر الى الاستئثار التام بالحكم ظهرت هنا من جديد ، فقام الصنهاجيون ـ وكلاء الفاطميين على الشمال الافريقي ـ بخلع الخليفة الفاطمي ، داعيـن على المنابر للخليفة العباسي الذي كان على كل حال قد فقد في ذلك الحين كل سلطة فعلية على اراضي الخلافة ، خصوصا النائية منها . ورد الخليفة الفاطمي على الصنهاجيين بقذف قبائل بني سليم وبني هلال الى الشمال الافريقـي لاجتياحه واستيطانه .

في المرحلة الخامسة كانت الدولة الاسلامية في الشرق قد استنفدت طاقتها بمثابة نظام وراثي ، وكان المغول قد اكتسحوا بغداد سنة ٦٥٧ ، فيما اشتبك المماليك مع الصليبيين حول عكا سنة ٦٩٠ في آخر معركة بآخر ما بقي لديهم من انفاس . في تلك الفتـرة كان الشمال الافريقـي يشهد قيام المرابطين يوحدون المغربيـن الاقصى والاوسط والاندلس تحت سلطتهم ، ثم يخلفهم الموحدون الذين يضمون المغرب الكبير باكمله من ليبيا شرقا الى الاندلس غربا في امبراطورية افريقية جديدة . اخيرا تتفتت هذه الامبراطورية بدورها الى اسر حاكمة تمثلت في دولة الحفصيين في المغربيـن الاوسط والادنى ودولة بني مرين في المغرب الاقصى ودولة بنـي نصر في الاندلس .

في المرحلة السادسة كان هذا التفتت في القوى الاسلامية على الجناح الغربـي من العالم الاسلامي قد فتح الباب من جديد لظهور الصراع التقليدي القديم بين الشرق والغرب عبر البحر المتوسط . فتتقدم الاساطيل الاسبانية والبرتغالية الى شواطئ الشمال الافريقـي وتنزل فيه ، في اول محاولة غربية للاستيلاء عليه مجددا بعد تحرره الكامل من سلطة بيزنطة في نهاية القرن الهجري الاول . واذذاك يظهر الاسطول العثماني ، في الجبهة المقابلـة ، ويتحرك الى مياه الحوض الغربـي من البحر المتوسط ، ويقضي على تلـك

المحاولة ، ويعيد السيادة الاسلامية على الشمال الافريقي في حلتها العثمانية الجديدة .

هذا هو الاطار الذي وقعت فيه أحداث التاريخ الاسلامي في شمال أفريقية . وهو اطار لا يختلف في ملامحه العامة عما شهده الجناح الشرقي من الدولة الاسلامية في الشام والعراق ، لكنه في شمال افريقية بالذات كان قد تميز بلقاء خاص بين ابناء الحضارة الواحدة في صحراء العرب وفي الصحراء الكبرى على حد سواء ، وكان هذا اللقاء في حد ذاته اطارا آخر لحدث رئيسي حاسم جدا .

فحتى ظهور الاسلام كانت حياة البداوة لا تعني لسكان المدن سوى البدائية والفوضى ، وكان احتمال قيام حضارة في الصحراء يبدو فكرة خرافية وغريبة بالنسبة لهم مثل فكرة احتمال عدم قيامها في المدن . لكن النظرية انقلبت فجأة رأسا على عقب عندما ظهر الاسلام بمفهوم جديد ــ ومختلف ــ لمعنى الحضارة نفسها ، وبادر لاجتياح المدن باعتبارها ــ هي بالذات ــ الجبهة الوحيدة المغلقة في وجه مبادئه الكبرى وحضارته الحقيقية وراء اسوارها وحصونها التي اشار اليها القرآن منذ المعارك الاولى ضد حصون اليهود في خيبر بقوله في سورة الحشر :

« لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر ... » .
(سورة الحشر ، الآية ١٤)

فمدن القرن السابع كانت هي قواعد الاحتكارات الامبريالية الواسعة التي عملت الامبراطوريات على حراستها بأسوار من الحاميات والحصون . وفي داخل هذه القواعد كانت الحضارة شيئا والانسانية شيئا آخر . وكانت كلمة التحضر نفسها لا تحمل فكرة التفوق الخلقي أو العقلي بل تعني فقط أن يعيش المرء في المدينة لكي يصبح متحضرا ــ أو كما يقال عادة ــ يصبح من اهل الحضر . وهو مفهوم يعني ضمنيا ان المجتمع الانساني الآخر خارج المدن مجتمع بدوي وغير متحضر .

هذه الفكرة الغريبة بدت اكثر غرابة في ضوء الاسلام .
فالربط بين الحضارة وبين الحاضرة نظرية خاصة لا علاقة لها بالعلم بل بالسياسة . انها مجرد شعار سياسي ترفعه الحكومات صاحبة السلطة في المدن . واذا كانت الفكرة تبدو الآن مالوفة الى حد اننا لم نعد نفرق بين معنى الحضارة وبين ما يحدث في الحواضر ، فان ذلك أيضا مجرد دليل اضافي على مدى امعان الشعارات السياسية بالذات في تشويه رؤية الانسان لنفسه وعالمه .

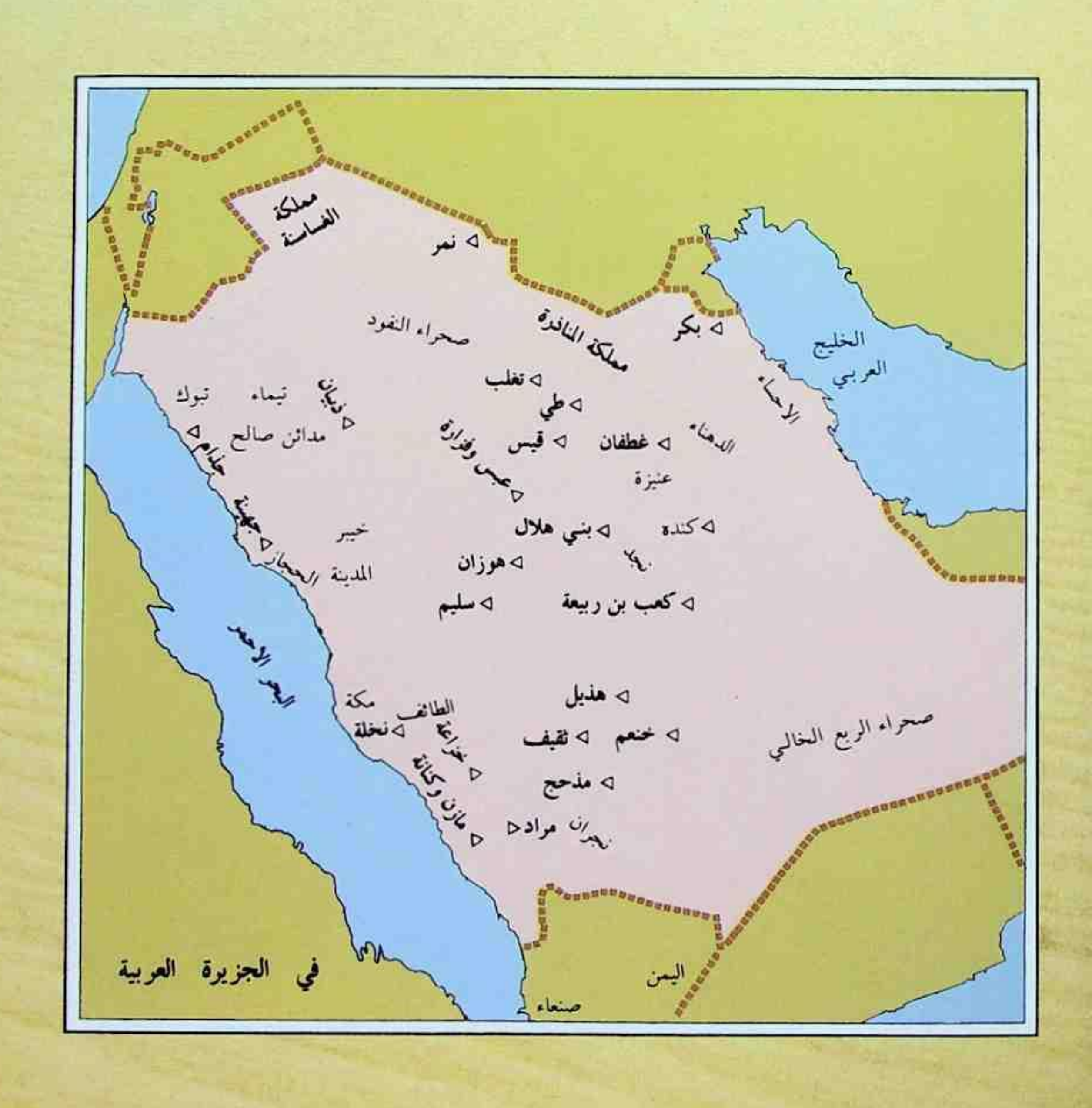
اما على ارض الواقع فان الحضارة ليست فكرة مطلقة يمكن فصلها عن مفهوم كلمة « انسان » ، وليست شيئا يحوزه المرء أو لا يحوزه ، بل هي منهج تعليمي لتربية الانسان نفسه ، ومن دون هذا المنهج ليس ثمة احد اصلا اسمه انسان .

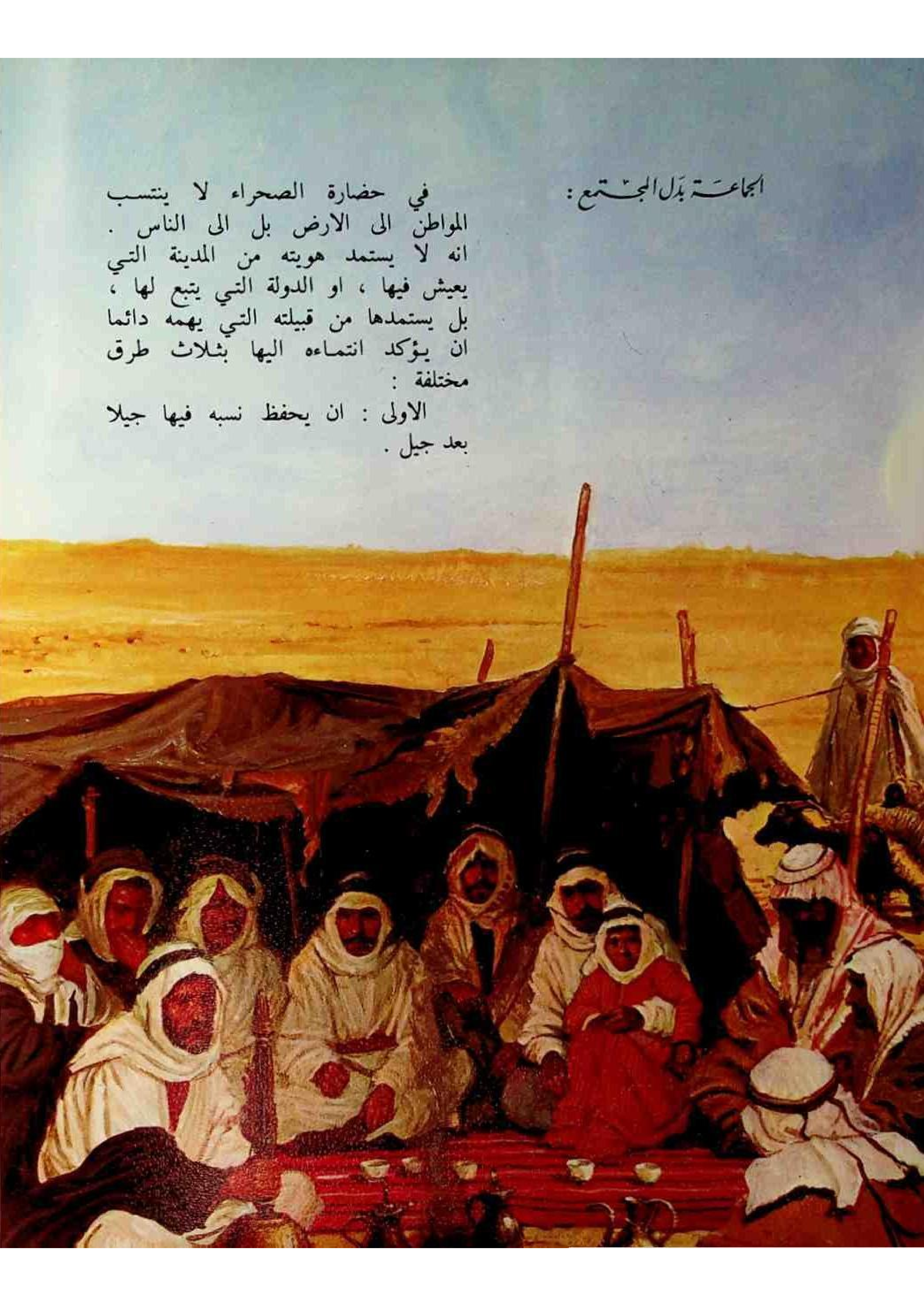
اننا نخلط بين الكفاءة وبين الحضارة ، لاننا نخلط عادة بين معنى الذكاء وبين معنى العقل ، لكن ذلك مجرد وهم شائع بيننا . فالذكاء وسيلة يمكن تسخيرها لخدمة كل مبدأ نفعي ، لكن العقل لا يرى النفع اصلا الا في مبدأ واحد بعينه : ذلك ان تصبح الحضارة في خدمة السلام والحياة . ولعل الوقت الآن قد تأخر كثيرا لانقاذ مجتمع الانسان من مأزق حضارته الحالية التي أدت ـ بفضل ذكائه ـ الى تقسيم الجنس البشري كله في معسكرات مسلحة تتبادل التهديدات بحرب نووية هدفها الاول ـ ومقياس نجاحها ـ ابادة الانسان والحياة معا ، ولعل عملية الانقاذ نفسها قد لا تتم ابدا . لكن الواضح ان المفهوم الشائع للحضارة لم يكن صائبا منذ بدايته ، وان الخلط بين طريق العقل وبين حيل الاذكياء لم يكن فكرة ذكية جدا في حد ذاتها .

لقد اشار القرآن الكريم الى ابعاد هذه الحقيقة المؤلمة في آيات منها قوله تعالى في سورة ابراهيم : « ان الانسان لظلوم كفار » ، وفي سورة العلق : « ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » ، وفي سورة العصر : « ان الانسان لفي خسر » ، وفي سورة العاديات : « ان الانسان لربه لكنود » . وفي كل آية يبدو من الواضح ان الاتهام ليس موجها للانسان في حد ذاته ، بل الى مناهجه الحضارية القائمة على الذكاء والحيلة والرياء الاجتماعي واصطناع الرضى حتى على حساب فطرته وعقله . وهي مناهج تتوفر فقط في حضارات المدن التي كانت دائما ـ وما تزال ـ مجرد نظم ومؤسسات ذات مبدأ نفعي بحت لا يهمه من الانسان ، ولا يرجو من ورائه ، سوى النفع المادي وحده ، تلك الفكرة الغريبة القاسية التي لم تصنع حضارة للانسان بقدر ما اعطته بديلا خادعا عن الحضارة . ولعل ظهور الاسلام بشرائعه الكبرى المتناهية الشمول والتجريد في مجتمع قبلي داخل الصحراء ـ وليس في مدينة او دولة ـ هو في حد ذاته شهادة من العصر باكمله على موطن الحضارة الحقيقية في ذلك الوقت .

فالقبيلة ليست نظاما متخلفا ـ او اقل تطورا من نظام الدولة ـ الا من وجهة نظر سكان المدن وحدهم . اما في ارض الواقع فهي الصيغة التلقائية الوحيدة التي اختارها الانسان لمواجهة البيئة بقوة الجماعة ، وهي بذلك تبدو بمثابة النموذج الاكثر استحقاقا للدراسة في ملحمة البحث عن صيغة ممكنة لجمع الجنس البشري بأسره في أمة كبيرة واحدة .

فالواقع ان القبيلة ليست طورا من اطوار الدولة بل نوعا مختلفا ـ ومعرضا الآن للانقراض ـ من انواع الدول التي لا تحكم الارض بل تحتوي الانسان ، ولا يربط بين افرادها شخص الحاكم او سور المدينة بل تجمع بينهم وحدة الهوية التي يرمزون اليها بوحدة الدم . وهي البناء الاجتماعي الآخر الذي لا يبدو بمثابة بديل عن نظام الدولة فحسب ، بل انه ايضا يبدو اكثر ملاءمة لطبيعة الانسان وحاجاته الحقيقية :

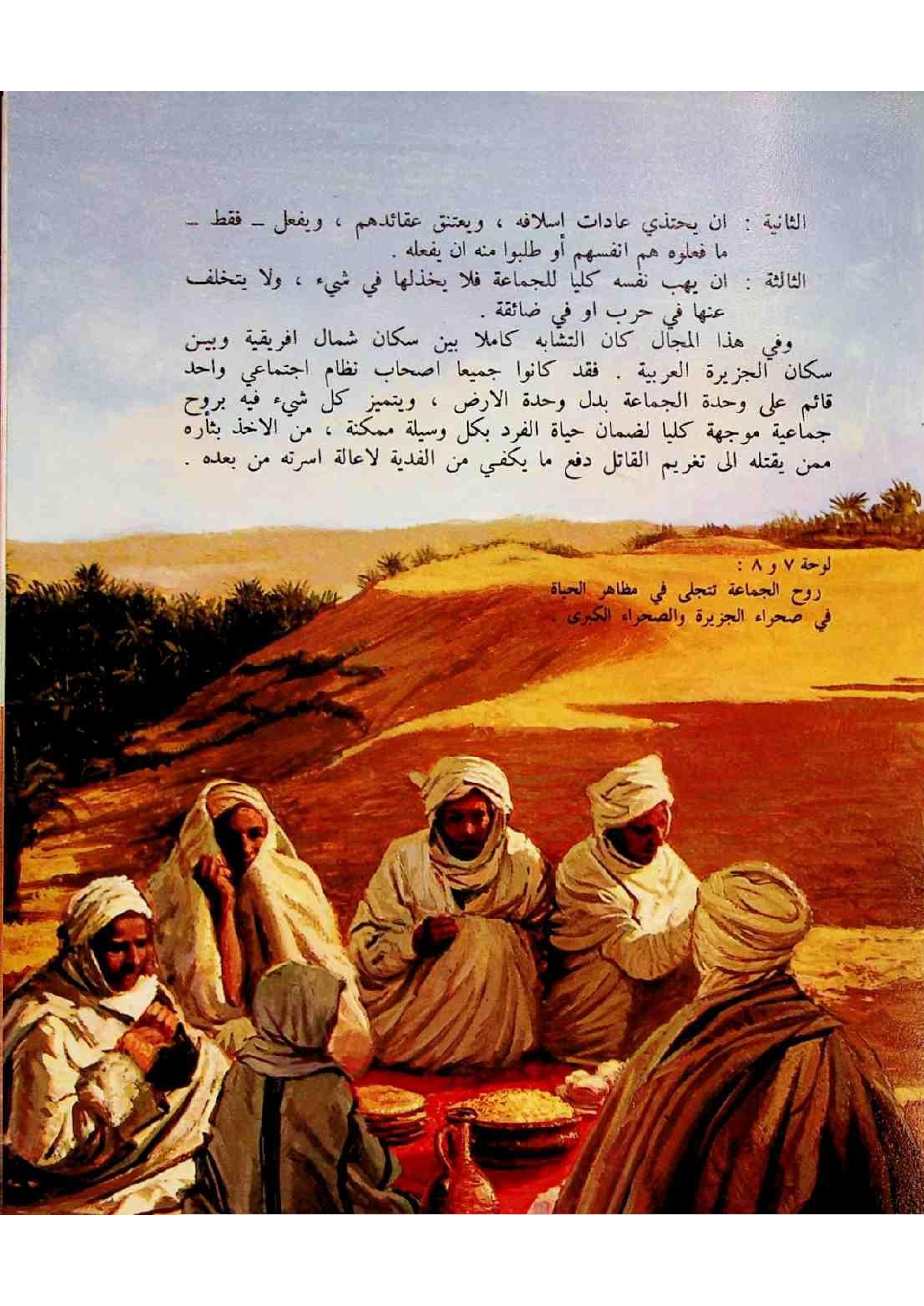




الجماعة بدل المجتمع :

في حضارة الصحراء لا ينتسب المواطن الى الارض بل الى الناس . انه لا يستمد هويته من المدينة التي يعيش فيها ، او الدولة التي يتبع لها ، بل يستمدها من قبيلته التي يهمه دائما ان يؤكد انتماءه اليها بثلاث طرق مختلفة :

الاولى : ان يحفظ نسبه فيها جيلا بعد جيل .

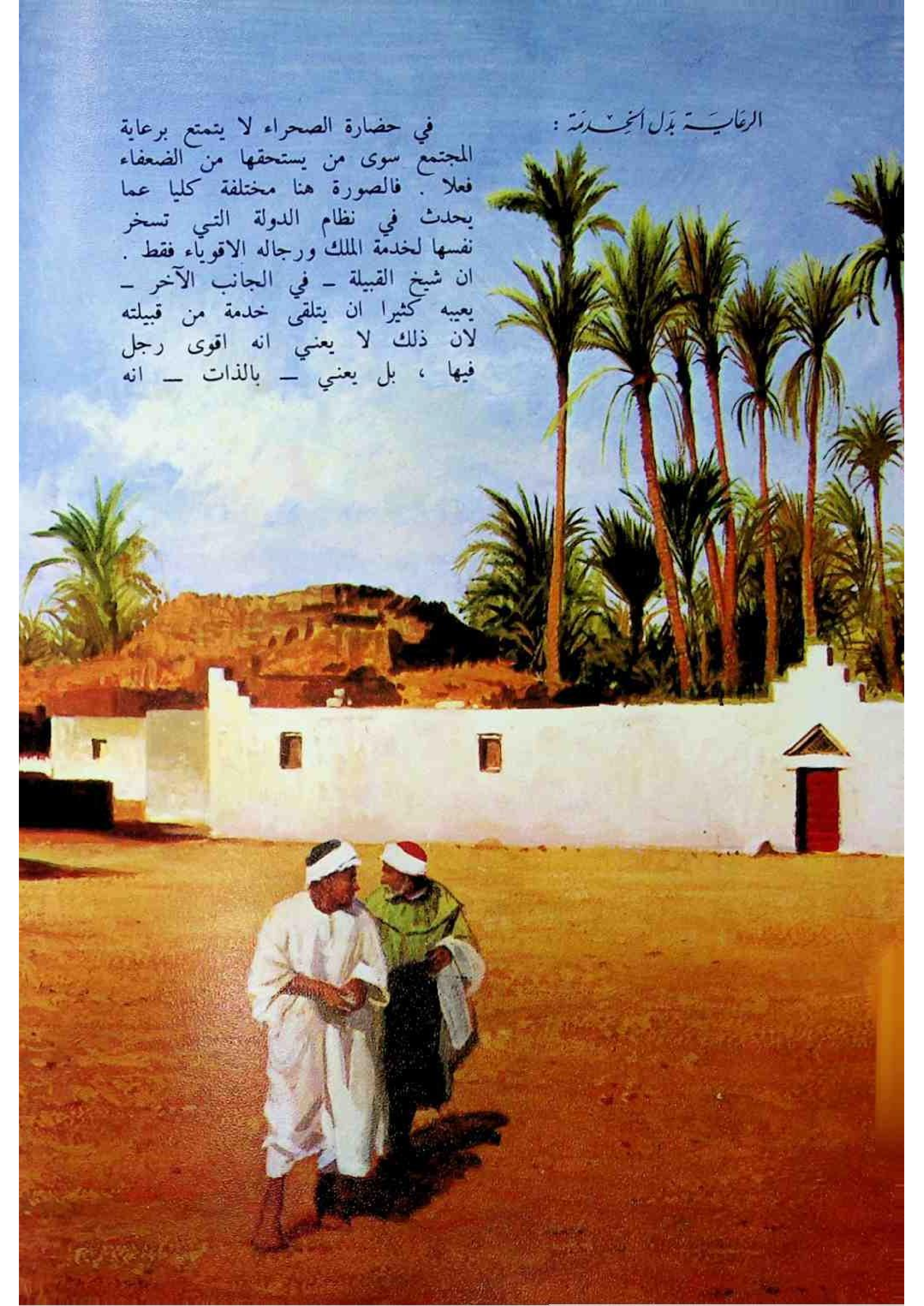


الثانية : ان يحتذي عادات اسلافه ، ويعتنق عقائدهم ، ويفعل ـ فقط ـ ما فعلوه هم انفسهم أو طلبوا منه ان يفعله .

الثالثة : ان يهب نفسه كليا للجماعة فلا يخذلها في شيء ، ولا يتخلف عنها في حرب او في ضائقة .

وفي هذا المجال كان التشابه كاملا بين سكان شمال افريقية وبين سكان الجزيرة العربية . فقد كانوا جميعا اصحاب نظام اجتماعي واحد قائم على وحدة الجماعة بدل وحدة الارض ، ويتميز كل شيء فيه بروح جماعية موجهة كليا لضمان حياة الفرد بكل وسيلة ممكنة ، من الاخذ بثأره ممن يقتله الى تغريم القاتل دفع ما يكفي من الفدية لاعالة اسرته من بعده .

لوحة ۷ و ۸ :
روح الجماعة تتجلى في مظاهر الحياة في صحراء الجزيرة والصحراء الكبرى .



الرعاية بدل الخدمة :

في حضارة الصحراء لا يتمتع برعاية المجتمع سوى من يستحقها من الضعفاء فعلا . فالصورة هنا مختلفة كليا عما يحدث في نظام الدولة التي تسخر نفسها لخدمة الملك ورجاله الاقوياء فقط . ان شيخ القبيلة – في الجانب الآخر – يعيبه كثيرا ان يتلقى خدمة من قبيلته لان ذلك لا يعني انه اقوى رجل فيها ، بل يعني — بالذات — انه

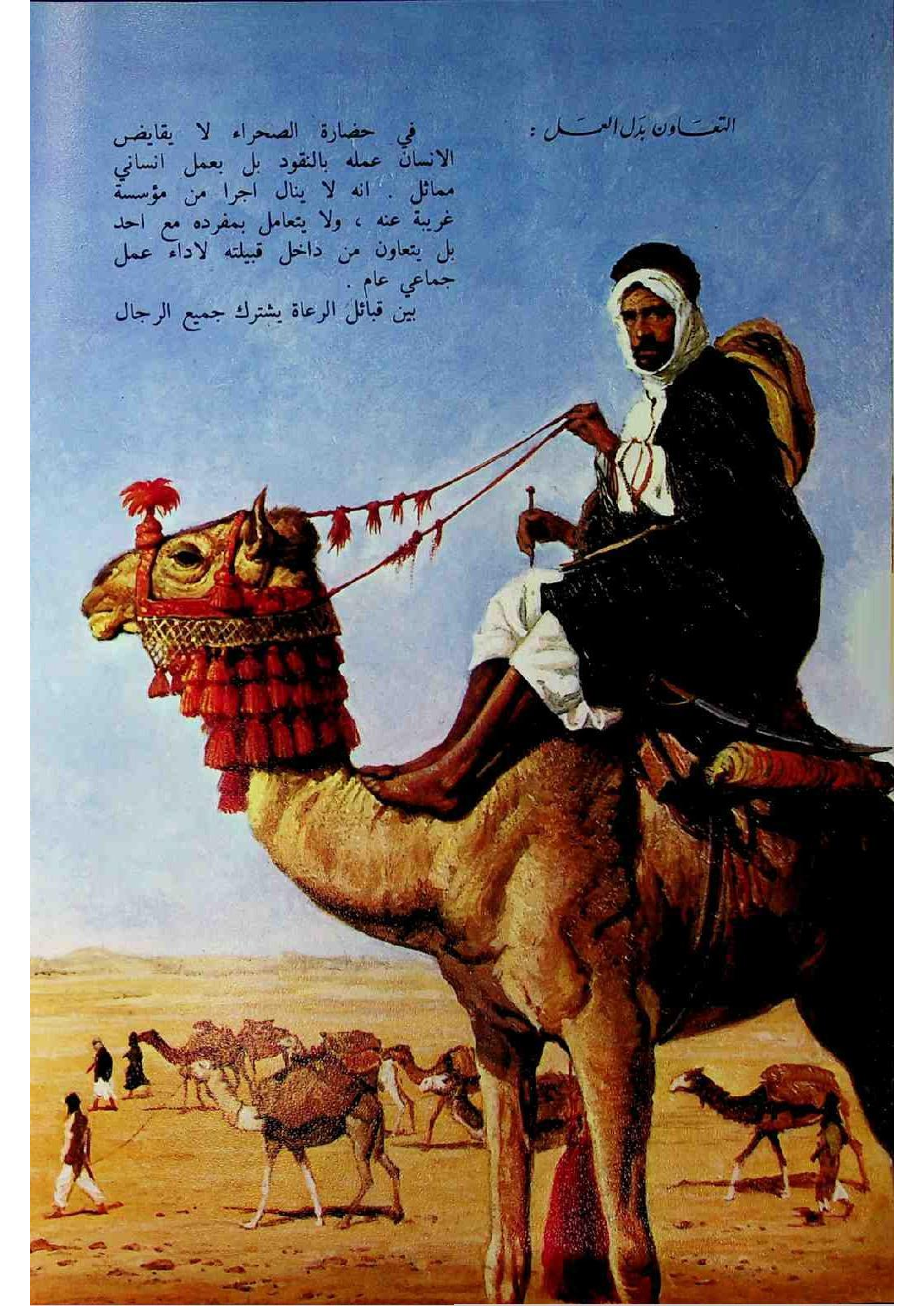
اضعف من كل رجل ومن كل امرأة ايضا .

فالخدمة داخل نطاق القبيلة مخصصة للضعفاء من العجزة والاطفال وكبار السن وحدهم دون سواهم . وقد تميزت اداب القبائل واشعارها بالتركيز على هذه الظاهرة نفسها بمثابة مقياس شامل لجميع المثل الاخلاقية في حضارة الصحراء ، من المروءة والكرم ونجدة الضعيف الى التعالي والشمم عن خدمة ذوي النفوذ والاغنياء .

اما فضيلة اقراء الضيف ـ وهو عادة رجل مغترب يواجه وحده اهوال الصحراء ـ فقد اجمعت اداب القبائل على ابرازها باعتبارها الفضيلة الاولى التي تستحق ان يفخر بها مواطن هذه الصحراء نفسها .



لوحة ٩ و ١٠ :
الرعاية مبذولة فقط للعجزة من كبار السن او صغار السن ، والخدمة واجب الاقوياء .



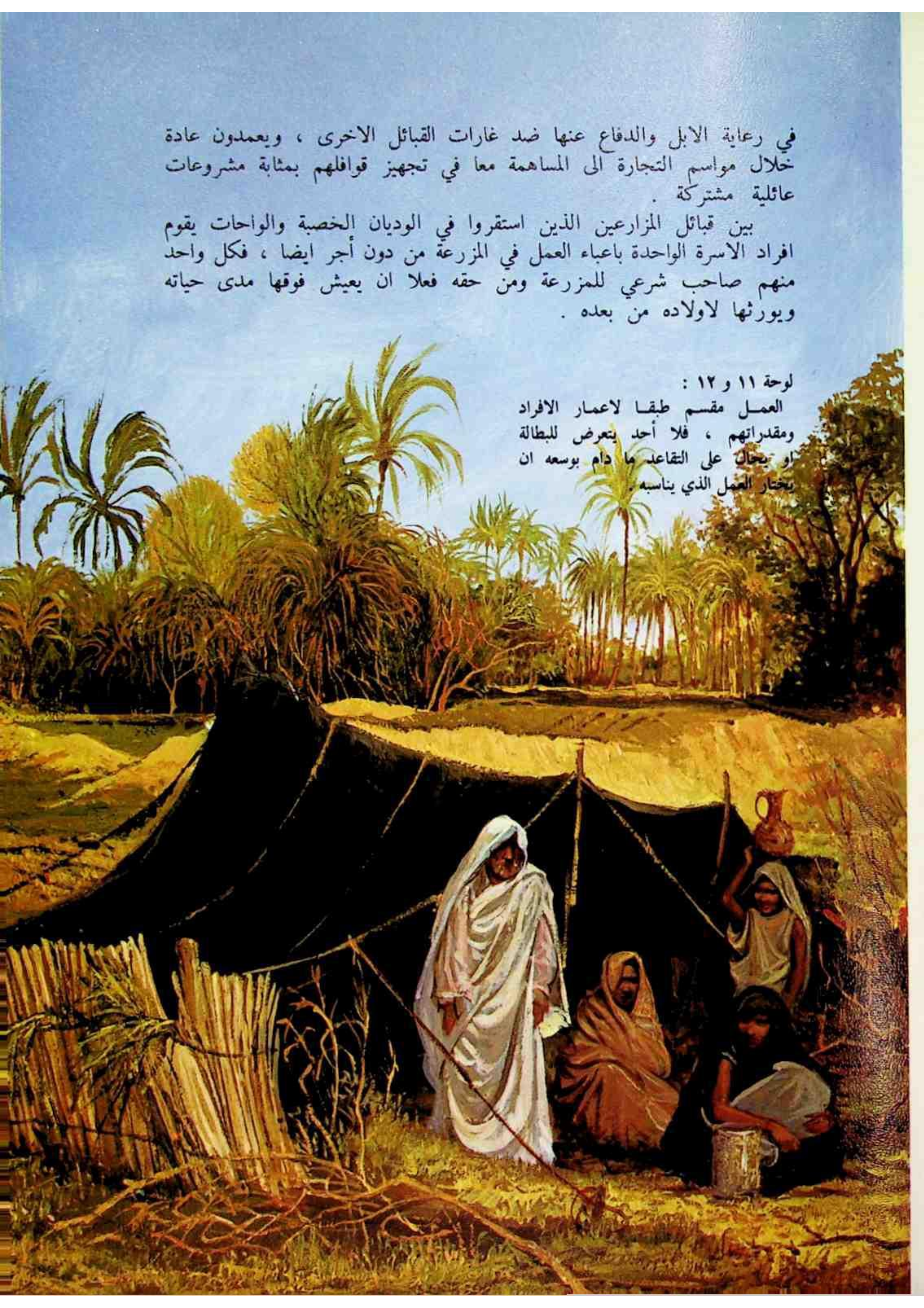
التعاون بدل العمل :

في حضارة الصحراء لا يقايض الانسان عمله بالنقود بل بعمل انساني مماثل . انه لا ينال اجرا من مؤسسة غريبة عنه ، ولا يتعامل بمفرده مع احد بل يتعاون من داخل قبيلته لاداء عمل جماعي عام .

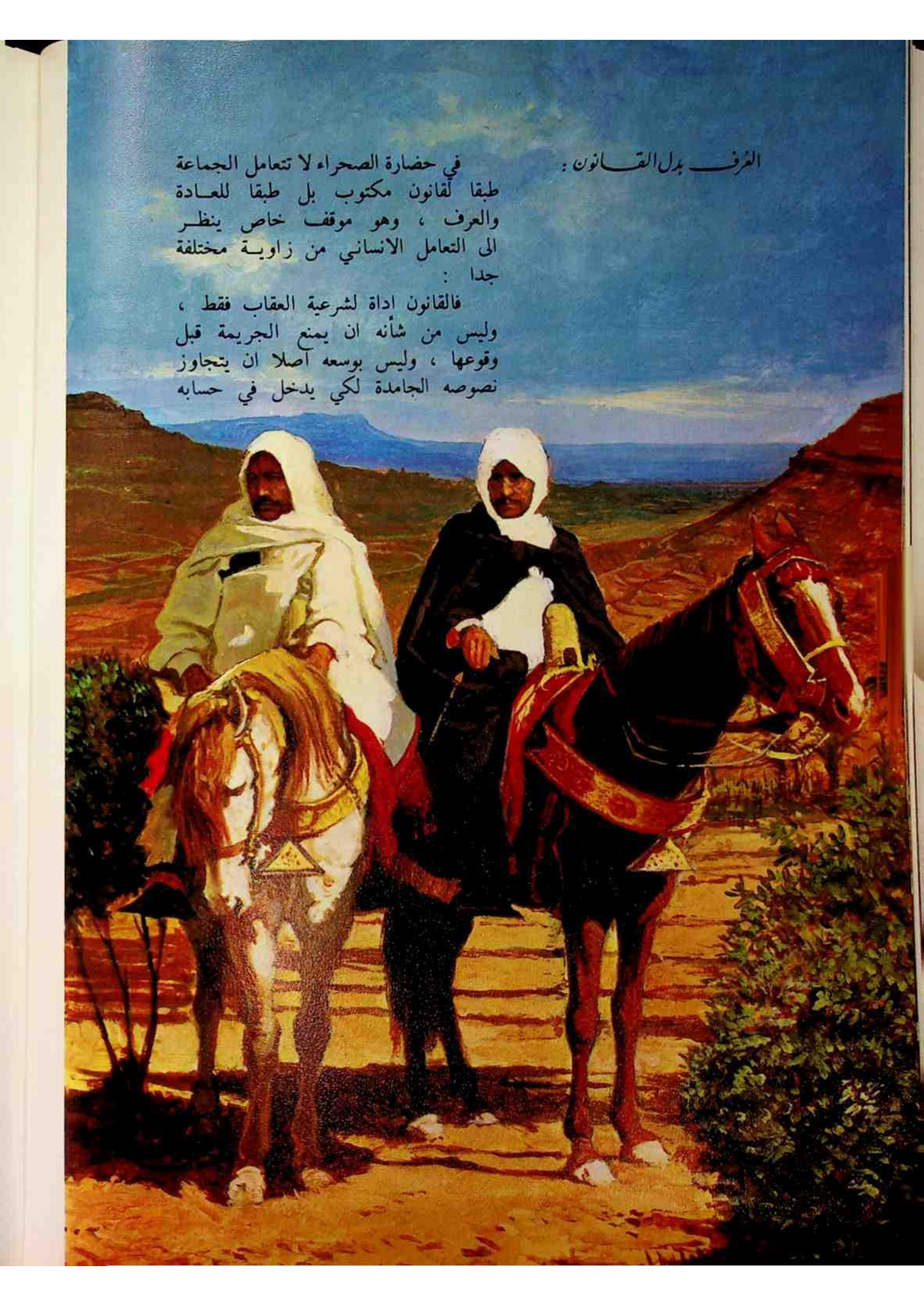
بين قبائل الرعاة يشترك جميع الرجال

في رعاية الابل والدفاع عنها ضد غارات القبائل الاخرى ، ويعمدون عادة خلال مواسم التجارة الى المساهمة معا في تجهيز قوافلهم بمثابة مشروعات عائلية مشتركة .

بين قبائل المزارعين الذين استقروا في الوديان الخصبة والواحات يقوم افراد الاسرة الواحدة باعباء العمل في المزرعة من دون أجر ايضا ، فكل واحد منهم صاحب شرعي للمزرعة ومن حقه فعلا ان يعيش فوقها مدى حياته ويورثها لاولاده من بعده .



لوحة ١١ و ١٢ :
العمل مقسم طبقا لاعمار الافراد ومقدراتهم ، فلا أحد يتعرض للبطالة او يحال على التقاعد ما دام بوسعه ان يختار العمل الذي يناسبه .



العرف بدل القانون :

في حضارة الصحراء لا تتعامل الجماعة طبقا لقانون مكتوب بل طبقا للعادة والعرف ، وهو موقف خاص ينظر الى التعامل الانساني من زاوية مختلفة جدا :

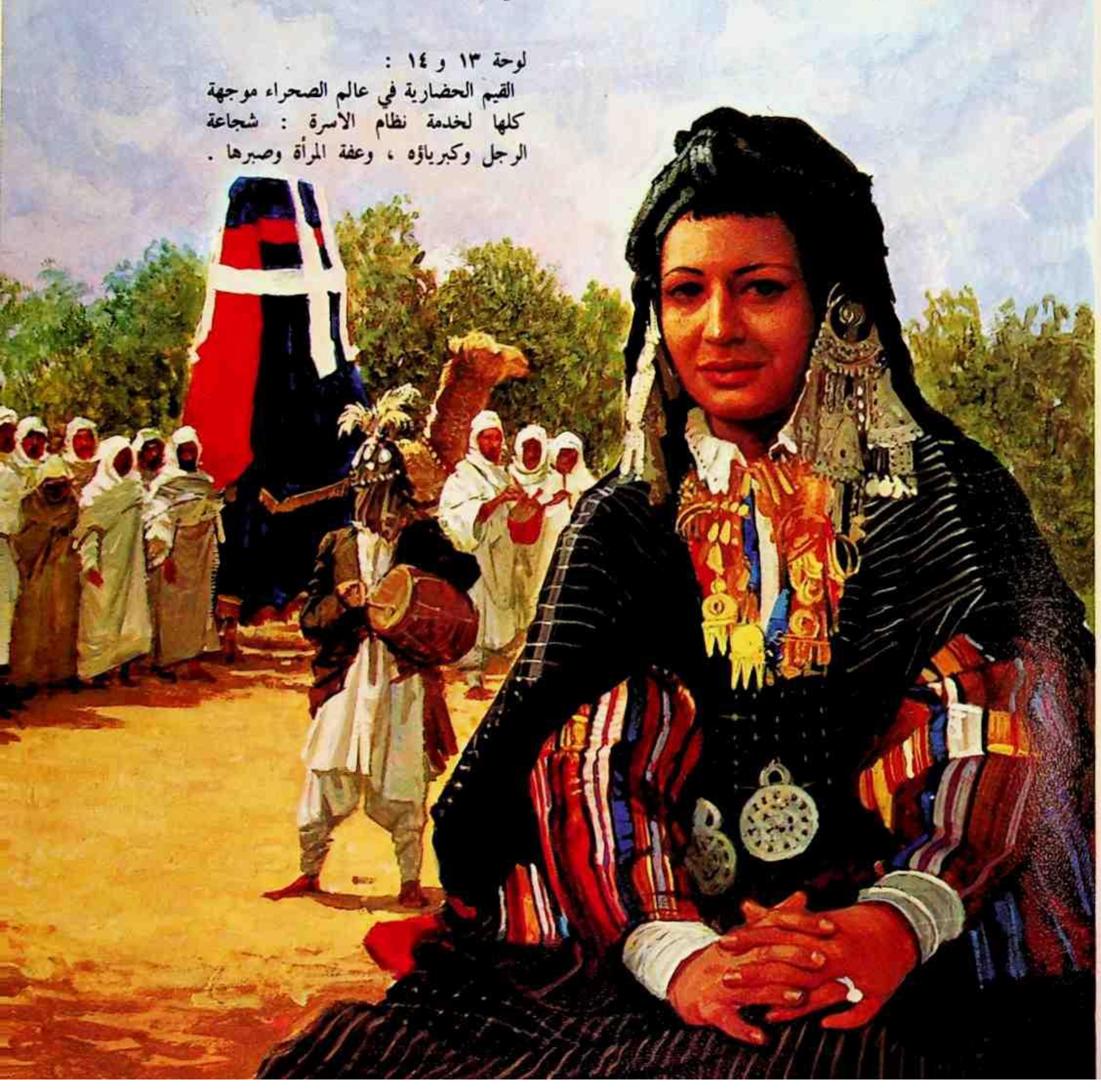
فالقانون اداة لشرعية العقاب فقط ، وليس من شأنه ان يمنع الجريمة قبل وقوعها ، وليس بوسعه اصلا ان يتجاوز نصوصه الجامدة لكي يدخل في حسابه

تفاصيل معقدة مثل نسبية الجريمة ونسبية الظروف .

اما العرف في الجانب الآخر فهو القانون الحي الذي لا يعاقب فقط بل يكافئ ايضا ، ويحتفظ لنفسه بحق التدخل لمنع الجريمة قبل وقوعها ، وينمو بين الناس ويتغير معهم . واذا كان القانون عادة مجرد نظريات ادارية نابعة من مصلحة الدولة ، فان العرف دائما ترجمة حقيقية لما فيه خير الجماعة نفسها .

وقبل كل شيء آخر ، فان القانون هو اوامر الجماعة للفرد ، اما العرف فهو الرابطة بين الفرد والجماعة وهو الوازع الداخلي الوحيد الذي يستطيع ان يحتوي حرية الانسان ويحدد مسؤوليته في مساحات الصحراء المترامية .

لوحة ١٣ و ١٤ :
القيم الحضارية في عالم الصحراء موجهة كلها لخدمة نظام الاسرة : شجاعة الرجل وكبرياؤه ، وعفة المرأة وصبرها .

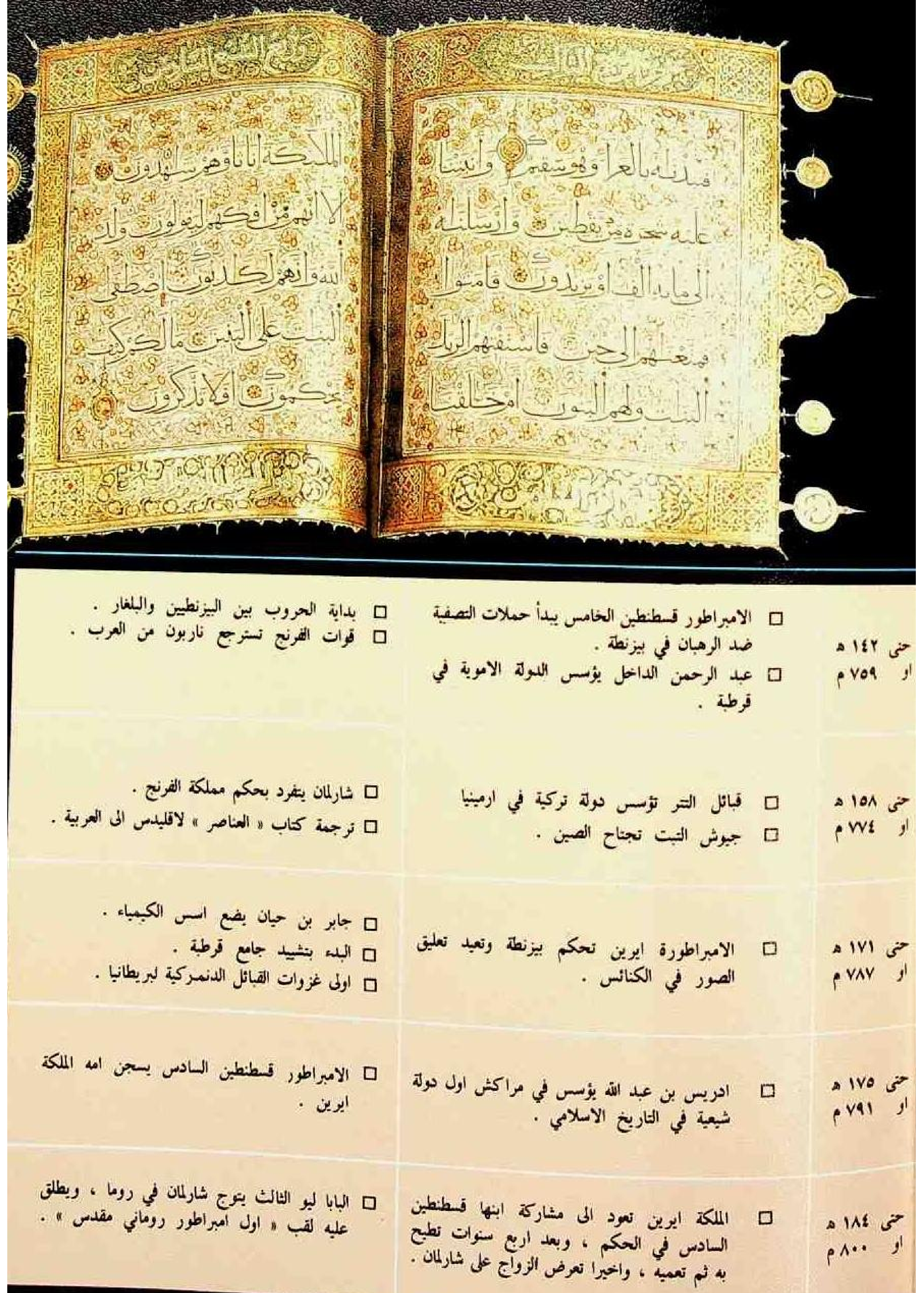


لوحة ١٥ :
مصحف من القرن الهجري الثامن مكتوب بخط يسمى « الجليل » .

العالم من حول الاسلام

(من سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م)

حتى ٨٢ هـ او ٧٠١ م	□ المسلمون يحررون معظم اراضي الجزائر الحالية . □ اليونانية بدل اللاتينية لغة رسمية لبيزنطة .	□ قانون جديد في اليابان يبيح « للميكادو » ان يكون المالك الوحيد لجميع اراضي الدولة .
حتى ٩٣ هـ او ٧١١ م	□ جستنيان الثاني يستعيد حكم بيزنطة . □ بناء الجامع الاموي الكبير في دمشق . □ دخول زراعة السكر الى مصر.	□ فيليب باردانس يغتال الامبراطور جستنيان الثاني ويحكم الامبراطورية البيزنطية تحت اسم فيليبيكوس .
حتى ١٠٢ هـ او ٧٢٠ م	□ طارق بن زياد يهزم الملك القوطي لذريق (رودريك) في موقعة « كزبريس ديلافرونتيرا » . □ محمد بن القاسم يؤسس اول دولة اسلامية في السند .	□ مينغ هوانغ يعتلي العرش في الصين . □ ليو الثالث يستولي على عرش بيزنطة . □ تودوريك الرابع ملكا على قبائل الفرنج .
حتى ١٢٢ هـ او ٧٣٩ م	□ ليو الثالث يجعل من تحريم الصور في الكنائس البيزنطية سياسة الدولة الرسمية . □ البابا غريغوري الثاني يصدر قرارا بحرمان ليو الثالث من الكنيسة .	□ شارل مارتل يرد الجيوش الاسلامية . □ البابا غريغوري الثالث يطلب من شارل مارتل مساعدته على العرب واللومبارديين والبيزنطيين .
حتى ١٣٣ هـ او ٧٥٠ م	□ ظهور اولى الصحف الاخبارية المطبوعة في بكين .	□ ازدهار علوم الطب والفلك والرياضيات والبصريات والكيمياء في الاندلس ، وتأسيس مدينة غرناطة .



حتى ١٤٢ هـ او ٧٥٩ م	□ الامبراطور قسطنطين الخامس يبدأ حملات التصفية ضد الرهبان في بيزنطة . □ عبد الرحمن الداخل يؤسس الدولة الاموية في قرطبة .	□ بداية الحروب بين البيزنطيين والبلغار . □ قوات الفرنج تسترجع ناربون من العرب .
حتى ١٥٨ هـ او ٧٧٤ م	□ قبائل التتر تؤسس دولة تركية في ارمينيا □ جيوش التبت تجتاح الصين .	□ شارلمان يتفرد بحكم مملكة الفرنج . □ ترجمة كتاب « العناصر » لاقليدس الى العربية .
حتى ١٧١ هـ او ٧٨٧ م	□ الامبراطورة ايرين تحكم بيزنطة وتعيد تعليق الصور في الكنائس .	□ جابر بن حيان يضع اسس الكيمياء . □ البدء بتشييد جامع قرطبة . □ اولى غزوات القبائل الدنمركية لبريطانيا .
حتى ١٧٥ هـ او ٧٩١ م	□ ادريس بن عبد الله يؤسس في مراكش اول دولة شيعية في التاريخ الاسلامي .	□ الامبراطور قسطنطين السادس يسجن امه الملكة ايرين .
حتى ١٨٤ هـ او ٨٠٠ م	□ الملكة ايرين تعود الى مشاركة ابنها قسطنطين السادس في الحكم ، وبعد اربع سنوات تطبح به ثم تعميه ، واخيرا تعرض الزواج على شارلمان .	□ البابا ليو الثالث يتوج شارلمان في روما ، ويطلق عليه لقب « اول امبراطور روماني مقدس » .

مسرح الأحداث
في
الدولة الإسلامية
(١)

(من سنة ١١ الى سنة ٤١)

الفجر في أوله

ـ سنة ١١ تولى الخلافة ابو بكر الصديق اول الخلفاء الراشدين ، وما لبثت معارك حرب الردة ان استغرقت المرحلة الاولى من ولايته القصيرة الامد (١١ ـ ١٣) . في نهاية تلك المعارك تم توحيد الجزيرة العربية مرة اخرى تحت لواء الاسلام .

ـ سنة ١٢ خرجت من المدينة ثلاث سرايا وزحفت باتجاه الشام تحت قيادة كل من عمرو بن العاص ويزيد بن ابي سفيان (يرافقه اخوه معاوية) وشرحبيل بن حسنة ، وتولى ابو عبيدة بن الجراح القيادة العامة لذلك الجيش الصغير الذي لم يتعد افراده العشرة آلاف . في وقت لاحق انضم الى الحملة خالد بن الوليد .

بدأت العمليات العسكرية في وقت واحد على جبهتين :
جبهة في الشمال والغرب ، حيث كان هرقل يحاول يائسا بعث امجاد الامبراطورية الرومانية . فبعد انتصاره على الفرس ضم مصر الى الاملاك البيزنطية بالاضافة الى الشام وبيت المقدس .

جبهة في الشرق ، حيث كانت الاسرة الساسانية تتراجع عن فارس والعراق ، بعد ان استنفدت قواتها في مواجهاتها الخاسرة مع بيزنطة من جهة ، وفي المعارك الباهرة التي خاضها خالد بن الوليد ضد قوات هرمز من جهة اخرى .

في مطلع سنة ١٣ زحف خالد بن الوليد من الحيرة واتجه غربا نحو دمشق مخترقا صحراء النفود في رحلة من اشهر الرحلات المثيرة عبر الصحراء في العالم القديم . فقد حول جماله ـ كما يقول الرواة ـ الى مخازن متنقلة للمياه والمؤن ، ينحرها اثناء زحفه لتشرب جياده ويأكل جنوده .

في آخر السنة نفسها دخل خالد دمشق بعد حصار دام ستة اشهر ، واعطى اهلها عهدا كان نموذجا لما اعطاه المسلمون لسائر المدن « ... اعطاهم أمانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيئا من دورهم .لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية » . وجعلت الجزية دينارا وعيار حنطة على الشخص الواحد .

من دمشق خرج خالد للالتحاق ببقية الجيش العربي المعسكر في مواجهة قوات ثيودورس شقيق هرقل عند نهر اليرموك . وفي الموقعة التي جرت سنة ١٥ على ضفتي النهر سجل هذا القائد لنفسه مجده العسكري الباهر بمثابة واحد من أعظم قادة حروب الصحراء في جميع العصور : افتتح هجومه في وسط فصل الصيف ، وجر الروم للقتال بدروعهم الحديدية الثقيلة في يوم قائظ ، ثم ارغمهم على التخلي عن جميع تشكيلاتهم النظامية بخطته الشهيرة في شن هجومه بالكراديس تارة وبالمشاة تارة اخرى ، فنجح بذلك في تحطيم العمود الفقري لقوات الروم المسلحة وانهاء سيطرتها على اراضي الشام التي ودعها هرقل في وقت لاحق بعبارته المشهورة قائلا : « عليك يا سوريا السلام ، ونعم البلد انت للعدو » .

في العراق كان جيش المسلمين بقيادة سعد بن ابي وقاص يشتبك مع القوات الفارسية في معركة القادسية قرب الحيرة . وقد بدأ سعد معركته في يوم كثيف الغبار ملتهب الحرارة من ايام صيف سنة ١٦ ، واتبع خطة

حرب الصحراء ذاتها التي قادت الى النصر في معركة اليرموك ، فتشتت جيش الفرس وانفتحت الطريق الى سهول العراق الخصيبة .

سنة ١٧ تقدم الجيش المنتصر على الروم لحصار بيت المقدس . لكن المدينة عرضت ان تفتح له ابوابها من دون قتال اذا حضر الخليفة بنفسه لاستلامها . وقد جاء عمر بن الخطاب فعلا واستلم بيت المقدس في استعراض مهيب لمثاليات الدولة الجديدة التي استبدلت ، لاول مرة في تاريخ الدول ، غرور القوة العسكرية بتواضع الائمة وكرههم للظلم وسفك الدماء .

في العام التالي زحف عمرو بن العاص من فلسطين متجها الى مصر على رأس اربعة آلاف فارس ، وقد سلك اليها الطريق المألوفة نفسها التي كانت تربط مراكز الحضارة في الشرق القديم ، وهي طريق شهدت مرور ابراهيم الخليل عليه السلام وموسى والسيد المسيح .

خلال عشرين شهرا اختتم عمرو بن العاص عملياته العسكرية في مصر باحتلال الاسكندرية ، والدخول مع المقوقس في معاهدة اشبه بالتحالف ادت الى تحرير كنيسة الاقباط من هيمنة الكنيسة البيزنطية ، واجلاء الروم نهائيا عن مصر باكملها لاول مرة منذ عصر يوليوس قيصر في القرن الاول قبل الميلاد .

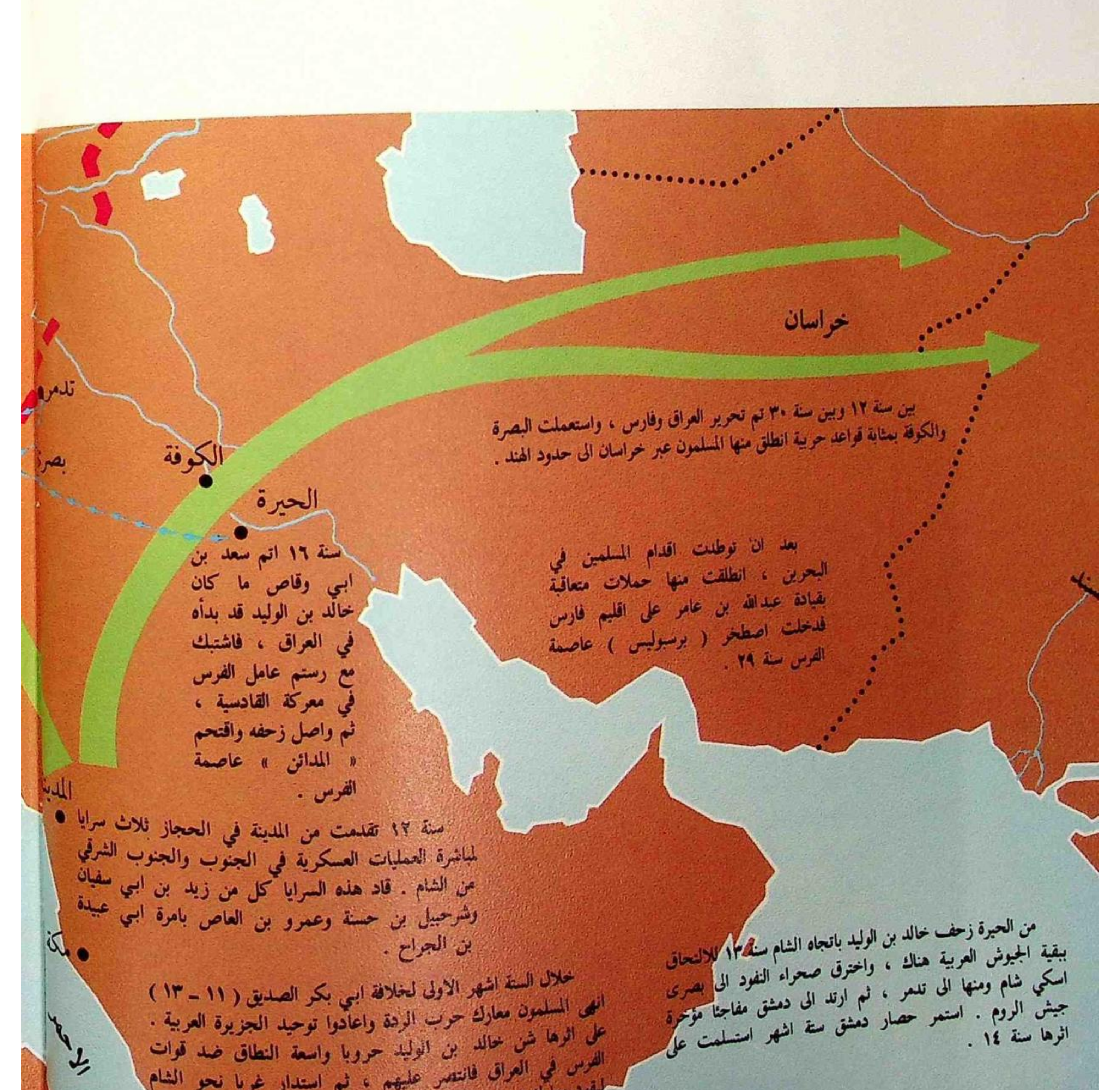
من الاسكندرية عاد عمرو بن العاص الى قاعدته الاولى في عين شمس (هليوبوليس) ، وبدأ ببناء مدينة الفسطاط ، العاصمة الجديدة لمصر . ثم انطلق بعدها غربا فحرر برقة وواصل زحفه الى ان دخل طرابلس سنة ٢٢ .

ـ في اواخر سنة ٢٣ قتل الخليفة عمر بن الخطاب ، بينما كان يصلي في مسجد المدينة ، بيد غلام يدعى « ابو لؤلؤة » . وتولى بعده عثمان بن عفان طيلة الفترة التي شهدت مولد الاسطول الاسلامي والعودة الى جبهات الحرب القديمة في البحر المتوسط :

ففي سنة ٢٥ استعاد كونستانس خليفة هرقل قاعدته البحرية في الاسكندرية . لكن العرب عادوا بعد سنة واستولوا عليها ثانية . ثم بدأوا يخوضون المعارك البحرية لأول مرة ، بعد ان اتخذوا من الاسكندرية وعكا قواعد لبناء السفن . فاستولى معاوية حتى سنة ٣٤ على الجزر القريبة من ساحل الشام : قبرص وارواد ورودس . وخاضت الاساطيل السورية والمصرية اهم معركة بحرية سنة ٣٥ هزمت فيها الاسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري ، عند ساحل ليسيا ، على مقربة من فينكس .

بعد هزيمة الروم في ليبيا حانت الفرصة لتوجيه الضربة الحاسمة الى عاصمتهم القسطنطينية . لكن خللا ما كان قد طرأ على دولة الخلافة نفسها : فقد انتهج الخليفة عثمان سياسة ارضاء ذوي قرباه (ومنهم معاوية) ، واعلن انصار علي بن ابي طالب الثورة في الكوفة ، واستشرت الفتنة حتى وصلت الى مصر . وعند نهاية سنة ٣٥ قتل الخليفة عثمان في ظروف مختلفة جدا عن الظروف التي شهدت مقتل عمر بن الخطاب .

بعد اسبوع واحد بويع لعلي بن ابي طالب في المدينة . لكن طلحة بن



عبد الله والزبير بن العوام ، زعيمي الحزب المكي ، التفا حول السيدة عائشة ، ام المؤمنين ، ثم انطلقوا جميعا يؤلبون انصارهم في العراق والحجاز ضد الخليفة الجديد ، فيما كان معاوية يعرض قميص عثمان الملطخ بالدماء على اهل الشام في حملة اعلامية ضخمة لالقاء تبعة قتله على عنق الخليفة شخصيا .

وتصاعدت نار الفتنة بين فئات المسلمين . واصبح دم عثمان ستارا يخفي مصالح ورغبات مبيتة . وخاض الخليفة معركته على جبهتين : فواجـه طلحة والزبير وقتلهما في معركة دارت قرب البصرة في منتصف سنة ٣٦ . (عرفت

لوحة ١٦ :
العمليات العسكرية حتى منتصف القرن الاول .



تلك المعركة « بيوم الجمل » لأن السيدة عائشة حضرت المعركة وهي راكبة جملا) . ثم اشتبك الخليفة مع معاوية في معركة صفين عند ضفة الفرات الغربية سنة ٣٧ . لكن تلك المعركة انتهت برفع المصاحف على الرماح في طلب مفاجئ من جانب معاوية للاحتكام الى القرآن الكريم .

ـ بعد سنتين عقد مؤتمر التحكيم في أذرح ، وكانت نتيجته خلع علي ومعاوية معا . لكن عليا كان في الواقع الخاسر الوحيد : فقبوله بمبدأ التحكيم بينه ـ وهو الخليفة ـ وبين أحد عمال الدولة جعله في منزلة واحدة مع معاوية الذي لم يكن حتى ذلك الوقت يجرؤ على اعلان طموحه الى الخلافة .

قصة التحكيم رواها العقاد على النحو التالي :

[وتقدم أبو موسى (الاشعري) فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الامة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد اجتمع رأيي ورأي عمرو (بن العاص) عليه . وهو ان نخلع عليا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الامر فيولوا منهم من احبوا عليهم . واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الامر اهلا » .

وتلا عمرو فقال بعد تمهيد : « ... ان هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه . وانا اخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية . فانه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه والطالب بدمه واحق الناس بمقامه » .

فغضب أبو موسى وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ... » .

فابتسم عمرو وهو يقول : « انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ... ». وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة] .

من ناحية اخرى لم يرض الخليفة بعض اتباعه الذين ادانوه لقبوله التحكيم واعتبروا ان القضاء في امر شرعية الخلافة لله وحده وليس لرجل او مجموعة رجال ، وخرجوا عليه وكانوا اشد خصومه عداء له ، وهم الذين عرفوا في التاريخ الاسلامي باسم الخوارج .

في شتاء سنة ٤١ تربص احد هؤلاء الخوارج بعلي في الكوفة (التي كان قد جعلها عاصمته) وضربه بسيف مسموم فقتله . وبمقتل علي بن ابي طالب

انقضى عصر الخلافة الاولى وعصر الخلفاء الراشدين .

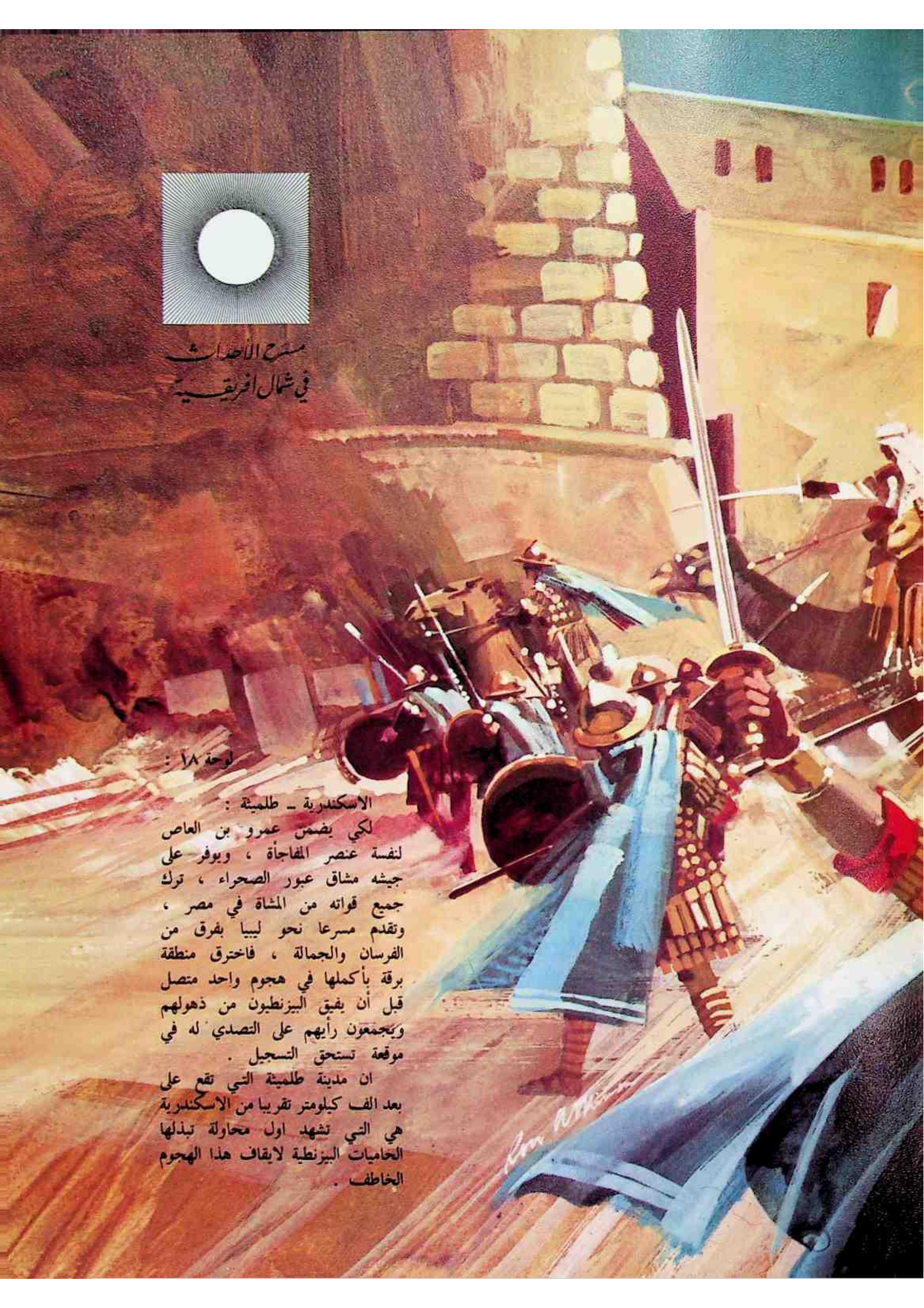
في السنة نفسها تمت في بيت المقدس بيعة الخلافة لمعاوية ، وهي اول بيعة في الاسلام تتم خارج المدينة ومن دون اجماع المسلمين ، فيما بايع اهل العراق الحسن بن علي . لكنه عاد فاضطر تحت الضغط الى التنازل لمعاوية ، وانسحب الى المدينة معلنا عزمه على اعتزال الحياة السياسية .

بعد ثماني سنوات توفي الحسن مسموما ، فعزا الشيعة موته الى تدبير من معاوية شخصيا . وكان ذلك في الواقع بداية المقاومة المسلحة التي اندلعت ، خلال المرحلة التالية ، في وجه معاوية واسرته ، للدفاع عن مبادئ الشورى والخلافة من جهة ، وتخريب مشروعه الرامي الى تولية ابنه يزيد وتأسيس مملكة اموية وراثية من جهة اخرى .*



لوحة ١٧ :
شال من تصاميم شمال افريقية





مسرح الأحداث في شمال افريقية

لوحة ١٨ :

الاسكندرية ـ طلميثة :

لكي يضمن عمرو بن العاص لنفسة عنصر المفاجأة ، ويوفر على جيشه مشاق عبور الصحراء ، ترك جميع قواته من المشاة في مصر ، وتقدم مسرعا نحو ليبيا بفرق من الفرسان والجمالة ، فاخترق منطقة برقة بأكملها في هجوم واحد متصل قبل أن يفيق البيزنطيون من ذهولهم ويجمعون رأيهم على التصدي له في موقعة تستحق التسجيل .

ان مدينة طلميثة التي تقع على بعد الف كيلومتر تقريبا من الاسكندرية هي التي تشهد اول محاولة تبذلها الحاميات البيزنطية لايقاف هذا الهجوم الخاطف .

عصر التحرير

سنة ٢١ انتهت معركة الاسلام الاولى على ارض افريقية باجلاء الروم عن جميع قواعدهم في مصر ، وتحرير مدينة الاسكندرية الواقعة عند مدخل الطريق الى شمال القارة . ومن هذا المدخل تقدم عمرو بن العاص ، بقوات من فرق الفرسان والهجانة الخفيفة ، واندفع غربا في هجوم خاطف بدا للوهلة الاولى بمثابة محاولة لانهاء الحرب نفسها ، وتحرير بقية شمال افريقية بعملية عسكرية واحدة . لكن عمرو بن العاص كانت تعترضه في الواقع مشاكل تعبوية معقدة لانجاز هذا الهدف بأي قدر من النجاح .

من هذه المشاكل ان الجيش الاسلامي نفسه كان ، حتى ذلك الوقت ، جيشا بريا خالصا تنحصر فعاليته في تنفيذ عملياته الاساسية على اليابسة فقط . أما في البحر ، فقد كان اسطول الروم وحده صاحب السيطرة ، وكان ما يزال قادرا على القيام بعمليات انزال ضخمة في اي نقطة على سواحل البحر المتوسط .

ومن هذه المشاكل ان قواعد الروم لم تكن دائما المصدر الوحيد المتوقع للمقاومة على طول الساحل . ففي المنطقة شبه المخربة ، بين الاسكندرية وبين سرت ، كانت قواعد الروم معزولة وعاجزة عن الصمود في وجه اي هجوم واسع . لكنها ، في الجزء الباقي ـ وخاصة في المناطق الخصبة من ولاية افريقية واراضي المغرب ـ كانت منذ عصر روما قواعد اساسية تحرسها قوات برية وبحرية ضخمة ، وتنعم بولاء كثير من شيوخ القبائل الذين كانوا ـ مثل كسيلة او الكاهنة ـ قادرين احيانا على حشد جيوش بأكملها . ✽

امام ظروف معقدة الى هذا الحد ، لم يكن من المحتمل ان يفكر عمرو بن العاص في اختراق شمال افريقية كله بعملية عسكرية واحدة ، أو ينال أصلا موافقة الخليفة عمر بن الخطاب على تنفيذ مثل هذه الخطة الخطرة .

لقد كان من الواضح منذ البداية ان تحرير شمال افريقية أمر يحتاج الى طرد الروم من البحر المتوسط ، وتأمين حركة الجيوش على الطريق البري بانشاء سلسلة من محطات التموين والمراقبة ، وهما مهمتان لا تخصان شمال افريقية وحده ، بل ترتبطان باحداث الجبهة الرئيسية على طول البحر المتوسط ، ولم يكن في الواقع ثمة فرصة لتنفيذهما معا الا على عدة مراحل .

المرحلة الأولى

قبل الفتنة .

نحو برقة :

سنة ٢١ تقدم عمرو بن العاص نحو منطقة برقة ، التي كانت تدعى في ذلك الوقت باسم « بنطابوليس » أي « المدن الخمس » ، وهو اسم يعني ضمنيا ان برقة كانت تضم خمس مستوطنات رئيسية على الاقل . لكن عمرو لم يجد في الواقع اية مدن في طريقه ، ولم يسجل التاريخ انه قاتل مدينة على اي حال حتى وصل الى طلميثة ـ عاصمة الاقليم طوال عهد بيزنطة ـ التي كانت تقع على بعد الف كيلومتر تقريبا من نقطة انطلاقه في الاسكندرية .

حول طلميثة دارت معركة الاسلام الاولى على ارض ليبيا ، فاجتاح العرب اسوارها بعد حصار قصير ، وانسحبت منها الحاميات العسكرية التي ظلت تحرسها ، من دون انقطاع تقريبا ، منذ قرار الامبراطور اغسطس بتأسيس جيوش الاحتلال الرومانية سنة ٢٧ قبل الميلاد . ومع سكان طلميثة كتب المسلمون النسخة الاولى من وثيقة الصلح التي اصبحت نموذجا لجميع الوثائق اللاحقة مع بقية المدن في شمال افريقية . ان هذه الوثيقة ـ في ظروف العصر المظلم الذي عاشته شعوب المنطقة تحت نير الرومان ـ كانت بالفعل ، نصا وروحا ، وثيقة تحرير .

فقد نص البند الاول على هدم الاسوار التي كان الامبراطور اغسطس قد شرع يطوق بها المدن منذ بداية عصر الامبراطورية ، املا ان يتفرغ وراءها الرومان لاستنزاف شعوب المستعمرات حول البحر المتوسط ، وتجميعهم تحت الحراسة امام جباة الضرائب .

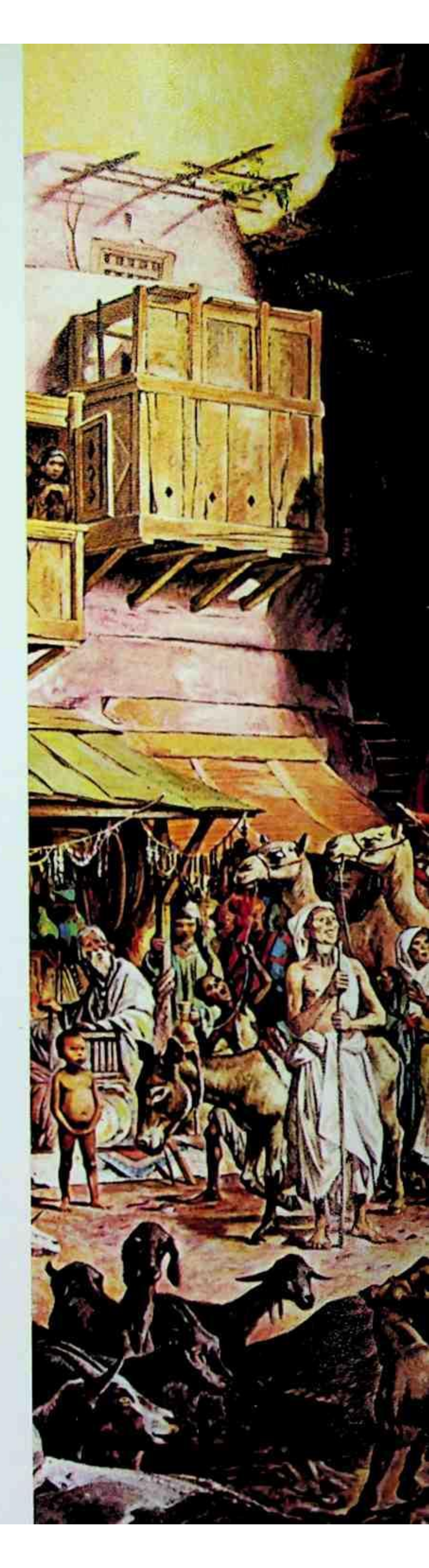
جباة الضرائب بالذات نصت الوثيقة على الغاء وظيفتهم نهائيا ، وعهدت الى الاهالي بمهمة جمع الجزية وحملها بأنفسهم الى بيت المال في مصر .



وهو اجراء يعني عمليا الغاء اتعاب الوسطاء والمتعهدين ـ وايقاف سرقاتهم ـ وتخفيض مقدار الضريبة بذلك بضعة اضعاف على الاقل .

في هذا الجزء من الاتفاقية ورد البند الذي تلح المصادر الغربية عادة في ابرازه ، لأنه ينص على السماح للاهالي ببيع من يختارون من ابنائهم ايفاء للجزية . لكن الواقع ان هذا النص بالذات ـ اذا صح اصلا ـ لم يكن قانونا ، بل إلغاء لقانون آخر ، تركه الرومان وراءهم ، كان ينص على حق متعهد الضرائب في بيع من يريد من ابناء كل مواطن يعجز عن دفع ضرائبه ، باعتبار ان الاهالي وابناءهم جميعا عبيد للرومان ولا يحق للعبد ان يبيع عبدا آخر أصلا . لقد كان هذا الالغاء هو في حد ذاته اعلان رسمي بتحرير الاهالي من العبودية . ففي فتوح البلدان للبلاذري : « قال الليث بن سعد ، عن يزيد بن ابي حبيب ، ان عمرو بن العاص كتب في شرطه على أهل لواتة من البربر من أهل برقة : ان لكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية .

قال الليث : فلو كانوا عبيدا ما حل ذلك منهم . » .



لوحة ١٩ :

الف سنة من الاستغلال :

كانت مدينة الاسكندرية أول نموذج حقيقي لقواعد الرومان على ساحل شمال أفريقية ، تلك القواعد التي عملت روما من وراء أسوارها لامتصاص خيرات المنطقة طوال ألف سنة تقريبا .

لكن التعبير الاكثر وضوحا عن فكرة التحرير تمثل في مبادرة عمرو بن العاص الى نقل العاصمة فورا من طلميثة الى مدينة المرج التي كانت تعرف اذ ذاك باسم برقة . فهذه هي المدينة التي ظلت ـ بفضل وقوعها بعيدا عن البحر ـ مركز المقاومة ورمزها منذ استيلاء الاغريق على شواطئ الجبل الاخضر خلال القرن السادس قبل الميلاد . فقد تصدت لقتال مستوطنات الاغريق في قورينة ، وشهدت اغتيال اركسيلاوس الثاني ، وحاربت ضد امه فيريتيما حتى اجتاحتها بقوات متحالفة من الاغريق والفرس . وعندما اختارها عمرو عاصمة للبلاد ، كانت مجرد مدينة خربة وشبه مهجورة . لكنها كانت ايضا مدينة ترتبط في اذهان الليبيين بفكرة الثورة والتحرير من جهة ، وتطابق حاجة الجيش الاسلامي الى عاصمة تقع بعيدا عن البحر من جهة أخرى .

نحو طرابلس :

من العاصمة الجديدة في المرج خرج عمرو بن العاص في اوائل عام ٢٢ ، فتقدم غربا بحذاء الساحل حتى مدينة اجدابيا ، مكتسحا قواعد الروم على طول خط التحصينات القديم الذي كان الامبراطور سبتيموس سويرس قد اقامه لاحتجاز القبائل الليبية على حافة الصحراء منذ ٣٣٥ سنة تقريبا . وبعد اجدابيا انقسم الجيش الى فصيلتين :

فصيلة صغرى بقيادة عقبة بن نافع اتجهت نحو الجنوب الغربي متوغلة في الصحراء لتحرير المناطق الداخلية .

وفصيلة تقدم بها عمرو غربا واندفع يطارد حاميات الروم على طول الساحل ، حتى ظهر فجأة تحت اسوار طرابلس ، بعد استسلام مدن سرت ولبدة وغيرها ، مخترقا مسافة تزيد عن الف كيلومتر خلال شهرين تقريبا ، وهو معدل السير العادي للقوافل التجارية ، مما يشير بوضوح الى ان الجيش الاسلامي كان ما يزال حتى ذلك الوقت يواصل تقدمه في اراض حليفة أو غير عدائية على الاقل .❁

عند طرابلس توقف هجوم عمرو امام أول حاجز عسكري يعترض طريقه بقدر من الجدية والكفاءة منذ خروجه من الاسكندرية . فمن هذه النقطة ـ وحتى اراضي المغرب الاقصى ـ كان الروم يحرسون الساحل بقواعد عسكرية كاملة العتاد والعدة ، وكان اسطولهم في البحر المتوسط قادرا على ايصال الامدادات الى هذه القواعد في اي وقت دون ان يلقى تحديا يستحق الذكر .

ولعل الجيش الاسلامي العامل على جبهة شمال افريقية كان قادرا بمفرده

على تنفيذ عمليات عسكرية ناجحة في البراري المفتوحة . لكن امكاناته في حصار قواعد بحرية محصنة ، مثل الاسكندرية أو طرابلس ، كانت امكانات قاصرة جدا عن تحقيق اهدافها من دون مساعدة محلية فعالة . فماذا حدث ؟

يقول ابن عبد الحكم ان عمرو ظل يحاصر الروم في طرابلس شهرا وهو لا يقدر منهم على شيء ، « فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيدا في سبعة نفر ، فمضوا غربي المدينة حتى امعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا فاصابهم الحر ، فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقا بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة في مرساها الى بيوتهم ، فنظر المدلجي واصحابه ، فاذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكا من الموضع الذي غاض منه البحر . فدخلوا منه حتى اتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفزع الا سفنهم . وابصر عمرو واصحابه الثلة في جوف المدينة ، فاقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم الا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في المدينة » .

هذه القصة الغريبة تريد ان تقول :

ان عمرو بن العاص دخل طرابلس بالصدفة ، وان الروم سحبوا حراستهم من قلاع المراقبة وذهبوا الى بيوتهم اتقاء للحر ، فيما كان جيش المسلمين يعسكر في منطقة سيدي الشعاب على بعد امتار من اسوارهم ، وان ثمانية رجال بعدة الصيد احتلوا قاعدة محصنة تدرب الروم على حراستها برا وبحرا منذ سبعة قرون على الاقل .

اكثر من ذلك ، نسيت القصة ان عمرو بن العاص كان قد دخل الاسكندرية في العام السابق من دون اي صيادين أو صدف سعيدة ، وان الاسكندرية بالذات كانت تدافع عنها حامية من ٥٠ الف جندي واساطيل كاملة التدريب والعدة . ولو كان عمرو بن العاص فتحها بالصدفة – ومن دون تحالف فعال مع اهلها – لما كان بوسعه ان يتركها وراء ظهره ، عند مدخل خط الرجعة ، ويتوغل مسافة الفي كيلومتر بحثا عن الصدفة التالية .

لكن قصة ابن عبد الحكم ليست تاريخا .

انها مجرد مثال للخلل المفاجئ الذي طرأ ، في وقت لاحق ، على رؤية المؤرخين انفسهم لتاريخ الاسلام . فابن عبد الحكم ، الذي يكتب في منتصف القرن الثالث ، كان يقع على بعد ٢٢٠ سنة من عصر الاسلام الزاهي في خلافة عمر ، ولم يكن بوسعه ان يحس – بعد عهود من الصراع بين العصبيات والطوائف – بشيء من ابعاد الثورة الشاملة التي تميزت بها حروب التحرير الاولى . لقد كان عليه ان يجد التفسير المقنع في لغة عصره ، ولم يكن اذ

ذاك ثمة تفسير اكثر اقناعا من الصدفة .

اما في ارض الواقع ، فقد كان الامر مختلفا واقل تعقيدا . فعمرو بن العاص كان قد دخل افريقية وهو يعرف يقينا انه يدخل اراضي شعوب حليفة ، تشتبك مع الروم في معركة تحرير قاسية منذ زمن طويل ، وان انتصاره على الروم في مصر وشمال افريقية بالذات أمر « في حكم الواقع المفروغ منذ سنين » .

بشأن هذا الصراع بين شعوب المنطقة وبين الروم ، يقول عباس محمود العقاد :
« وبلغ من لدد هذا العداء ان الروم أمهلوا ثلاثة ايام للخروج من حصن بابليون ، فقضوا يوما منها في تعذيب القبط وتقطيع ايديهم وارجلهم ليتركوهم في حالة لا يفرغون فيها لشماتة بعدوهم المهزوم » .

وقبل ذلك كان الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام قد حدد حتمية هذه الحقيقة بنص قاطع في قوله : «ستفتحون مصر ، وهي ارض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » .

اما ابعاد التحالف الضمني بين العرب وبين شعوب المنطقة فقد بدت واضحة الى حد ملفت للنظر منذ ان بدأ عمرو بن العاص يطرق باب افريقية في شرقي مصر .

يقول العقاد :
« فالعرب لم ينتصروا اتفاقا ولا جزافا ، ولكنهم انتصروا بخير ما يكفل النصر للمجاهدين : بالثقة والخبرة ، ثم بشيء آخر يعين الثقة والخبرة ايما عون في الميادين البعيدة عن ديار المعسكرين المتقاتلين ، وهو اطمئنان العرب الى أهل البلاد من حيث خشيهم الروم وتوقعوا منهم كل مكروه ، لان العداء بين المذهب الملكي ، وهو مذهب الروم ، والمذهب اليعقوبي ، وهو مذهب القبط ، لم يدع مكانا لتوفيق الكنيستين ، ولم يبق في النفوس بقية للرحمة ولا للصلح والهوادة ... يجوز مثلا ان يسأل السائل : وكيف استطاع عمرو بن العاص ان يترك حصن بابليون ويوغل في الصعيد ، ومن ورائه جيش اعداء يقطع عليه الرجعة ويحصره حيث كان ؟ ويجوز تبعا لذلك ان نستبعد الحركة كلها ونحسبها من تلفيق المؤرخين .

ولكننا اذا اصطنعنا هذا القياس هنا ، وجب ان نستبعد الفتح كله من الفه الى يائه ، لأن اربعة آلاف مقاتل يتفرقون من العريش الى بابليون لا يفتحون قطرا يسكنه شعب كبير وتحميه دولة كبيرة ، فان لم يتفرقوا

وساروا جميعا الى حصن بابليون ، فقطع الرجعة عليهم أيسر الأمور ، لو سارت الحركات العسكرية على المألوف في سائر الحروب . » .

ثم يشير العقاد الى الهجوم على قواعد الروم البحرية بالذات :
« وما اعجب حصر الاسكندرية مثلا ، وهي مفتوحة من البحر الى القسطنطينية؟ وما أعجب التقصير في امدادها خلال الفتح كله ، وهو اول ما يخطر على البال ؟
فالحساب في هذا الفتح غير الحساب في سائر الفتوح .
واولى ان يقال ان جند الروم ـ لا جند العرب ـ هم الذين كانوا على حذر من الايغال في جوف البلاد ومن احداق الاعداء والرعية بهم في مأزق غير متوقع ... » .

فهل دخل عمرو بن العاص طرابلس بالصدفة ؟
وهل تبدو قصة ابن عبد الحكم في هذا الاطار الشامل اكثر من قصة ساذجة ؟
هذا المؤرخ نفسه يقول عن سقوط الاسكندرية : « كان بالاسكندرية اسقف للقبط يقال له ابو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر ، كتب الى القبط يعلمهم انه لا تكون للروم دولة ، وان ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو . فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ... » .

والاسقف الذي يدعوه ابن عبد الحكم باسم « ابو الميامين » هو بنيامين البطريرك ، قائد المقاومة في مصر ، الذي كان الروم يتعقبونه لمدة ثلاث عشرة سنة ، حتى دخل عمرو مدينة الاسكندرية فكتب موصيا بتكريمه بعهد اورده صاحب كتاب « سير البطاركة » على النحو التالي :

[.. فكتب عمرو بن العاص الى عمال مصر كتابا يقول فيه هكذا : « ان الموضع الذي يكون فيه بنيامين البطريرك الذي للنصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمنا مطمئنا ، ويدبر حال بيعه وسياسة طائفته » . فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد الى مدينة الاسكندرية بفرح عظيم ، بعد غيبته ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنين لهرقل الرومي الكافر ، وثلاث سنين قبل ان يفتح المسلمون الاسكندرية ، لابسا اكليل الصبر وشدة الجهاد] .

فهل دخل عمرو بن العاص طرابلس بالصدفة ؟
وهل ثمة شك في ان الصراع الدائر بين الروم والاقباط في مصر هو من نوع الصراع الدائر بين الروم وبين الليبيين في بقية افريقية ، وأن آلاف الثوار

من امثال بنيامين البطريرك كانوا يعملون من داخل القواعد الرومانية ومن خارجها لتحقيق الهدف نفسه الذي يسعى اليه عمرو ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة ليست متوفرة في مراجع ابن عبد الحكم أو غيره من مؤرخي الاسلام القدماء . فجميع هذه المراجع تمت كتابتها في عصور متأخرة تبعد عن عصر التحرير بازمان طويلة . واقدم مرجع فيها ـ وهو فتوح مصر وافريقية لابن عبد الحكم ـ كتب في الواقع عندما كانت مصر مع بعض شمال افريقية قد انفصلت عن جسم الدولة الاسلامية نفسها واصبحت دولة مستقلة تحت حكم الطولونيين . واذا كانت هذه المراجع غير قادرة على القاء بعض الضوء على حقيقة ما حدث ، فان ذلك قد لا تمثله المعلومات التي تجمعها بقدر ما يمثله خلل الرؤية الشاملة في فهمها . ان البحث عن اية اجابة على قدر من الحذر والدقة ممكن فقط في اطار ما حدث في المدينة المنورة وحدها خلال سنوات الخلافة الاولى .

ففي هذه الفترة ـ وحتى مقتل الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٣ ـ كانت الجيوش الاسلامية تقاتل باسلحة مختلفة جدا عن الاسلحة التي ستقاتل بها بعد ذلك في عصر لاحق ، وكانت تحمل من سمات الثورة العالمية الشاملة ما جعلها فعلا مجرد طلائع لافتتاح المقاومة المسلحة ضد القمع والاستغلال اينما وجدا . واذا كان ثمة ما يميز عهدي الخليفتين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، فهو بالتأكيد وفاؤهما العظيم والنادر المثال لمنهج هذه الثورة بالذات .

الخليفة الصديق ، الذي فاجأته موجة الردة الاولى وهو يودع الجيش الاسلامي بقيادة اسامة ، يرفض ان يؤخر سفر الجيش ، ويرفض ان يستبقي احدا من جنوده للدفاع عن المدينة ضد زحف المرتدين من عبس وذبيان وفزارة ، ويصر على افتتاح حرب التحرير العالمية قائلا : « والله لا احل عقدة عقدها رسول الله ، ولو ان الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو ان الكلاب جرت بارجل امهات المؤمنين لاجهزن جيش اسامة » . ومن هذا الاصرار الكامل على قدسية الجهاد العالمي انبثقت طلائع المقاومة التي تولت امر اهل الردة في مرحلة التحرير الاولى ضد زعماء القبائل وصغار الامراء ، ثم تقدمت نحو الفرس والروم لافتتاح المرحلة الثانية في معركة اوسع مدى ضد الملوك والاباطرة . ومنذ هذا الوقت وحتى نهاية عصر عمر كانت طلائع التحرير ـ التي تحولت الى جيوش عظيمة مرهوبة الجانب ـ تتقدم على جميع الجبهات حاملة لواء التحرير حقا :

لم تكن تقاتل من اجل دولة .
ولم تكن تقف في صف أحد ضد أحد ، بل كانت تتقدم رافعة شعاراتها

طبقا لمنهج انساني واحد يربط العمليات العسكرية نفسها بقواعد خلقية متناهية النقاء والشمول . ولعله من غير الصدف أن يبدأ العرب تاريخهم في مصر بقصة ولد عمرو بن العاص ـ قائد جيش التحرير ـ الذي ضرب مواطنا مصريا بسوطه ، فاستدعاه الخليفة عمر الى المدينة لكي يقتص منه المواطن امامه ، واختار ان يقول للمواطن وهو يناوله السوط : « اضرب ابن الاكرمين » . ثم دعاه الى ان يقتص من عمرو نفسه قائلا ، في سخرية متعمدة : « اجلها على صلعة عمرو .. فوالله ما ضربك ابنه الا بفضل سلطانه ... ».

في هذه الفترة ، تمت الحروب التي حملت الاسلام الى اسوار طرابلس ، في مسيرة مذهلة واحدة لم يجد لها الكتاب المتأخرون من أمثال ابن عبد الحكم تفسيرا اكثر اقناعا لاهل عصرهم من الصدفة ، تلك الفكرة الساذجة التي لا تصلح اصلا لتفسير شيء بقدر ما تلغي الحاجة الى كل تفسير . اما الواقع فان الحروب الاولى ، حتى نهاية عصر عمر ، كانت في حد ذاتها مسيرة تحرير عالمية حدودها الانسان لا الاسوار . ولعل الخليفة عمر كان يسجل لها هذه المهمة بالذات عندما قال لعمرو بن العاص ، قائد جيوشه في مصر وليبيا ، مستنكرا حادث ضرب رجل مصري : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ! » .

في وقت لاحق تغيرت الصورة .
وشهد عهد الخليفة عثمان بداية الصراع الذي قاد الى تغيير نظام الحكم واستيلاء معاوية بن ابي سفيان على السلطة ، وهو عصر مختلف ، سادته مفاهيم وشعارات مختلفة لا علاقة لها بمناهج الخلافة اصلا . اما في السنوات الاولى ، وحتى عودة عمرو بن العاص من ليبيا ، فقد كان الجيش الاسلامي يتقدم لاكتساح قواعد الاحتلال وتحطيم القوة العسكرية للروم والفرس في معركة تحرير طال انتظارها ، وكانت كل الشعوب المغلوبة على امرها تفتح له صدورها وابوابها علانية او سرا .

فهل دخل عمرو بن العاص طرابلس بالصدفة ؟
كل الظواهر تشير الى الاتجاه المعاكس . واكثر من ذلك ، فان عمرو ـ خلال حصار طرابلس ـ اقتطع من جيشه الصغير فرقتين ، وبعث بهما جنوبا نحو مدن الصحراء ، وهو امر مفاجئ يستحيل تحقيقه ـ ويستحيل ان يصدر اصلا عن قائد مجرب مثل عمرو ـ الا اذا كان يعرف مقدما انه سيتلقى معونة كاملة من الاهالي .

فالصحراء بالذات ليست مسرحا لاية عمليات عسكرية منظمة ، ولم يكن من الممكن خوض معارك رئيسية فيها ، الا بعد اختراع وسائل المواصلات السريعة في العصر الحديث . اما في عصر عمرو ، فقد كانت الصحراء

هي الجدار الذي توقفت امامه حشود الاغريق والرومان والفرس ، وعاش وراءه الليبيون والعرب بالذات في مأمن كامل من جميع الغزاة في جميع العصور .

اشترك عقبة بن نافع وبسر بن ابي ارطأة في قيادة السرايا التي اخترقت منطقة تزيد عن مساحة اوربا في اقل من عام واحد ، وتوغلت في عمق الصحراء من جنوب برقة الى اطراف جبل نفوسة على بعد الفي كيلومتر تقريبا ، عبر اراض مأهولة بالليبيين ، ومراكز تجارية مزدهرة في زلة وسوكنة وهون وودان . واذا كان تعداد الجيش الرئيسي الذي احضره عمرو الى افريقية لا يزيد ، طبقا لجميع التقديرات ، عن اربعة آلاف جندي ، واذا كانت سرايا عقبة وبسر بن ابي ارطأة قد اقتطعت اصلا من هذا الجيش ، فان نتيجة الحساب الواضحة ـ والمستحيلة في وقت واحد ـ ان كل جندي في هذه السرايا كان يتصدى وحده للقتال ، في منطقة تزيد مساحتها عن ٤٠٠٠ كيلومتر مربع ، ضد مئات الجنود الليبيين ، ومن دون خطوط تموينية او استحكامات او احتياطي اسلحة ، وانه انجز هذه المهمة الهائلة بنجاح كامل خلال عام واحد فقط ، مما يعني انه في الواقع كان يتحرك بسرعة تصل الى ٦٠ كيلومترا في الساعة على الاقل .

مستحيل !

والبديل الحقيقي عن هذه الافتراضات الجامحة ان عمرو بن العاص تقدم نحو ليبيا اصلا بناء على اتفاق مع الليبيين ، وانه كان يتلقى منهم مساعدة فعالة من داخل المدن ومن خارجها خلال زحفه لتحرير مدن الساحل من حاميات الروم ، وان السرايا التي توغلت جنوبا كانت تستكمل هذا العمل بمساعدة من الليبيين ايضا لمطاردة بقية عملاء الروم في مدن الصحراء من جباة الضرائب وصغار الامراء الذين كانوا قد وضعوا انفسهم في خدمة الاحتلال منذ رحلة فلاكوس مع ملك الجرمنت سنة ١٨٠ للميلاد .

يسند هذا الرأي اربع وقائع ثابتة :

الاولى : اننا لا نملك وثيقة تاريخية واحدة تشير الى ان عمرو او احدا من قادة جيوشه خاض معركة ضد الليبيين في الصحراء او على الساحل منذ بداية الحملة حتى خروج عمرو من ليبيا .

الثانية : اول اشارة من هذا النوع وردت في كتاب ابن عبد الحكم تتناول احداث حملة عقبة التي وقعت بعد ربع قرن تقريبا سنة ٤٩ . ويلفت النظر في هذه الوثيقة ان عقبة لم يدخل الصحراء حينذاك لكي يقاتل في معارك رئيسية ضد الليبيين ، بل لكي يعاقب ثلاثة من صغار الامراء الذين نقضوا اتفاقاتهم السابقة معه.❁

الثالثة : ان عمرو نفسه ـ قبل انقضاء بضعة شهور على وصوله الى برقة ـ كتب تقريرا للخليفة لم يذكر فيه انه اضطر لقتال أحد من البلاد ، بل اخبره ، كما قال ابن الهيثم ، بان جميع السكان المقيمين « ... بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد ادى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية »، ويضيف ابن الهيثم : « وانه قد وضع على اهل زويلة ـ ومن بينه وبينها ـ ما يطيقونه ، وأمر عماله جميعا ان يأخذوا الصدقة من الاغنياء فيردوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من اهل الذمة فتحمل اليه بمصر ، وان يؤخذ من ارض المسلمين العشر ونصف العشر ومن اهل الصلح صلحهم . » .

الرابعة : ان جميع المصادر التاريخية الخاصة بهذه الفترة تتفق في التأكيد على ان ليبيا بأسرها قد حررت بناء على معاهدات بين عمرو بن العاص وبين الليبيين .

ففي فتوح مصر وافريقية يقول ابن عبد الحكم نفسه :
« حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لهيعة ، ان انطابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص » .

وفي مكان آخر :
« ... عن ايوب الحضرمي ، عن ابيه ، قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول : لاهل انطابلس عهد يوفى لهم به » .

وبشأن طرابلس قال البلاذري :



« حدثني عمرو الناقد ، قال ... حدثني مشيختنا ان طرابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص » .

الواقع ان اللقاء الاول بين العرب وبين الليبيين كان ، في هذه المرحلة ، لقاء متوقعا على طريق واحد ، أملته ظروف وحدة الارض والمصير ، وتميز منذ بدايته بروح من التفاهم والالفة الى حد شجع عمرو بن العاص على طلب الاذن من الخليفة لمواصلة السير فورا نحو افريقية (تونس الحالية) ، واثقا من ان خطوطه التموينية عبر اراضي ليبيا قد اصبحت جاهزة ومأمونة . ولعل افضل تعبير عن هذه الروح من الالفة قد جاء من عبد الله بن عمرو نفسه الذي قال وهو يودع ليبيا في نهاية حملة والده : « لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة ، فما اعلم منزلا اسلم ولا اعزل منها » .

لوحة ٢٠ : العمليات العسكرية حتى سنة ٤٦ .

طريق عمرو بن العاص :

سنة ٢١ كان عمرو بن العاص قد اتم تحرير جنوب فلسطين وكامل الاراضي المصرية . ثم واصل زحفه باتجاه شمال افريقية ، فانطلقت الجيوش العربية من الاسكندرية وتوجهت غربا ، سالكة الطريق الساحلي القديم ، ودخلت مدن طبرق ودرنة وسوسة وغيرها . وفي اواخر السنة نفسها دخل عمرو طلميثة وصالح اهلها على الجزية . وكان برفقة عمرو مجموعة من القادة الذين كانوا قد سجلوا انتصارات باهرة ابان معارك التحرير الاولى ومن بينهم عقبة بن نافع وبسر بن ابي ارطأة وعبد الله بن الزبير .

تابع القادة العرب زحفهم ودخلوا مدن بنغازي وتوكرة ثم اجدابيا سنة ٢٢ . هناك افترق عقبة بن نافع عن بقية الجيش وسار على رأس حملة باتجاه مناطق الجنوب الغربي ، فحرر جميع مدن الداخل حتى زالة (زلة) . في تلك الأثناء ،

برقة
بنغازي
درنة
طبرق
الاسكندرية

وبعد ان مر عمرو بسرت ولبدة ، ارسل حملة اخرى الى ودان وعلى راسها بسر بن ابي ارطأة ، فدخلها والواحات القريبة منها . في اواخر سنة ٢٢ انتزع عمرو مدينة طرابلس من ايدي الروم وهدم قسما من سورها ، كما سبق وفعل في بقية المدن ، ومنها ارسل قوة بقيادة عبد الله بن الزبير الى صبراتة فاستسلمت . تجمع الجيش العربي هناك وسار الى مدينة شروس في جبل نفوسة ودخلها . عند جبل نفوسة توقفت الحملة الأولى على شمال افريقية ، فعاد عمرو بن العاص الى مصر ، تاركا حامية عسكرية في برقة بقيادة عقبة بن نافع واخرى في سرت بقيادة بسر بن ابي ارطأة .

طريق عبد الله بن سعد :

سار بها من مصر على رأس عشرين الف مقاتل في اوائل سنة ٢٧ . وكان الهدف هذه المرة التوغل في افريقية واسترجاع طرابلس من البيزنطيين الذين كانوا قد انتزعوها من ايدي العرب . اشتبك عبد الله مع جرجير حاكم سبيطلة ، وهي العاصمة الثانية لافريقية البيزنطية بعد قرطاجة . وكان من نتائج تلك المعركة انهزام البيزنطيين .

طريق معاوية بن حديج سنة ٤٦ :

سار بها من مصر على رأس عشرة آلاف مقاتل ، وضمت نخبة من القادة والتابعين امثال عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير وايضا عبد الملك بن مروان (الذي تولى الخلافة فيما بعد) . تم اول صدام مع الجيوش البيزنطية في موضع القرن جنوبي قرطاجة بانتصار عربي . وبعد سلسلة من المعارك ، تمكنت القوات العربية من تحرير سوسة وجلولاء وغيرها من المدن الحصينة وارغمت القادة البيزنطيين على الفرار الى صقلية .

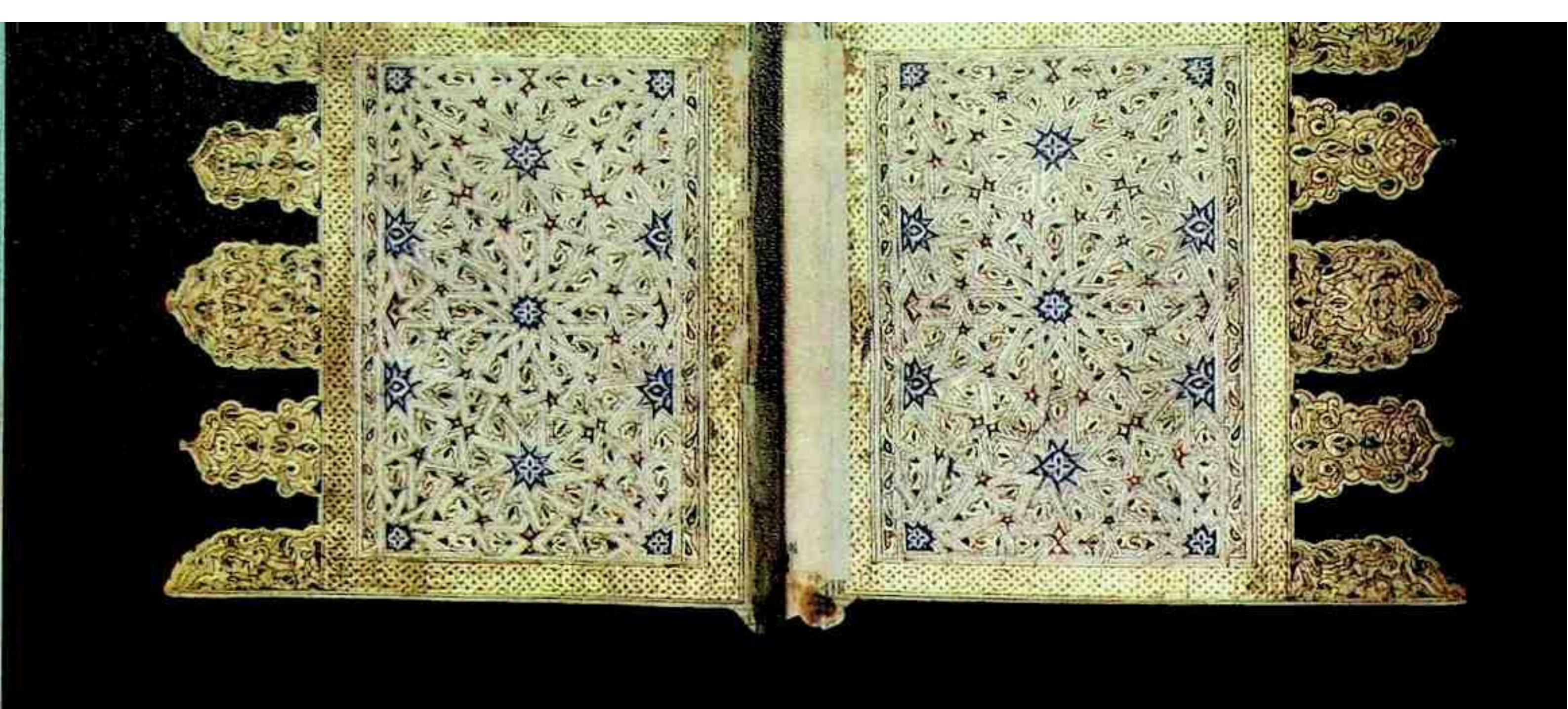


لوحة ٢١ :
من اسلحة المشاة درقة ورمح يبلغ طوله طول الجندي مرة ونصفا تقريبا .

لوحة ٢٢ :
مصحف
من القرن
الهجري العاشر .

(من سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م)

حتى ١٩٤ هـ او ٨٠٩ م	□ نقفور الاول يطيح بالملكة ايرين ويستولي على العرش البيزنطي . □ قبائل الفايكنغ تسيطر على ارلندا .	□ معارك بين الفرنج وبيزنطة . □ البلغاريون يغزون صوفيا ، ويتمكن زعيمهم كروم في السنة التالية من هزيمة الامبراطور نقفور الاول وقتله .
حتى ٢٠٢ هـ او ٨١٧ م	□ الخوارزمي يضع كتابا في المعادلات الرياضية مستعملا كلمة « الجبر » لاول مرة . □ شارلمان يتوج ابنه « لويس الورع » . □ ليو الخامس (الارمني) يتولى حكم بيزنطة .	□ تأسيس مدرسة العلوم الفلكية في بغداد . □ اضافة « الصفر » الى الارقام العربية . □ ملك الفرنج « لويس الورع » يقسم فرنسا بين ابنائه الثلاثة : لوثار ولويس وبيبان ..
حتى ٢١١ هـ او ٨٢٦ م	□ ميخائيل الثاني يتولى عرش بيزنطة منهيا حكم الاسرة السورية ومبتدئاً حكم الاسرة الفريجية . □ ظهور دولة بني طاهر في خراسان .	□ العرب يفتتحون كريت ويغزون الجزر اليونانية .. □ تنصير ملك الد نمرك هارولد في بلدة ماينز بالمانيا ..
حتى ٢١٥ هـ او ٨٣٠ م	□ الحملات العربية على صقلية وسردينيا . □ ترجمة كتاب بطليموس في النظام الفلكي الى العربية باسم « المجسطي » . □ تأسيس كنيسة القديس مرقص في البندقية .	□ الخليفة المأمون ينشىء مركزا للترجمة في « بيت الحكمة » ببغداد . □ الامير مويمير يؤسس « امبراطورية مورافيا الكبرى » السلافية .
حتى ٢٣١ هـ او ٨٤٥ م	□ تقسيم امبراطورية الفرنج بموجب معاهدة فردان الى ثلاثة اجزاء ، يحكم ايطاليا واللورين منها لوثار محتفظا بلقب الامبراطور ، وفرنسا شارل الثاني (الاصلع) ، والمانيا لويس الاول .	□ ظهور كتاب « الحماسة » لابي تمام . □ اضطهاد البوذيين في الصين ، واستعمال العملة الورقية يقود الدولة الى الافلاس .



حتى ٢٣٦ هـ او ٨٥٠ م	□ العرب يهاجمون روما . □ تأسيس مملكة بلغارية عند نهر الفولغا عاصمتها « بولغاري » .	□ جماعات من اليهود تستقر في المانيا وتبدأ تتخاطب بلغة « اليديش » . □ العلماء العرب يطورون الاسطرلاب لاحكام قياس مسافات الاجرام الفلكية .
حتى ٢٤٦ هـ او ٨٦٠ م	□ العرب في الاندلس يصدون هجوما شنته قبائل الفايكنغ على « الجزيرة الخضراء » (ضواحي قادس) التي تبعد ستة اميال عن جبل طارق .	□ اشود الاول يؤسس حكم الاسرة البجرتية في ارمينيا . □ القراصنة الاسكندنافيون يدخلون البحر المتوسط ويشنون غاراتهم على آسيا الصغرى .
حتى ٢٥٣ هـ او ٨٦٧ م	□ قبائل الشمال الاسكندنافية تكتشف اسلندا . □ الامير البلغاري بوريس الاول يعتنق المسيحية .	□ نشوء دولة بني الصفار في فارس واقاليم الهند المتاخمة .
حتى ٢٦٥ هـ او ٨٧٨ م	□ احمد بن طولون يؤسس في الفسطاط الدولة الطولونية . □ السامانيون يؤسسون دولتهم في بخارى وينتزعون فيما بعد خراسان من الدولة الصفارية .	□ اسرة « شين تانغ » تواجه سلسلة من الثورات الشعبية في الصين . □ العرب يجلون البيزنطيين عن جميع مناطق صقلية باحتلالهم سراقوسة بعد ان جعلوا باليرمو عاصمتهم .
حتى ٢٨٨ هـ او ٩٠٠ م	□ تأسيس دولة القرامطة عند الضفة الغربية للخليج العربي . □ بناء مسجد ابن طولون في القاهرة . □ النيبال تستقل عن التبت .	□ الطبيب العربي الرازي يصنف الامراض السارية مثل الطاعون والجدري والكلب والسل في مؤلفات عديدة اهمها كتاب « الحاوي » ، اشمل موسوعة في علوم الطب حتى ذلك التاريخ .

مسرح الأحداث
في
الدولة الإسلامية
(٢)

من سنة ٤٢ الى سنة ٩٥

« أنا خيركم .. »
معاوية

ـ سنة ٤٢ كان الامبراطور كونستانس الثاني ، حفيد هرقل ، يغادر القسطنطينية متوجها الى خطوط دفاعه الغربية في محاولة لاعادة تنظيم الجبهات التي تمزقت بصورة خطرة امام الزحف الاسلامي من جهة ، وصراع قادة جيوش الروم في ما بينهم من جهة اخرى . وفي هذا الوقت كان معاوية قد نقض الصلح الذي فرضه عليه قسطنطين الثالث خلال انشغال العرب بفتنهم الداخلية ، وجدد حملاته على ممتلكات البيزنطيين برا وبحرا بمقدرة عسكرية فائقة ، وكاد ان يصل في احداها الى القسطنطينية نفسها .

في دمشق كان معاوية يوطد حكمه متبعا اسلوبه المرن القائم في مجمله على التسويات السياسية والتوازنات في توزيع حصص الحكم على معاونيه واغتنام الفرص بكل الوسائل . وكان شعاره الدائم : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت : اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها » .

ابرز معاونيه مجموعة من الرجال الذين اتفقت المصادر التاريخية على وصفهم بالدهاء والحنكة السياسية ، من بينهم : عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة امير الكوفة وزياد بن ابيه شقيق معاوية من أمة اسمها سمية . وكان زياد بالذات مجرد أداة قمع في يده استعمله في سحق ثورات الكوفة وابادة كل من والى عليا واهله . كذلك احاط معاوية نفسه بمجموعة من المستشارين من اهل الشام النصارى ، لعبوا ادوارا هامة في تنظيم شؤون المال والادارة على الاسس البيزنطية السابقة . وبلغت سعادته حدودا بعيدة لاقامته بالشام التي كان يصفها « بأرض الحمامات والريف والشهوات » . وعندما كانت تصله انتقادات المسلمين لاقتنائه الجواري والخصيان ولبس الحرير والتختم بالذهب محاكيا ملوك الفرس واباطرة الروم ، كان يردد قوله ، مذكرا اياهم بمحنة الفتنة : « ... ان لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم » .

الطريق الى كربلاء :

سنة ٦٠ تقدم معاوية لانجاز الخطوة التالية ـ والاخيرة ـ في تحويل



لوحة ٢٣ : دينار ذهبي ضرب سنة ٧٧

دينار ذهبي

طريق الذهب

الدينار تعريب لكلمة « ديناريوس » اليونانية اللاتينية . واقدم دينار عربي ظهر سنة ٧٦ في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان الذي سكه على غرار الدينار البيزنطي ولكنه نقش على احد وجهيه الشهادتين وتاريخ السك . الوزن الشرعي للدينار العربي ٤,٢٥ جرامات

الخلافة الى نظام ملكي وراثي . فدعا الوفود من مختلف انحاء الدولة ليبايعوا ابنه يزيد وليا للعهد ، غير عابئ بالاعتراضات المرة التي كانت تأتي من الحجاز والعراق . سنة ٦١ توفي معاوية ، فتسلم يزيد الحكم وبادر الى مواجهة شيعة علي واتباع ابنه الحسين .

ـ وكان الحسين قد دعي لمبايعة يزيد ، لكنه رفض بعد ان اجمعت الحجاز على عدم القبول بغيره خليفة ، وأتت الرسل من انصاره في الكوفة تدعوه لأخذ البيعة . وقد رافق ذهابه الى العراق سلسلة من المؤامرات والتصفيات ضد انصاره وكل من حرض على المقاومة لاحباط مخطط الامويين في تحويل الخلافة الى نظام وراثي . وفي العاشر من محرم سنة ٦١ احاطت بالحسين ، وهو في كربلاء ، كتيبة من اربعة آلاف مقاتل ارسلهم عامل يزيد على العراق .

لم يكن برفقة الحسين سوى اهله وبعض اصحابه الذين لم يتجاوز عددهم المائتين . وبالرغم من التفاوت الكبير في العدد بينه وبين مهاجميه ، فقد آثر القتال على الاستسلام : فقتل ، واحتز راسه ، وحمل الراس الى يزيد في الشام . وقد كان ليوم كربلاء اثره الحاسم في اجهاض الثورة المسلحة ، لكن الهتاف الناري : « يالثارات الحسين ! » ظل يلاحق الدولة الاموية حتى انهيارها وقيام الدولة العباسية .

بعد الحسين برز للأمويين المنافس الآخر على الخلافة : عبد الله بن الزبير ،



سنة ٩١

دينار ذهبي ضرب سنة ١٠٥

من الذهب وعياره ٢٣,٧٥ قيراطا . بقية انواع النقود الاسلامية مقسمة الى وحدات منها :
الدرهم الفضي الذي اخذ اسمه عن كلمة درخما اليونانية ووزنه الشرعي ٢,٩٧ جرام ونسبته الى الدينار الذهبي هي ٧:١٠ ، والفلس وهو عادة من النحاس ونسبته الى الدرهم هي ١:٤٨ ، والخروبة (بذرة الخروب) ووزنها يساوي ١٨/١ من الدرهم تقريبا .

ابن اخت السيدة عائشة ام المؤمنين . وكان عبد الله قد قبل على مضض بخلافة معاوية . لكنه بعد استخلاف يزيد ومقتل الحسين اعلن عن حقه في الخلافة ، فبايعه اهل الحجاز . وعلى اثرها ارسل يزيد سنة ٦٤ حملة عسكرية الى المدينة سحقت المعارضين وتعقبت ابن الزبير الى ان حاصرته في مكة .

اثناء فترة الحصار مات يزيد في دمشق ، فتوقفت الحملة وعاد جنودها الى الشام سريعا خوفا من حدوث فتنة هناك . وبذلك استطاع ابن الزبير ان يستعيد قوته ويصعد حملته على الامويين ، فتوسعت حلقة مناصريه ، وبويع له بالخلافة في جنوب الجزيرة العربية ومصر والعراق وحتى في بعض انحاء الشام ، بالاضافة الى قاعدته الاساسية في ارض الحجاز نفسها .

في تلك الاثناء خلف يزيد في الشام معاوية الثاني الذي ما لبث ان خلع نفسه بعد مرور ثلاثة اشهر ، فلقب بالخليفة المستضعف ، ثم بويع بعده لمروان بن الحكم مؤسس الفرع المرواني في الاسرة الاموية . استمر مروان في الحكم سنة واحدة خلفه بعدها ابنه عبد الملك سنة ٦٦ .

في عصر عبد الملك بن مروان الذي حكم الدولة عشرين سنة تمت تصفية اعداء الدولة الاموية وخاصة ابن الزبير ، الخليفة الآخر في الحجاز والعراق . فقد ارسل الخليفة اليه الحجاج بن يوسف الذي احتفظت له المصادر بقصص غريبة ـ وبعيدة حقا عن روح الاسلام ـ من الارهاب والعنف الدموي . وقد تمكن الحجاج من قتل ابن الزبير بعد محاصرة مكة مدة ستة اشهر سنة ٧٣ . ولم تمض سنتان حتى كان الحجاج قد سيطر على كامل الحجاز واليمن والعراق .

قبل ان ينتهي القرن الاول ، كان العرب



العقد الفريد :
« .. وأحب الامويون الوشي واكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده ١٢ الف قميص وشي و ١٠ آلاف تكة حرير وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل ... » .

العقد الفريد
« .. وأول من بذل في هذا السبيل (يقصد شراء الجواري) الى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك فابتاع « الذلفاء » الجارية الشهيرة بسبعين الف دينار ... » .

ابن الاثير :
« .. اول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو أمية وأسخاهم الوليد بن يزيد وهو أول من عد أبيات الشعر واعطى على كل بيت ألف درهم ... » .

في الغرب قد طردوا البيزنطيين من قرطاجة ومدن الساحل واسترجعوا افريقية والمغرب . كما كان جيش الوليد في الشرق قد عبر نهر جيحون (اموداريا اليوم) ، وهو الحد الفاصل بين ايران وطوران ، واسترجع طخارستان ودخل بخارى ثم استولى على سمرقند سنة ٩٢ .

في العام التالي كان محمد بن القاسم يتجه نحو الجنوب ويفتح السند واسفل وادي الهندوس في الحملة التي وصلت الى جنوب البنجاب سنة ٩٥ . وفي تلك الاثناء كان طارق بن زياد يعبر المضيق عند الجبل الذي عرف فيما بعد باسمه ، فيهزم القوط ويستولي على قرطبة في اواخر سنة ٩٣ ، ثم يلحق به موسى بن نصير ويدخل اشبيلية في العام التالي .

الاسطول :

طوال هذا الوقت كانت العمليات العسكرية تتم بمساندة حاسمة من الاسطول ، وكان العرب يتقدمون الى جبهة البحر المتوسط من الموانئ القديمة نفسها التي شهدت حقب الصراع ضد روما في صيدا وصور وعكا والاسكندرية وقورينة وطرابلس وقرطاجة .

سفن الاسطول « .. مراكب حربية تتفاوت شكلا وجرما وقوة ، منها « الشونة » وهي مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجا وقلاعا للدفاع ، و « الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء ـ ويسمون المنجنيق عرادة ـ و « الطرادة » سفينة سريعة الجري ، و « العشاريات » مراكب يسار بها في الليل . وهناك سفن اخرى لأغراض اخرى مثل الشلنديات والمسطحات وغيرها . وكانوا يبنون سفنهم على مثال سفن اليونان والرومان ، لانهم اخذوا هذه الصناعة منهم وعدلوها . » .

ابن خلكان جزء أول :

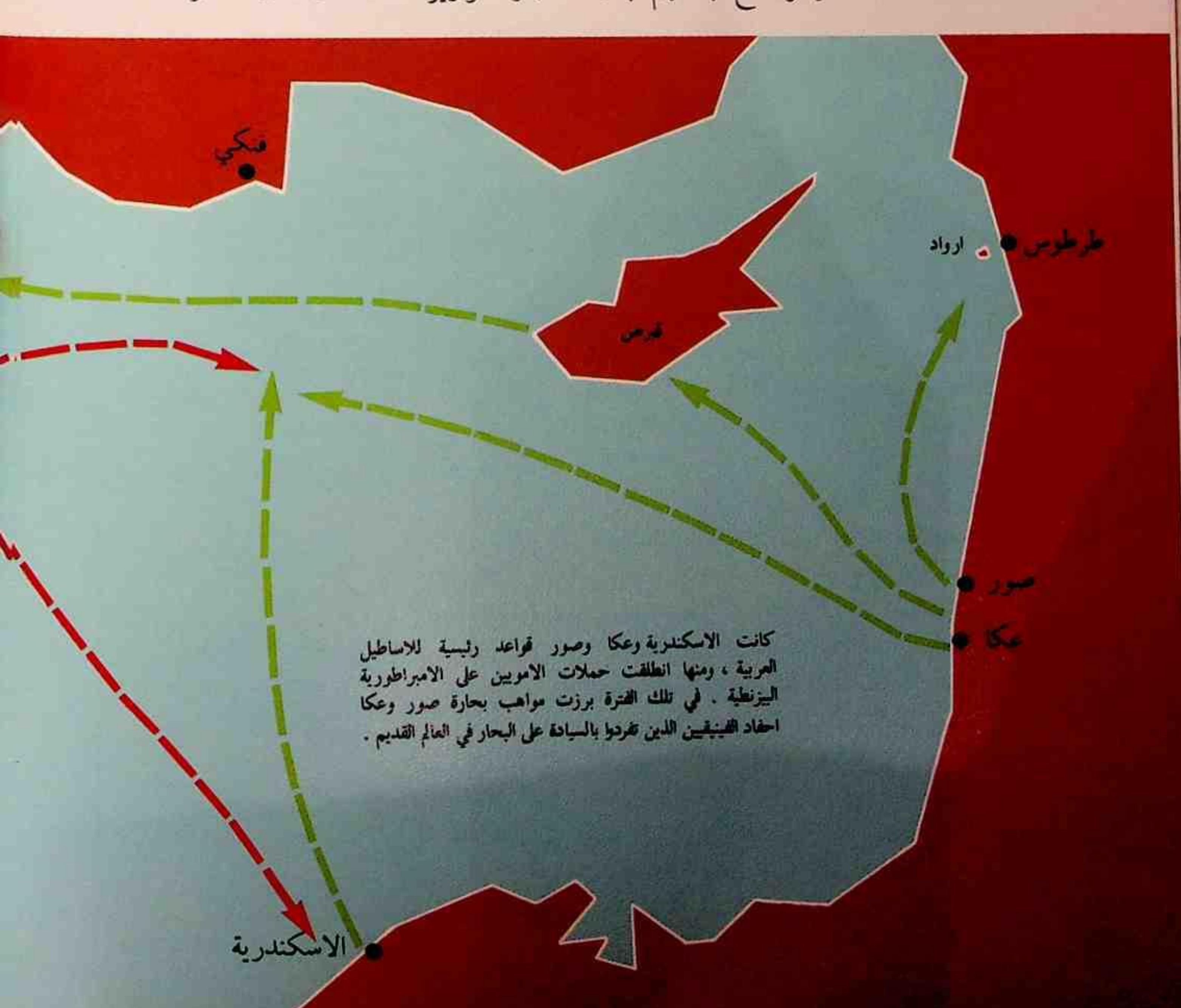
« .. عندما نصب معاوية
ابنه يزيد لولاية العهد
أقعده في قبة حمراء
وأقبل الناس
يسلمون على معاوية بالخلافة
ثم على ابنه يزيد
بولاية العهد
حتى جاء رجل منهم
فسلم على الاثنين
ثم رجع الى معاوية فقال :
يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك
لو لم تول هذا أمور المسلمين
لأضعتها .
وكان احنف بن قيس التميمي حاضرا
فقال له معاوية :
ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟
فقال : أخاف الله اذا كذبت ،
وأخافكم اذا صدقت .
فقال معاوية :
جزاك الله على الطاعة خيرا .
فلما خرج
لقيه ذلك الرجل فقال له :
يا أبا بحر
اني لأعلم ان شر من خلق الله
هو هذا وابنه ،
ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال
بالابواب والاقفال
فليس يطمع باستخراجها
الا بما سمعت ... ».

وبالنسبة لاسلحة القتال في البحر :

« .. الزرد والخوذات والدرق والتروس والرماح والقسي والكلاليب والباسليقات ـ وهي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد ـ والعرادات . وكانوا يجعلون في اعلى الصواري صناديق مفتوحة من اعلاها يسمونها التوابيت ، يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو ، فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاوة معلقة بجانب الصندوق ، فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق . » .

وبشأن النار الاغريقية :

« .. قد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال ، او



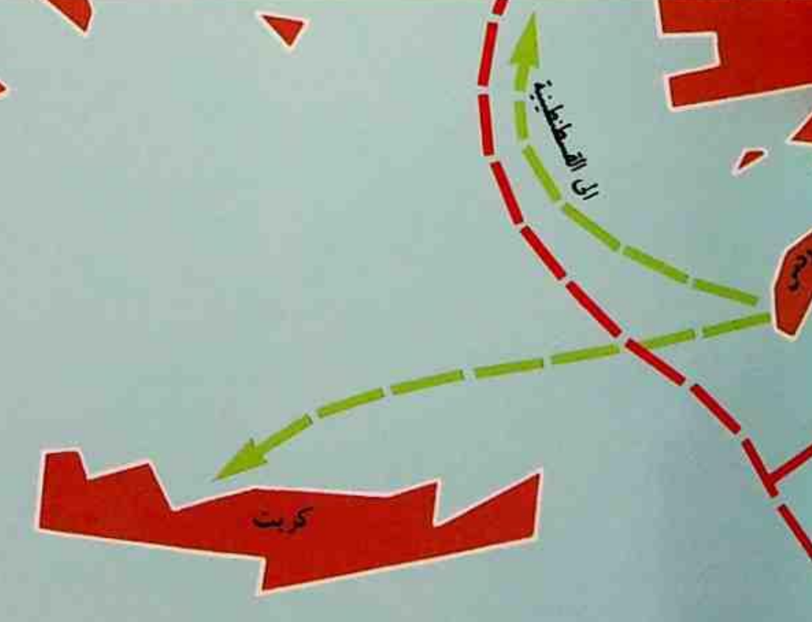
كانت الاسكندرية وعكا وصور قواعد رئيسية للاساطيل العربية ، ومنها انطلقت حملات الامويين على الامبراطورية البيزنطية . في تلك الفترة برزت مواهب بحارة صور وعكا احفاد الفينيقيين الذين تفردوا بالسيادة على البحار في العالم القديم .

جرار النورة ـ وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ ـ يرمون بها في مراكب الاعداء فتعمى الرجال بغبارها ، وقد تلتهب عليهم اذا تبددت ، او يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب او قدور الصابون اللين فانه يزلق اقدامهم . وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود او اللبود المبلولة بالخل او الماء والشب والنطرون لدفع اذى النفط ، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمى



لوحة ٢٤ : اسلحة المشاة من القرن الاول .



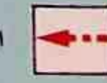


حاصر العرب القسطنطينية ثلاث مرات في عهد الامويين ، كان اخطرها الحصار الأخير الذي تولاه مسلمة شقيق الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان . وبعد نجاح ليو الثالث في مواجهة الجيوش العربية هللت اوربا له واعتبرته «مخلصا» من خطر المسلمين .

بعد معركة « ذات الصواري » التي جرت سنة ٣٤ عند ساحل ليسيا قرب فينكس (فنكي) ، ودمرت فيها الاساطيل السورية والمصرية اساطيل الروم بقيادة كونستانس الثاني حفيد هرقل ، تحقق للعرب وجود بحري مهيب في البحر المتوسط طوال القرون اللاحقة .

لوحة ٢٥ :


الاساطيل العربية


الاساطيل البيزنطية

المعجون بالخل ، فان هذه مواد تقاوم فعل النفط .

وكان من احتياطاتهم في اثناء الحرب انهم اذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكا . واذا ارادوا المبالغة في الاختفاء اسدلوا على المراكب قلوعا زرقا كي لا تظهر عن بعد .

وكانوا يجعلون في مقادم المراكب اداة كالفأس يسمونها « اللجام » ، وهي حديدة طويلة محددة الرأس جدا واسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها « الاسطام » ، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم المركب ، فيحتالون في طعن المراكب به ، فاذا اصاب جانب المركب بقوة خرقه حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب اصحابه الامان .

واما الكلاليب ففائدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو القوا الكلاليب عليه فيوقفونه ، ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون . واذا كان العدو قويا ابطل فعل الكلاليب بفاس ثقيلة من فولاذ يضربون به تلك الكلاليب فتنقطع . » .

على جبهة القسطنطينية :

هذا هو الاسطول الذي ظهر في البحر المتوسط بمثابة رد متوقع على حلم الامبراطور اغسطس القديم بتحويل البحر كله الى مجرد بحيرة رومانية . ولم يكن من محض الصدفة ان يندفع الاسطول الاسلامي منذ بداية تأسيسه لضرب القسطنطينية بالذات في ثلاثة حصارات متتالية :

الحصار الاول قاده ابن معاوية يزيد سنة ٤٩ .

الحصار الثاني وقع اثناء الحروب المعروفة بحروب السنين السبع بين سنة ٥٤ وبين سنة ٦٠ .

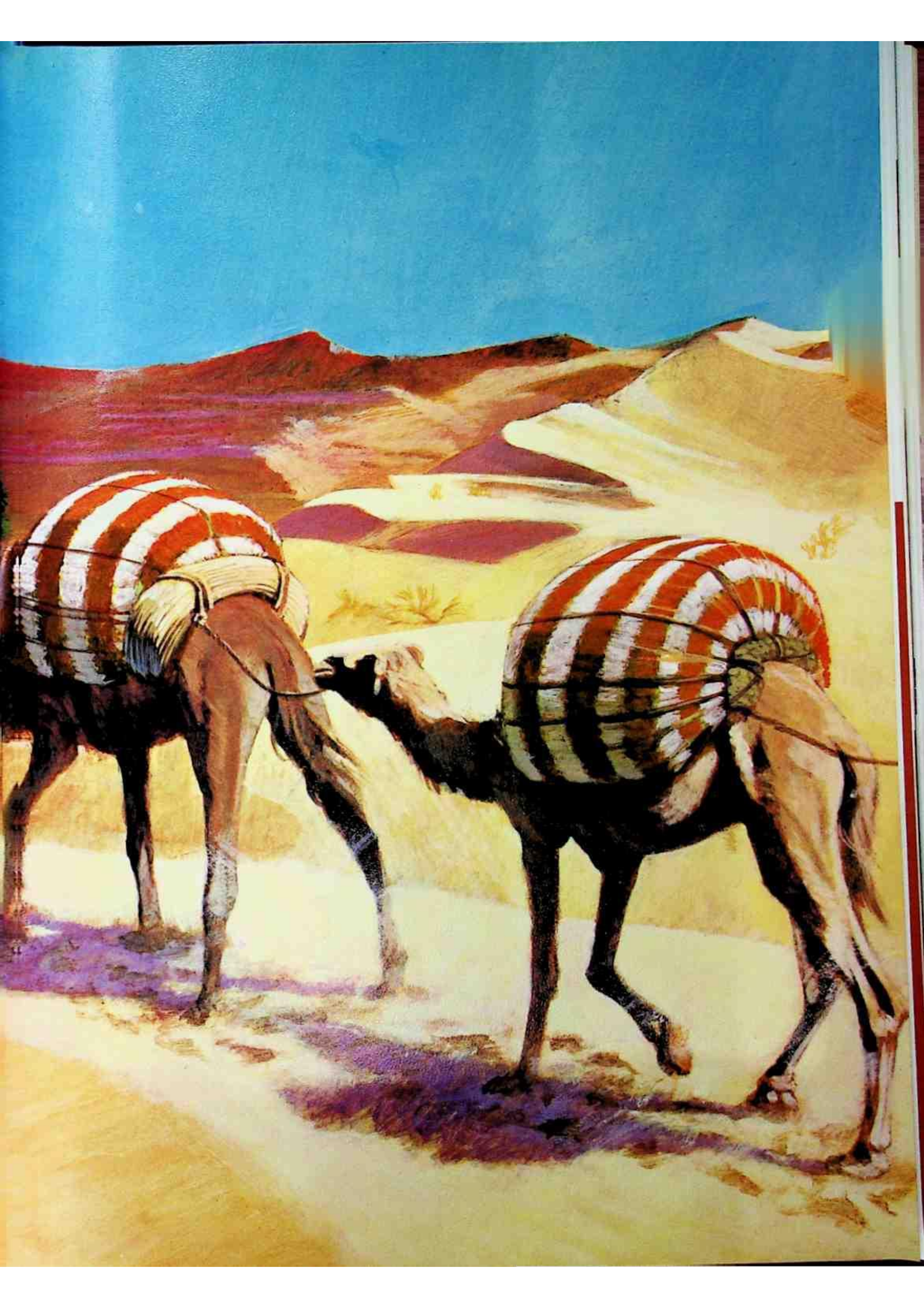
الحصار الثالث وقع سنة ٩٨ ، وفي هذه المرة قام الاسطول بأخطر واقسى هجوم شنته القيادة العربية وهددت فيه وجود الامبراطورية البيزنطية باكملها . فخاضت جيوش المسلمين ، بقيادة مسلمة بن عبد الملك اخي الخليفة سليمان ، معارك رئيسية اشتركت فيها الاساطيل العربية من الشام ومصر . لكن القسطنطينية لم تسقط ، ولم يكن بوسع العرب ان يواصلوا حصارها اكثر من عام واحد ، فتراجعوا عنها في مطلع العام التالي بأمر من الخليفة الجديد عمر بن عبد

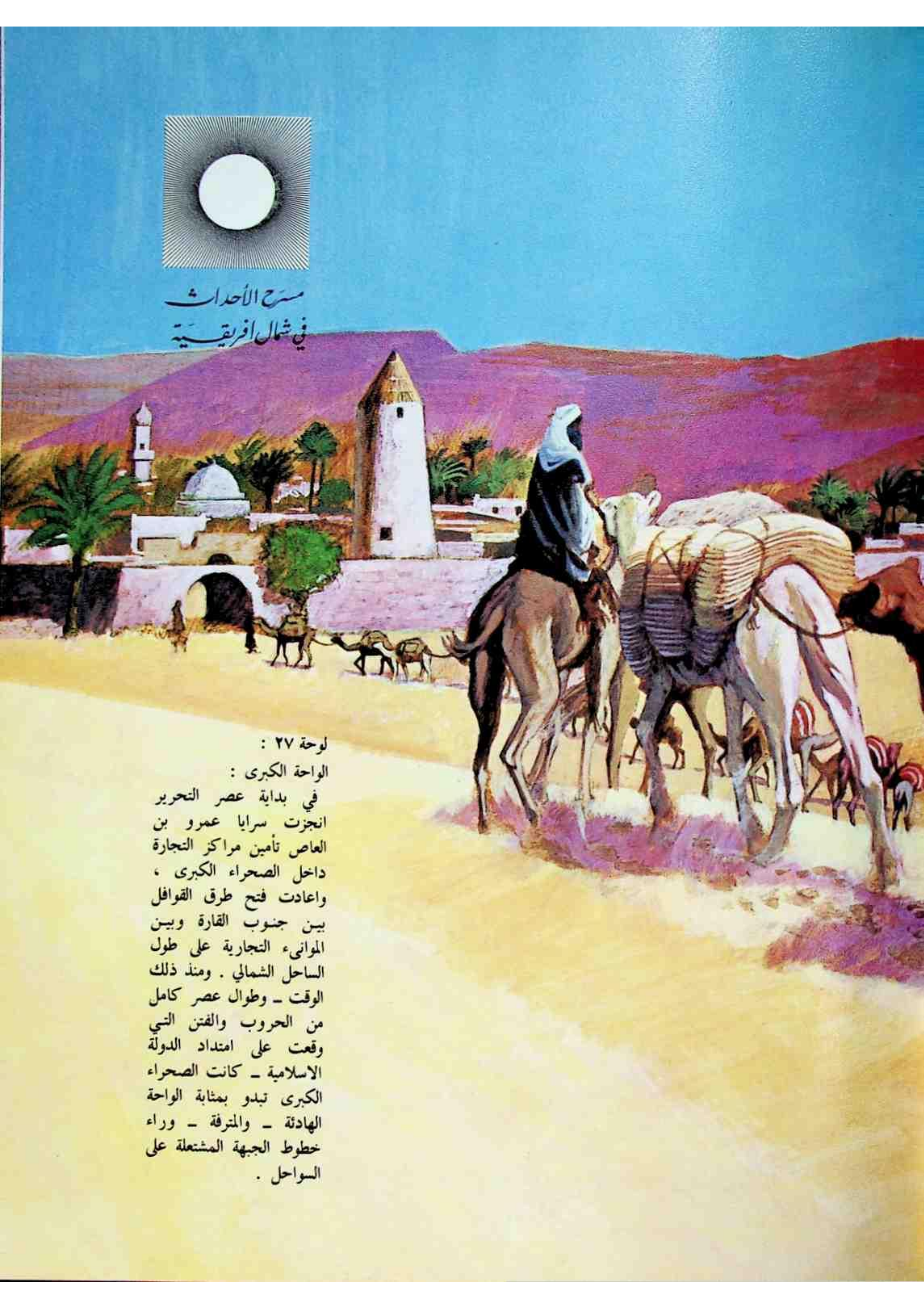
العزيز الذي تولى الخلافة بعد وفاة سليمان بن عبد الملك في دمشق اثناء فترة الحصار .

هذا التراجع كان مجرد انحسار مؤقت للموجة العربية التي ما لبثت ان عادت تدق اسوار القسطنطينية عاما بعد عام . ففي سنة ١١٩ واجه ليو الثالث ظروفا حرجة امام جيوش المسلمين في اماكن متفرقة من آسيا الصغرى ، كما زحف بعد ذلك بسنتين حوالى مائة وخمسين الف مقاتل من جيش هشام فوصلوا الى نيقية على ابواب عاصمة بيزنطة .



لوحة ٢٦ :
نسيج من جنوب ليبيا





لوحة ٢٧ :

الواحة الكبرى :

في بداية عصر التحرير انجزت سرايا عمرو بن العاص تأمين مراكز التجارة داخل الصحراء الكبرى ، واعادت فتح طرق القوافل بين جنوب القارة وبين الموانىء التجارية على طول الساحل الشمالي . ومنذ ذلك الوقت ـ وطوال عصر كامل من الحروب والفتن التي وقعت على امتداد الدولة الاسلامية ـ كانت الصحراء الكبرى تبدو بمثابة الواحة الهادئة ـ والمترفة ـ وراء خطوط الجبهة المشتعلة على السواحل .

المرحلة الثانية

خلال

سنوات الفتنة

بعد مقتل عمر توقفت حركة التحرير الاسلامي عند ابواب افريقية ، فاستعاد البيزنطيون قواهم وأخذوا يستقبلون الامدادات باعداد كبيرة . ونقل القائد البيزنطي جرجير مقر قيادته من مدينة قرطاجة الساحلية الى سبيطلة في الداخل ، ثم بادر الى تحصين المدن الشرقية المواجهة للقوات الاسلامية مثل قابس وصفاقس وقفصة . وتقدمت اساطيل الروم من جميع القواعد البحرية للامبراطورية وانطلقت تهاجم المدن الساحلية على طول الخط الممتد من الاسكندرية الى طرابلس . وما لبثت بيزنطة ان استردت خلال سنة واحدة تقريبا معظم تلك المدن بما في ذلك طرابلس .

سنة ٢٦ امر الخليفة عثمان بن عفان بتسيير حملة على افريقية لاسترداد طرابلس وبقية المناطق التي استولت عليها جيوش الروم . وقد تولى قيادة تلك الحملة عبد الله بن سعد ، فتوجه من مصر الى برقة حيث انضم اليه عقبة بن نافع . وبذلك بلغ عدد افراد الحملة عشرين الف مقاتل من بينهم عدد كبير من الصحابة الذين يحملون اسم عبد الله حتى عرف هذا الجيش باسم « جيش العبادلة » .

قرب مدينة سبيطلة ـ على مسافة قصيرة من قرطاجة التي شهدت فجر الصراع ضد الرومان ـ خاض الجيش الاسلامي سنة ٢٨ معركة كادت ان تكون معركته الحاسمة ضد آخر جيش روماني على ارض افريقية . فقد تمكن من ابادة هذا الجيش ، رغم تفوق الروم في السلاح والعدد ، وكان بوسعه ان يختم تاريخ الصراع العسكري في المنطقة نهائيا عند هذه المعركة ، لولا ان عبدالله بن سعد عاد فانسحب من افريقية فجأة دون سبب عسكري ملح ، تاركا للروم فرصة ثمينة لكي يستردوا قواهم ويجددوا نشاطهم الحربي على طول سواحل شمال افريقية .

اما بالنسبة لطرابلس ، فالظاهر انها عادت مع سائر مدن اقليمها الى

ايدي المسلمين حوالى سنة ٢٨ ، بعد انهيار القوات البيزنطية في افريقية وانسحابها الى الغرب . ومن الدلائل على عودة الحياة الطبيعية الى هذا الاقليم ان عبد الله بن سعد مر بها في طريق عودته الى مصر للاهتمام بشحن الغنائم من مرفئها الى مرفأ الاسكندرية . وكان عبد الله قد بعث الى نائبه في مصر يطلب اليه ان يوجه مراكب بحرية توافيه الى طرابلس لنقل غنائم المسلمين .

ذلك كل ما نعرفه عن تفاصيل الاحداث في هذه المنطقة آنذاك . فالفترة الواقعة بين سنة ٢٩ ، التي عاد فيها عبد الله بن سعد من ليبيا الى مقر ولايته في مصر ، وبين سنة ٣٨ ، التي اسندت فيها هذه الولاية من بعده لعمرو بن العاص من جديد ، هي فترة غامضة من تاريخ الشمال الافريقي لا نعرف عنها الكثير .

المرحلة الثالثة

بعد الفتنة

في الفترة الممتدة ما بين سنة ٣٨ وسنة ٤٤ كان معاوية بن ابي سفيان قد تمكن بالفعل من تثبيت حكمه في دولة من اوضح سماتها افتراقها الكامل عن دولة الخلفاء الراشدين . فقد تزعزعت ابانها مبادئ الحملات الاولى ومثلها العليا ، واختار قادة الحملات اللاحقة في سلوكهم مع شعوب المناطق المحررة منهاجا جديدا مخالفا للمنهاج السابق مما حمل تلك الشعوب على اعادة النظر في كل تعهداتها وتحالفاتها .

ففي سنة ٤٣ كان عقبة بن نافع يتوجه الى سرت على رأس حملة لتأديب قبائل الهوارة . وفي الوقت نفسه كان قائد آخر هو شريك بن سمي يتوجه لضرب القبائل النازلة حول مدينة لبدة القديمة . وبعد وفاة عمرو بن العاص في السنة التالية صدرت في دمشق ثلاثة قرارات بشأن شمال افريقية :

١) تعيين عقبة بن عامر الجهيني واليا على مصر خلفا لعمرو بن العاص .
٢) جعل شمال افريقية ولاية مستقلة عن مصر ، تكون تابعة للخلافة في دمشق ومؤتمرة باوامرها مباشرة .
٣) تعيين معاوية بن حديج واليا على الشمال الافريقي .

بعد ذلك اصدر الخليفة قرارا عسكريا بوضع جيش من عشرة آلاف

مقاتل ، فيه نخبة من كبار الصحابة امثال عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، تحت تصرف والي افريقية الجديد .

سنة ٤٦ زحف معاوية بن حديج باتجاه المناطق الغربية من شمال افريقية ، واخترق السواحل الليبية ، متوقفا في طرابلس حيث عين رويفع بن ثابت الانصاري واليا عليها . ثم تابع سيره حتى وصل الى سهل تونس ، فنزل هناك وجعل من قونية ـ بالقرب من المكان الذي شيدت فيه القيروان فيما بعد ـ قاعدة عسكرية ونقطة انطلاق شن منها هجوما صاعقا على البيزنطيين واجبرهم على التراجع من « القرن » جنوبي قرطاجة حتى مدينة سوسة .

وهنا وزع ابن حديج قادته على جبهتين :

الجبهة الاولى : عند سوسة نفسها حيث طارد عبد الله بن الزبير فلول البيزنطيين وطردهم منها .

الجبهة الثانية : عند مدينة جلولاء حيث هاجم عبد الملك بن مروان حاميتها المحصنة وراء اسوار المدينة ، فاجبرها على التخلي عنها .

في السنة التالية ، كان والي طرابلس رويفع بن ثابت الانصاري يهاجم جزيرة جربة تجاه الساحل التونسي ، فيحررها ويضمها الى اقليم طرابلس ، وخلال سنة واحدة ، كانت الجيوش العربية قد وصلت الى العمق الغربي من شمال افريقية بقوات قادرة على الاحتفاظ بمواقعها . وفي سنة ٤٨ عزل الخليفة ابن حديج من الشمال الافريقي ، وعين عقبة بن نافع مكانه ، وامده بقوات عسكرية جديدة لمتابعة توسيع رقعة الدولة في الشمال الافريقي .

ولاية عقبة :

اول ما قام به عقبة ، بعد وصول الامدادات اليه ، انه انتقل بها الى منطقة سرت وجعل من مدينة مغمداس قاعدة عسكرية رابط فيها القسم الاكبر من جيشه الذي ولى عليه القائدين عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي . اما هو فانطلق على رأس قوة صغيرة متجها نحو مملكة مزاتة في بلاد ودان . وكانت هذه المملكة قد ارتدت عن العهد الذي كان بسر بن ابي ارطأة قد عقده معها سنة ٢٢ .

تقول الاخبار ان عقبة ، بعد دخوله ودان ، واصل زحفه جنوبا ، فاخترق منطقة فزان بكاملها . ومن هناك توغل حتى بلاد النيجر ، فدخل مدينة قصر خاور ، عاصمة اقليم كوار ، كما استسلمت له المدن الاخرى في تلك

المقاطعة . وخلال خمسة اشهر اتم عقبة تغطية الشطر الجنوبي من ليبيا ، مستكملا بذلك تحرير كل اجزائها ، ثم عاد بعدها الى قاعدته مغمداس حيث جمع جيشه للزحف غربا .

عمد عقبة في زحفه نحو الغرب الى انتهاج طريق غير طريق الساحل المألوفة . فأتجه أولا نحو الجنوب الغربي حتى بلغ جبل نفوسة ، ومن هناك سلك الطريق المحاذية للجبل الممتدة نحو الغرب . وما كاد يبلغ قونية في سهل تونس ، وهو الموضع الذي أنزل فيه معاوية بن حديج جيشه سابقا ، حتى توقف عنده ، مأخوذا بفكرة اقامة رباط دائم للقوات العربية في هذا المكان البعيد عن الساحل وعن الاساطيل البيزنطية . وفي سنة ٥٠ بدأ العمل في بناء مدينة القيروان .

بعد خمس سنوات انتهى العمل في بناء القيروان ، لكن ولاية عقبة ايضا كانت قد انتهت . فقد قرر معاوية ان يضم شمال افريقية الى ولاية مصر مرة اخرى . واستدعى عقبة لكي يترك لمسلمة الانصاري والي مصر امر تعيين نائب له من بين عماله . وقد وقع اختيار والي مصر على ابي المهاجر دينار الذي يبدو أنه كان يحمل تعليمات محددة بخطة الامويين الجديدة . فقد بادر الى القبض على عقبة من دون سبب معلن ، ثم عمد الى انتهاج سياسة لينة مع القبائل النصرانية في محاولة لاستمالتها او تحييدها على الاقل ، اذ كانت بيزنطة قد اخذت تتودد الى مسيحيي شمال افريقية بدليل ان قسطنطين الرابع اعلن سنة ٦١ عن عودة الدولة الى مذهب الارثوذكسية ، أي مذهب القبائل النصرانية نفسها .

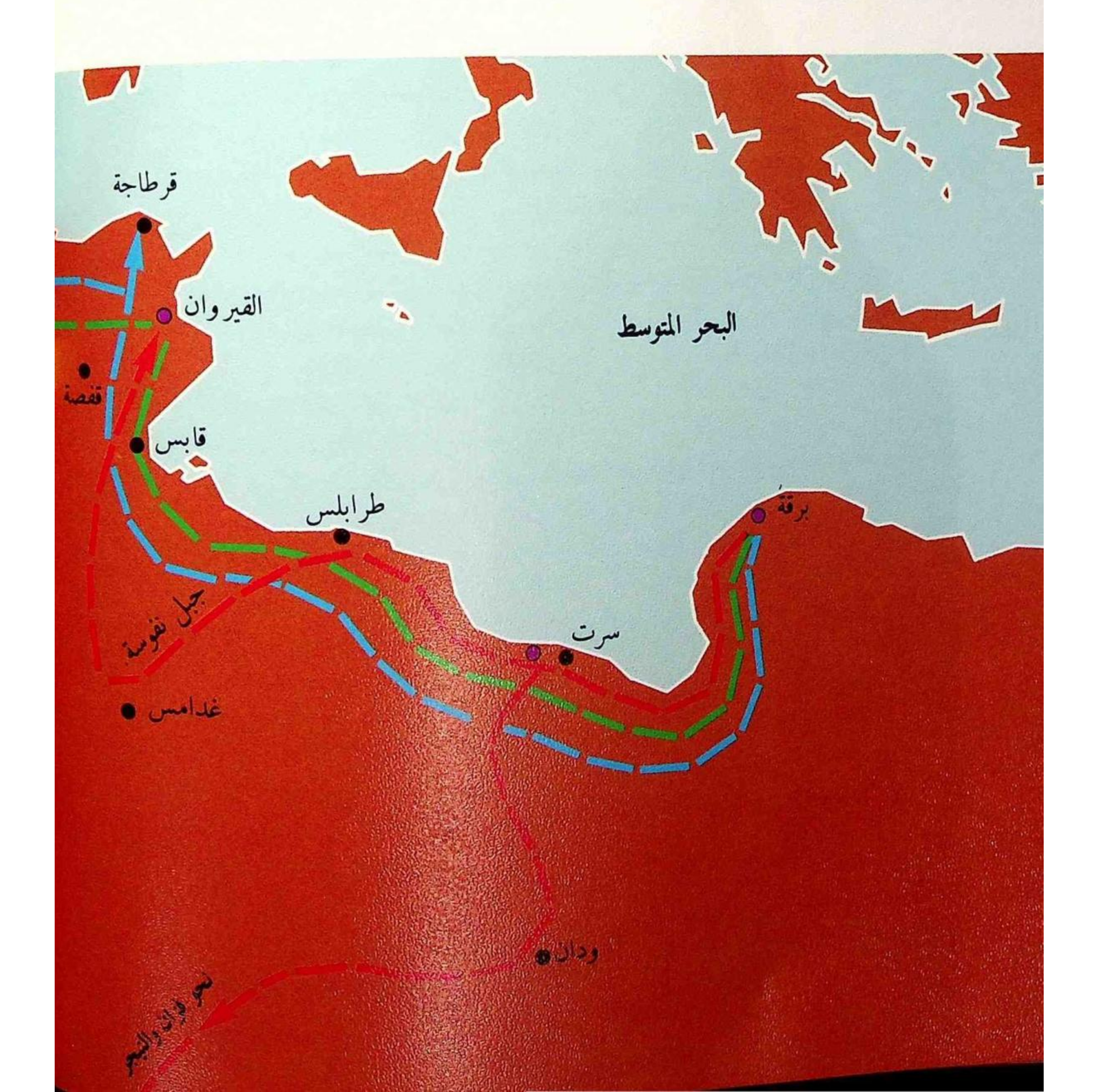
كان من نتائج سياسة ابي المهاجر الايجابية مع القبائل انه توصل الى عقد حلف مع كسيلة بن لمزم زعيم قبائل اوربة الذي اشهر اسلامه على يديه ، فاسلم معه عدد كبير من اتباعه . لكن سياسة المهادنة انتهت أثر وفاة معاوية وتولي ابنه يزيد الذي ما لبث ان عزل ابا المهاجر سنة ٦٢ وأعاد عقبة بن نافع من جديد .

بعد وصول عقبة الى القيروان ، ولى عليها زهير بن قيس ، ثم انصرف الى اعداد خطة للزحف على المغرب الاقصى . لكنه لم يغفر لابي المهاجر ما فعله معه ، « فاوثقه في وثاق شديد واساء عزله وغزا به السوس وهو في حديد » . كذلك اساء عقبة معاملة كسيلة فافترق عنه وانضم مع اتباعه الى القوات البيزنطية .

انطلق عقبة من القيروان ودخل مدينة باغاية ثم اخترق المغرب الاوسط وتوقف لدى مدينة تهودة في ارض الزاب . ثم واصل زحفه غربا حتى بلغ

المحيط واندفع في البحر بنفسه ، كما تروي المصادر ، حتى وصل الماء الى ركابه ، فسل سيفه من غمده ، وقال : « اللهم فاشهد اني لو كنت اعلم ان وراء هذا البحر ارضا لخضته غازيا في سبيلك » .

في طريق العودة نحو القيروان ، اجتاز عقبة المغرب الاوسط ، بعد ان امر العدد الاكبر من فرق جيشه لتسبقه الى القيروان ، ولم يبق معه اكثر من خمسة آلاف رجل . وعندما اقترب من مدينة تهودة وبدأ يجمع قواته للزحف عليها ، فاجأه كسيلة بن لمزم ، على رأس قبائل عديدة تقدر بخمسين الف رجل . ودارت معركة طاحنة بين الفريقين استبسل فيها المسلمون . لكن كسيلة تمكن من قتل عقبة مع جميع افراد فرقته . وما زالت قبور هؤلاء الشهداء معروفة بمدينة تهودة .❊



بعد استشهاد عقبة ورفاقه ، انسحب زهير بن قيس بجيشه من القيروان الى برقة حيث استقر مدة اربع سنوات ، لم يكف خلالها عن ارسال الطلب تلو الآخر الى الخلافة في دمشق لامداده بالجيوش اللازمة لاسترجاع ما اغتصبه كسيلة من اقاليم الدولة الاسلامية . لكن الخليفة عبد الملك بن مروان كان مشغولا بقمع الثورات التي ظلت تهب بوجه الامويين . وكان على زهير بن قيس ان ينتظر حتى سنة ٦٩ ، عندما استرد الخليفة انفاسه فارسل اليه حاجته من الامدادات واعتمد ولايته على افريقية رسميا .



لوحة ٢٨ : عقبة والبحر : من دون اسطول كانت جميع العمليات العسكرية محددة سلفا على اليابسة ، وكان عقبة يدور حبيسا على طول الطرف الغربي من افريقية كأنه يبحث عن ثغرة في جدار المحيط. انه يعلن عن ضيقه بهذا الحاجز عندما يخوض بحصانه في البحر الى صدره ، لكن ذلك ـ من دون اسطول ـ هو كل ما يستطيع ان يفعله .



لوحة ٢٩ :

ولاية زهير :

كان كسيلة قد استولى على اقاليم افريقية الداخلية تاركا للبيزنطيين قرطاجة وساحل افريقية . وقد افتتح زهير عملياته العسكرية في المنطقة بحملة موجهة للبحث عنه شخصيا وانطلق يطارده على الطرق الجنوبية حتى دخل القيروان سنة ٧٠ . لكن كسيلة كان قد اخلى المدينة خوفا من مساندة المسلمين القاطنين فيها لعامل الخليفة ، ولم يتوقف الاشتباك الرئيسي الا عند وادي ممس بين القيروان وتبسا حيث ضربه الجيش الاسلامي في معركة ناجحة انتهت بمقتله وبعثرة قواته .

في ذلك الوقت كانت الاساطيل البيزنطية تشن هجوما واسعا على سواحل برقة لضرب تموينات الجيش الاسلامي وقطع خطوطه مع مصر ، تمهيدا لخنقه بين طرفي الكماشة من الشرق والغرب . وكان على زهير بن قيس ان يبادر الى كسر هذا الطوق قبل ان يكتمل بناؤه مهما كان الثمن . ولقد تمكن من كسره ، لكن الثمن كان باهظا .

يقول ابن الاثير :

« بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة الى افريقية لقتال كسيلة ، فاغتنموا خلوها ، فخرجوا اليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبيا ، وقتلوا ونهبوا . ووافق ذلك قدوم زهير من افريقية الى برقة فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ، ورحل هو ومن معه . وكان الروم خلقا كثيرا . فلما رآه المسلمون استغاثوا به ، فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال . واشتد الامر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيرا واصحابه ، ولم ينج منهم أحد . وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية » . اما المسلمون الناجون من القتل والسبي ، ففر عدد منهم الى دمشق ودخلوا على الخليفة عبد الملك بن مروان واعلموه بالفاجعة التي حلت بهم . لكن الخليفة كان مشغولا بالقتال على جبهات داخلية .

في سنة ٧٣ تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء على ثورة ابن الزبير . ثم واصل قمع بقية الثورات التي استمرت طوال السنوات الثلاث اللاحقة . لكنه لم يهمل الشمال الافريقي ، بل اعد في تلك الاثناء جيشا ضخما من اربعين الف مقاتل ووضعه تحت امرة حسان بن النعمان الغساني والي مصر ، ثم قال له شارحا : « اني قد اطلقت يدك في اموال مصر ، فاعط من معك ومن ورد عليك ، واعط الناس ، واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه ».

ولاية حسان :

سار حسان بن النعمان بجيشه الكبير من مصر متجها نحو افريقية ، فانضم اليه في ليبيا عدد كبير من سكانها ، وعلى رأسهم هلال بن ثروان من قبيلة لواتة . وبعد ان اجتاز ليبيا بكاملها دخل مدينة القيروان سنة ٧٤ ، واخذ يعد العدة للزحف على قرطاجة ، مدينة حن بعل القديمة ، وأول قاعدة رومانية على شواطئ افريقية .

كان حسان مطلعا على احوال الدولة البيزنطية وعلى علاقاتها بالسكان بحكم انتمائه الى الغساسنة ، وهم من القبائل العربية التي كانت تحمي اطراف الجزيرة العربية لصالح بيزنطة قبل الاسلام . وقد ادرك منذ البداية ضرورة القضاء على الطوائف البيزنطية المتمركزة في مدن الساحل وبالذات في قرطاجة ، وتقدم بقواته الضخمة على الطريق نفسها التي سلكها الرومان لحصار المدينة سنة ١٤٦ قبل الميلاد . وفي هذه المرة كان السهم يرتد في الاتجاه المعاكس ، وكان على الرومان ان يستقبلوا ردا موجعا على غارتهم التي شنوها ضد افريقية قبل تسعة قرون . وقد اجتاح حسان اسوار قرطاجة في معركة واحدة ، فبادر حاكمها المتحصن وراء اسوارها الى الفرار ، راكبا سفنه برفقة حاشيته ، مقلعين بعضهم الى صقلية والبعض الآخر الى اسبانيا .

بعد سقوط قرطاجة ، تجمع من تبقى من البيزنطيين ، يعاونهم بعض القبائل في صطفورة وبنزرت ، وساروا تحت قيادة واحدة لايقاف زحف حسان ، لكنه انتصر عليهم ودخل مدن باجة وبونة وسائر بلاد المغرب ، ثم عاد الى القيروان .

لم يمض وقت طويل على هذه الانتصارات حتى فاجأت حسان مشكلة جديدة لم يكن يتوقعها ، وهي المشكلة التي اثارتها في وجهه الكاهنة داهية بنت ماتيا بن تيفان ، ملكة جبل الاوراس ، وزعيمة جراوة . فاضطر الى الخروج اليها ومقاتلتها في وادي نيني ، قرب باغاية . لكن الكاهنة الحقت به الهزيمة وارغمته على الانسحاب بفلول جيشه الى برقة . ثم انطلقت تطارد حامياته من منطقة الجريد حتى قابس ، وتخرب المزارع وتهدم الحصون ، متبعة سياسة الارض المحروقة لتقطع امامه سبيل العودة الى المنطقة .

عاد البيزنطيون فاستولوا على قرطاجة سنة ٧٨ . اما حسان نفسه فقد سار الى برقة وقبع فيها مع جنده في ثكنات سميت « بقصور حسان » الى ان تمكن ، بعد مرور اربعة اعوام ، من الحصول على امدادات كافية من الخليفة عبد الملك بن مروان . وفي هذه المرة رجحت كفته على جميع الجبهات . فقد

تنحى عن الكاهنة بعض انصارها وخسرت كثيرا من نفوذها على المزارعين الذين خربت مزارعهم . وسرعان ما تفوق حسان عليها واجبرها على التراجع الى المناطق القصية من جبال الاوراس . وعندما ايقنت ان لا امل لها بالنصر، ارسلت ابنيها الى حسان لطلب الامان لهما ، فأمنهما . لكنها شخصيا ظلت تحارب رغم هزيمة جيوشها في الاوراس مما اضطر حسان الى قتلها عندما وقعت اسيرة في يده . وبذلك زالت فجأة كل مقاومة امامه في المنطقة ، وشرعت بيزنطة تخلي له قواعدها يائسة من كل مساندة محلية ، حتى ان قرطاجة نفسها ما كاد يتوجه اليها حتى تخلت حاميتها عنها ، فاستردها من دون مقاومة .

لكن الاحداث السابقة علمت حسان الحذر ، وحثته على التحسب لغدر البيزنطيين ، والتفكير بامكانية هجوم مفاجئ على قرطاجة من جهة البحر . فقرر اقامة مدينة اسلامية تقع على البحر تجاه قرطاجة وتشرف على مداخلها وتمنع بالتالي اي هجوم مفاجئ عليها . فكانت مدينة تونس ، هذا الثغر الصغير في البدء ، الذي كان لا يحوي سوى ابراج المراقبة ومسجد جامع ودار للامارة ودار للصناعة ودور للجند وبضعة اسواق ، فاصبح بعد ثلاثين عاما على يد عبيد الله بن الحبحاب اعظم ثغور افريقية اطلاقا .❁

فضلا عن هذا العمل العمراني ، كان حسان يصرف قسما كبيرا من اهتمامه للعمل التنظيمي الاداري والديني والثقافي . فدون الدواوين باللغة العربية ، ونظم شؤونها ، مخصصا لكل من الوظائف الرئيسية في الولاية ديوانا فيه ما يحتاج اليه من الموظفين ، كديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الجند الذي نظم به شؤون الجيش ، فقسمه على الثغور واحصى المحاربين وسجل اسماءهم وأوصافهم واسلحتهم واعطياتهم .



مقدمة ابن خلدون :

« .. واما افريقية كلها الى طرابلس فبسائط فيح
كانت ديارا لنفزاوة
وبني يفرن ونفوسة .
وقاعدتها لهذا العهد تونس
وهي دار ملكها ويمر فيها
النهر الاعظم
المعروف بوادي مجرد ،
يجتمع فيه سائر الأودية
ويصب في البحر الرومي
على مرحلة
من غربي تونس
بموضع يعرف ببنزرت ... » .

شذور العقود في ذكر النقود للمقريزي :

« .. وأول من ضرب
المعاملة في الاسلام
عمر بن الخطاب
في سنة ثماني عشرة من الهجرة
على نقش الكسروية
وزاد فيها
« الحمد لله محمد رسول الله » ،
وفي بعضها « لا اله الا هو »
وعلى جزء منها اسمه « عمر » .
وعبد الله بن الزبير ضرب بمكة
دراهم مستديرة ،
وهو اول من ضرب هذه الدراهم
ونقش بدائرها « عبد الله »
وبأحد الوجهين
« محمد رسول الله »
وبالآخر « أمر الله بالوفاء والعدل ».

وقد سار حسان في ذلك كله على نهج الخليفة عبد الملك بن مروان ، محتفظا بالتقسيمات الادارية البيزنطية . فعين على كل ناحية ادارية عاملا يشرف على امورها . كما عين لكل ناحية قاضيا ينظر في المشاكل الفقهية المعقدة . واهتم ايضا بأمر العملة ، فضرب العملة المغربية دنانير ودراهم وفلوسا ، ونقش عليها باللغة اللاتينية ، مستبدلا الدينار البيزنطي بدينار حسان .

في هذا الدينار استعاض حسان عن صورة الامبراطور وولي العهد بصورة الخليفة عبد الملك بن مروان وولي العهد الوليد ، وحول هذه الصور كتب البسملة مترجمة الى اللاتينية في حملة اعلامية ذكية بين الشعوب التي كانت لا تزال على ديانتها المسيحية ويتخاطب معظمها باللغة اللاتينية . اما على الوجه الثاني فقد حذف الخط الافقي من الصليب الذي كان قائما في وسط الدينار البيزنطي ورسم عوضا عنه دائرة ترمز الى الكرة الارضية فوقها عبارة « الله واحد لا شريك له ولا مثيل له » مترجمة الى اللاتينية ، يتلوها تاريخ السك .

ولاية موسى بن نصير :

في اوائل سنة ٨٦ صدر امر من عبد العزيز بن مروان ، والي مصر ، بعزل حسان بن النعمان عن ولاية افريقية ، وتعيين موسى بن نصير مكانه .

وبوصول هذا القائد الى شمال افريقية سنة ٨٨ ، استؤنفت العمليات العسكرية ضد بيزنطة على نطاق واسع وتم تحرير بقية اراضي المغرب الاقصى والاوسط ، وتقدمت الجيوش الاسلامية شمالا الى حافة النتوء القارّي عند اقصى نقطة من افريقية حيث وقفت تتجمع للعبور الى قارة اوربا نفسها ، في ظروف شديدة الشبه بالظروف التي شهدت زحف حن بعل على روما قبل تسعة قرون تقريبا . كل ما في الامر ان موسى بن نصير

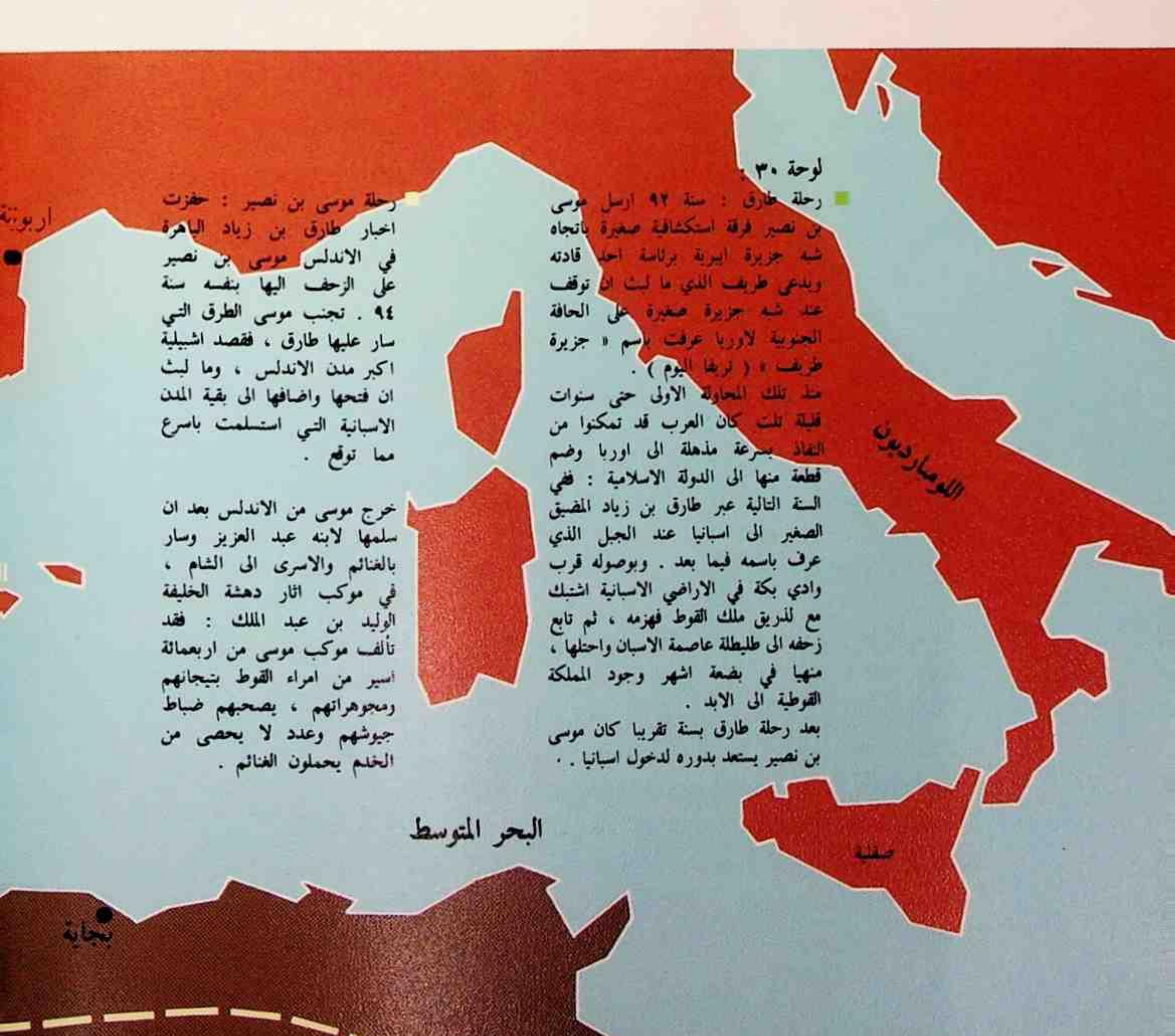
البلاذري :

« .. ان اهل الجزيرة بالعراق
كانت جزيتهم دينارا ،
ومدين قمحا ،
وقسطين زيتا ،
وقسطين خلا في العام .
فلما تولى
عبد الملك بن مروان
استقل ذلك ،
فبعث الى عامله
فأحصى الجماجم
وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ،
وحسب ما يكسب العامل
سنته كلها
ثم طرح من ذلك
نفقته في طعامه
وادمه وكسوته ،
وطرح ايام الاعياد في السنة كلها
فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة
لكل واحد اربعة دنانير ،
فالزمهم ذلك جميعا
وجعلها طبقة واحدة ... » .

كان يفتتح هجومه من افريقية وليس من اسبانيا ، وكان عليه هذه المرة ان يؤمن لجيوشه اولا موضع قدم على ارض القارة الام . انه يرتاد الطريق امامها على ثلاث مراحل :

في المرحلة الاولى اكتفى بارسال سرية محدودة تولى قيادتها مولاه طريف الذي تكفل بارتياد الطريق ، وقام بتأمين موضع القدم لعمليات الانزال التالية في شبه جزيرة صغيرة عرفت باسم جزيرة طريف وهي « تريفا » الحالية .

في المرحلة الثانية خرج طارق بن زياد على رأس جيش تعداده سبعة آلاف جندي ، فعبر المضيق الذي ما يزال يحمل اسمه حتى الآن سنة ٩٢ ، ثم اندفع شمالا نحو طليطلة املا ان يفاجئ لذريق ملك القوط الـذي كـان



لوحة ٣٠ :

رحلة طارق : سنة ٩٢ ارسل موسى بن نصير فرقة استكشافية صغيرة باتجاه شبه جزيرة ايبرية برئاسة احد قادته ويدعى طريف الذي ما لبث ان توقف عند شبه جزيرة صغيرة على الحافة الجنوبية لاوربا عرفت باسم « جزيرة طريف » (تريفا اليوم) .

منذ تلك المحاولة الاولى حتى سنوات قليلة تلت كان العرب قد تمكنوا من النفاذ بسرعة مذهلة الى اوربا وضم قطعة منها الى الدولة الاسلامية : ففي السنة التالية عبر طارق بن زياد المضيق الصغير الى اسبانيا عند الجبل الذي عرف باسمه فيما بعد . وبوصوله قرب وادي بكة في الاراضي الاسبانية اشتبك مع لذريق ملك القوط فهزمه ، ثم تابع زحفه الى طليطلة عاصمة الاسبان واحتلها ، منهيا في بضعة اشهر وجود المملكة القوطية الى الابد .

بعد رحلة طارق بسنة تقريبا كان موسى بن نصير يستعد بدوره لدخول اسبانيا . .

رحلة موسى بن نصير : حفزت اخبار طارق بن زياد الباهرة في الاندلس موسى بن نصير على الزحف اليها بنفسه سنة ٩٤ . تجنب موسى الطرق التي سار عليها طارق ، فقصد اشبيلية اكبر مدن الاندلس ، وما لبث ان فتحها واضافها الى بقية المدن الاسبانية التي استسلمت باسرع مما توقع .

خرج موسى من الاندلس بعد ان سلمها لابنه عبد العزيز وسار بالغنائم والاسرى الى الشام ، في موكب اثار دهشة الخليفة الوليد بن عبد الملك : فقد تألف موكب موسى من اربعمائة اسير من امراء القوط بتيجانهم ومجوهراتهم ، يصحبهم ضباط جيوشهم وعدد لا يحصى من الخدم يحملون الغنائم .



ما يزال مشغولا باخماد ثورات الباسك . لكن المفاجأة لم تكن كاملة . فقد تمكن الملك من تجميع قواته واعادة تنظيمها ، ثم انطلق لملاقاة طارق على رأس جيش تعداده خمسة وعشرون الف جندي .

دارت المعركة في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ عند مصب وادي بكة في بحيرة جاندا ، وأظهر طارق براعة عسكرية فائقة في تعويض نقص الامدادات بارغام عدوه على القتال في ميدان محصور حول البحيرة . وساعدته هذه الخطة

لوحة ٣١ : شارات ضباط المشاة .

غيجون
بوردو
استوريا
البيرنيه
لشبونة
طليطلة
مملكة القوط
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
طنجة
سبتة
مليلة
وهران

على تحطيم جيش يفوقه عدة وعددا ويقاتل على بعد يسير من مصادر امداداته . اما لذريق نفسه فقد اختفى فجأة من ميدان القتال ومن مسرح التاريخ مرة واحدة .

بعد ذلك زحف طارق نحو طليطلة عاصمة القوط ، وعبر اليها عن طريق مدينة استجة لكي يوزع قواته في اتجاه المدن الاخرى : فارسل سرية الى ارجذونة التي استسلمت في وقت قصير ، ثم ارسل سريتين اخريين واحدة في اتجاه البيرة واخرى في اتجاه قرطبة ـ وهي المدينة التي سوف تصبح عاصمة المسلمين في الاندلس ـ فضرب حولها حصارا محكما حتى استسلمت بعد شهرين . اما طليطلة نفسها فقد تم اخلاؤها بعد وصول اخبار الفتح ، وفتحت له ابوابها من دون مقاومة .

في المرحلة الثالثة عبر موسى بن نصير شخصيا وتقدم الى مدينة ماردة فضرب حولها حصارا استمر زهاء سنة كاملة ، وبعد سقوطها زحف في اتجاه اشبيلية التي كانت اهم المراكز الادارية في اسبانيا ، فاستولى عليها ودخلها دون جهد كبير .

وكانت حملة موسى بن نصير قد بدأت في السنة التالية لحملة طارق . لكنه عمد في المرحلة الاولى منها الى تجنب المناطق التي كان طارق قد سبقه اليها . وتروي المصادر ان القائدين الكبيرين التقيا فعلا في مدينة طليطلة حيث كانت بانتظار موسى رسالة من الخليفة الوليد تأمره بالحضور فورا الى دمشق .

قصة هذه الرسالة لا ترد في المصادر التاريخية بصيغة واحدة ، فثمة آراء مختلفة حول هدفها ومحتواها ، لكن الظاهر انها كانت رسالة استدعاء من الخليفة ، وان اخبارا ما قد بلغت دمشق عن سلوك موسى بن نصير في المغرب مما دعا الخليفة الى المخاطرة باستدعاء قائد عام على جبهة حرب نشطة .

فماذا حدث ؟
واية اخبار تستحق المخاطرة بسلامة الجيش الى هذا الحد ؟

حدث ذات نهار صائف :

فجأة ، ومن دون أية تبريرات مفصلة ، تعلن المصادر ان موسى ما كاد يصل الى دمشق حتى قيده الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك « في الشمس يوما كاملا في نهار صائف حتى خر مغشيا عليه ، ثم جرده سلطته وصادر امواله » . ويقال ان هذا القائد الكبير « شوهد في شيخوخته يستعطي في قرية نائية في وادي القرن من اعمال الحجاز » .

والسبب ؟

تقريبا لا شيء . فكل ما قيل في هذا الشأن مجرد تخمينات خاصة منها ان سليمان بن عبد الملك طلب اليه ان يؤجل دخوله الى العاصمة ريثما يموت الخليفة الوليد الذي كان على فراش المرض ، لكي يفوز وحده بشرف استقبال الموكب ، وان رفض موسى لهذا الطلب هو الذي كلفه كل شيء . لكن الظاهر ان المشكلة لم تكن شخصية الى هذا الحد .

فالثابت ان موسى بن نصير لم يكن حريصا دائما على استشارة الخليفة ، او انتظار اوامره ، وانه في العادة كان يتصرف من تلقاء نفسه ويتخذ قرارات اساسية جدا دون مراجعة دمشق ، كما حدث في خطة فتح الاندلس نفسها التي يبدو ان الخليفة لم يطلع على جميع تفاصيلها . ولعل موسى كان له عذره بسبب بعد المسافة بين مركز الخلافة وبين ميدان العمليات في شمال افريقية . لكن مشاكل الصراع المستمر على السلطة ، وحساسية الظروف بالنسبة لاسرة بني امية ، كانت بدورها تحتم على الخليفة ان يحتفظ لنفسه دائما ببعض الشكوك تجاه جميع رجاله ، وبالذات تجاه قادته العسكريين الذين يعملون في ميادين بعيدة مثل شمال أفريقية .

ومما زاد المشكلة تعقيدا ان موسى وضع هذه المناطق البعيدة تحت تصرف اسرته ، فعين ابنه عبد العزيز واليا على الاندلس ، وابنه عبد الله واليا على المغرب ، واسند قيادة الجيش نفسه الى مولاه طارق . واذا كان هذا كله لا يثير شكوك خليفة بايعته الامة بالاجماع ، فانه بالتأكيد لا بد ان يثير شكوك رجل وصل الى السلطة بسيوف اسرته وحدها مثل الخليفة الاموي . لقد راى في موسى رجلا يرفع في وجهه السيف نفسه ، وكان عليه أن يقطع يده قبل أن تهبط .



وذلك ما فعله الخليفة بالضبط : عزل موسى وشوه سمعته ، ثم دس لابنه عبد العزيز من يقتله بحجة انه نصراني في السر . وبعد ذلك تفرغ لابادة بقية الاسرة التي كان كل ذنبها فيما يبدو انها اختارت ان ترقص بالسيوف ابتهاجا بأفراح الخليفة . لقد كان نظام الخلافة يتحول تدريجيا من حكم امة الى حكم اسرة ، وكان من الواضح ان الامويين لن يستطيعوا ان يحتفظوا بباب بيتهم مقفولا لوقت طويل جدا .

لوحة ٣٢ :
مخطوطة
من القرن
الهجري التاسع

(من سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م)

حتى ٢٩٢ هـ او ٩٠٤ م	□ ابو عبد الله الشيعي كبير الدعاة الاسماعيليين يستقر بين قبائل كتامة بشمال افريقية ويشن هجمات متصلة على الاغالبة تمهيدا لقيام الدولة الفاطمية .	□ الاساطيل العربية على شواطئ سلانيك ، والقوات الروسية تهاجم القسطنطينية مجددا .
حتى ٣٠٠ هـ او ٩١٢ م	□ نشوء الدولة الفاطمية في القيروان ، والمهدي عبيد الله اول خلفاء الفاطميين .	□ ولاية عبد الرحمن الثالث توصل الخلافة الاموية في الاندلس الى ذروة نفوذها السياسي ، وقرطبة في عهده تصبح اعظم مركز ثقافي في اوربا .
حتى ٣٠٦ هـ او ٩١٨ م	□ سمعان البلغاري يجتاح المناطق البيزنطية في تراقيا ومقدونيا ، لكنه يفشل في احتلال القسطنطينية. □ اولى محاولات الفاطميين للاستيلاء على مصر .	□ سمعان البلغاري يتخذ لقب « قيصر البلغار والاغريق » ويفصل الكنيسة البلغارية عن كنيستي روما والقسطنطينية .
حتى ٣٢٤ هـ او ٩٣٥ م	□ ملك المانيا هنري الاول يخضع بوهيميا والمناطق السلافية الواقعة شرق نهر الالبا ، بعد ان كان قد غزا مناطق اللورين قبل اربع سنوات .	□ محمد بن طغج والي الخليفة العباسي على مصر يستقل عن بغداد ويؤسس الدولة الاخشيدية . □ العرب يؤسسون مدينة الجزائر .
حتى ٣٣٣ هـ او ٩٤٤ م	□ روميرو الثاني ملك ليون في اسبانيا ينتزع مدينة مدريد من العرب ويهزم الخليفة الاموي عبد الرحمن الثالث في جنوبي سلمنكا . □ عدد مراكز نقل الاخبار والرسائل البريدية	في الدولة الاسلامية يبلغ حوالى الالف مركز . □ الامير سيف الدولة يطرد الاخشيديين من حلب ويجعلها عاصمة للدولة الحمدانية التي كانت قد نشأت في الموصل سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م .



ى ٣٥٣ هـ ٩٦٤ م	□ احمد بن بويه يسيطر على الخلافة العباسية ويؤسس الدولة البويهية . □ بدء « العصور المظلمة » في اوربا .	□ تأسيس الدولة الغزنوية (التركية) في افغانستان . □ نقفور الثاني فوكاس ينتزع جزيرة كريت من العرب .
ى ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م	□ بداية عهد الخلافة الفاطمية في مصر . □ اقامة علاقات تجارية مباشرة بين مصر وايطاليا .	□ الامبراطور الالماني اوتو الثاني يهزم ملك بافاريا هنري « المشاغب » ويزيحه عن عرشه ويضم المقاطعات البافارية في كارنثيا وفيرونا الى امبراطوريته .
ى ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م	□ البدء بموسوعة من الف جزء في الصين استغرق وضعها ست سنوات . □ الفايكنغ يؤسسون اولى مستعمراتهم في جرويتلند .	□ اولاف اول ملك مسيحي على السويد . □ حرب اهلية في روما .
ى ٣٩١ هـ ١٠٠٠ م	□ امارة البندقية تمد نفوذها الى سواحل دالماسيا والبحر الادرياتيكي .	□ بداية انتشار المسيحية في اسلندا وجرويتلند . □ الخوف من حلول يوم الدينونة ونهاية العالم يعم العالم المسيحي .

مسرح الأحداث
في
الدولة الاسلامية
(٣)

من سنة ٩٦ الى سنة ٢٠٠

"انا سلطان الله في ارضه"
المنصور

بعد حملات الابادة الشهيرة التي قادها عامل الامويين الحجاج بن يوسف منذ سنة ٧٣ ضد المعارضة في الحجاز والعراق وفارس ، هدأت جبهات الحرب الاهلية مؤقتا ، وانصرف الخليفة عبد الملك بن مروان الى وضع اصلاحات تناولت مختلف اجهزة الدولة خصوصا الشؤون المالية .

لكن المدهش في اصلاحات الخليفة انه نقل معظمها حرفيا عن تدابير الحجاج بن يوسف بالذات . وكان الحجاج قد فرض على اهل العراق وخراسان « ما اعتادوه من الجزية التي كانوا يدفعونها قبل اسلامهم ، اي ما يقابل الجزية والخراج » ، ثم اضاف الخليفة فيما بعد بعض الاجراءات المالية البيزنطية المستوحاة من نظام ضريبي خاص وضعه الامبراطور جستنيان الاول سنة ٥٣٨ ميلادية .

والواقع ان عبد الملك لم يجد امامه حلولا افضل لزيادة موارد الدولة في مواجهة الاقبال الكبير على الدخول في الاسلام بين سكان المناطق المحررة . فدخول الناس افواجا في دين المساواة والعدالة من ناحية ، وازدياد مصاريف الرواتب في جيش اصبح شبه محترف من ناحية اخرى ، اخذا يشكلان - من وجهة نظر الخليفة على الاقل - خطرا كبيرا متزايدا على خزانة الدولة .

في المقابل لم يدرك عبد الملك ما سوف تحدثه تشريعاته المالية من تمزق هائل في صفوف اسرة المسلمين الواحدة . فقد كان على الخلفاء من بعده ان يواجهوا ثورات متلاحقة ادت - في النهاية - الى دمار الاسرة الاموية ذاتها .

وقد وصف المسعودي حالة الترف التي كان يعيش فيها قادة بني امية بقوله : « كان الامير الاموي يقتني من الحشم نحو الف ... » . ويذكر ايضا على سبيل المثال انه كان لكل جندي في جيش معاوية ايام صفين عدد من الخدم يتراوح بين الواحد والعشرة يقومون على خدمته . أما العطاء السنوي للجيش فكان يبلغ « حوالى ستين مليون درهم لكل ستين الف جندي » .

ثم جاء عمر :

بعد سبعة خلفاء من بني امية ، وبعد نصف قرن من العمل بتشريعات مالية منقولة عن نظام بيزنطة ، جاء عمر بن عبد العزيز فبذل محاولة اخيرة لايقاف هذا الاستنزاف الخطر ، واجرى اصلاحاته المالية الشهيرة التي اسقط بموجبها كافة الضرائب عن جميع فئات المسلمين - خاصة ضريبة الجزية - ولم يستثن منها سوى ضريبة الخراج على الارض التي اعتبرها ملك الامة الاسلامية جمعاء .❁

لكن ذلك كله جاء متأخـرا .



الكامل لابن الأثير :

« .. وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم :
ان اهلي اقطعوني
ما لم يكن لي ان آخذه
ولا هم ان يعطونيه ،
واني قد هممت برده
على اربابه .
فلما رأى اهله ذلك
خافوا على سلطانهم ،
وهو انما قام بالمال ،
فمشوا الى عمته
فاطمة بنت مروان
وشكوه اليها فأتته فقال لها :
ان الله بعث
محمدا صلى الله عليه وسلم
رحمة ولم يبعثه عذابا
الى الناس كافة ،
ثم اختار له ما عنده ،
وترك للناس نهرا
شربهم منه سواء ،
ثم ولي أبو بكر ،
فترك النهر على حاله ،
ثم ولي عمر
فعمل عمله ،
ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد
ومروان وعبد الملك ابنه
والوليد وسليمان ابنا عبد الملك ،
حتى افضى الأمر الي ،
وقد يبس النهر الاعظم ... » .

هجوم العباسيين :

– في الربع الاخير من سنة ١٢٩ اعلن ابو مسلم الخراساني قيام الثورة العباسية واحتل مرو عاصمة خراسان ، فيما استسلمت الكوفة لابي العباس الداعية الاول . وفي اواخر السنة نفسها تمت بمسجد الكوفة في العراق مبايعة ابي العباس خليفة للمسلمين ، وهو الخليفة الذي اشتهر في التاريخ بلقب السفاح .

وقد بذل الخليفة الاموي مروان الثاني كل ما في وسعه لتدمير القوة العباسية في مهدها ، وبادر الى الزحف على العراق بجيش من اثني عشر الف جندي ، مغامرا بالقاء كل قواته في معركة قصيرة واحدة عرفت بواقعة الزاب . وعندما خسر هذه المعركة ، لم يعد لديه ثمة ما يدافع به حتى عن عاصمته نفسها ، فهرب الى مصر حيث تمكن العباسيون من اللحاق به وقتله سنة ١٣٣ .

وبعد ذلك افتتح السفاح ومعاوناه الشهيران ، ابو مسلم الخراساني وعبد الله بن علي ، مجزرة هائلة استباحوا فيها دماء الامويين ، في حملة تصفية لا تبدو غريبة عن روح الاسلام فحسب ، بل انها في الواقع منقولة حرفيا عن ملف الصراع السياسي المألوف في امبراطوريات الروم والفرس من ابادة جميع افراد البيت المالك الى نبش قبور موتاهم واحراق ما تبقى فيها من عظام . ويروى انهم عندما نبشوا قبر الخليفة هشام في الرصافة ، وجدوا ان جثته لم تكن قد بليت ، فامر العباسيون بجلد الجثة ثمانين جلدة ثم احرقوها . (كان من بين القليلين الذين افلتوا من المجزرة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي تروى حادثة هروبه ونجاحه في تأسيس دولة أموية في الاندلس قصصا اشبه بالاساطير .) .

ابن الاثير جزء ٥ :

« .. فيقال ان ابراهيم الامام
دعى ابا مسلم الخراساني
فقال له انك رجل منا اهل بيت ،
احفظ وصيتي :
انظر الى هذا الحي من اليمن
فالزمهم واسكن بين اظهرهم ،
فان الله لا يتم هذا الأمر
الا بهم .
واتهم ربيعة في امرهم ،
وأما مضر فانهم العدو
القريب الدار .
واقتل من شككت فيه .
واذا استطعت ان لا تدع بخراسان
من يتكلم بالعربية فافعل
وأيما غلام بلغ خمسة أشبار
فاتهمته فاقتله ... » .

العقد الفريد جزء ٢ :

« .. فيقال أن سديف
مولى بني هاشم
دخل عند السفاح
وفي مجلسه
سليمان بن هشام بن عبد الملك ،
وكان السفاح قد آمنه وأكرمه
وامن سائر بني أمية
فانشد سديف قوله :

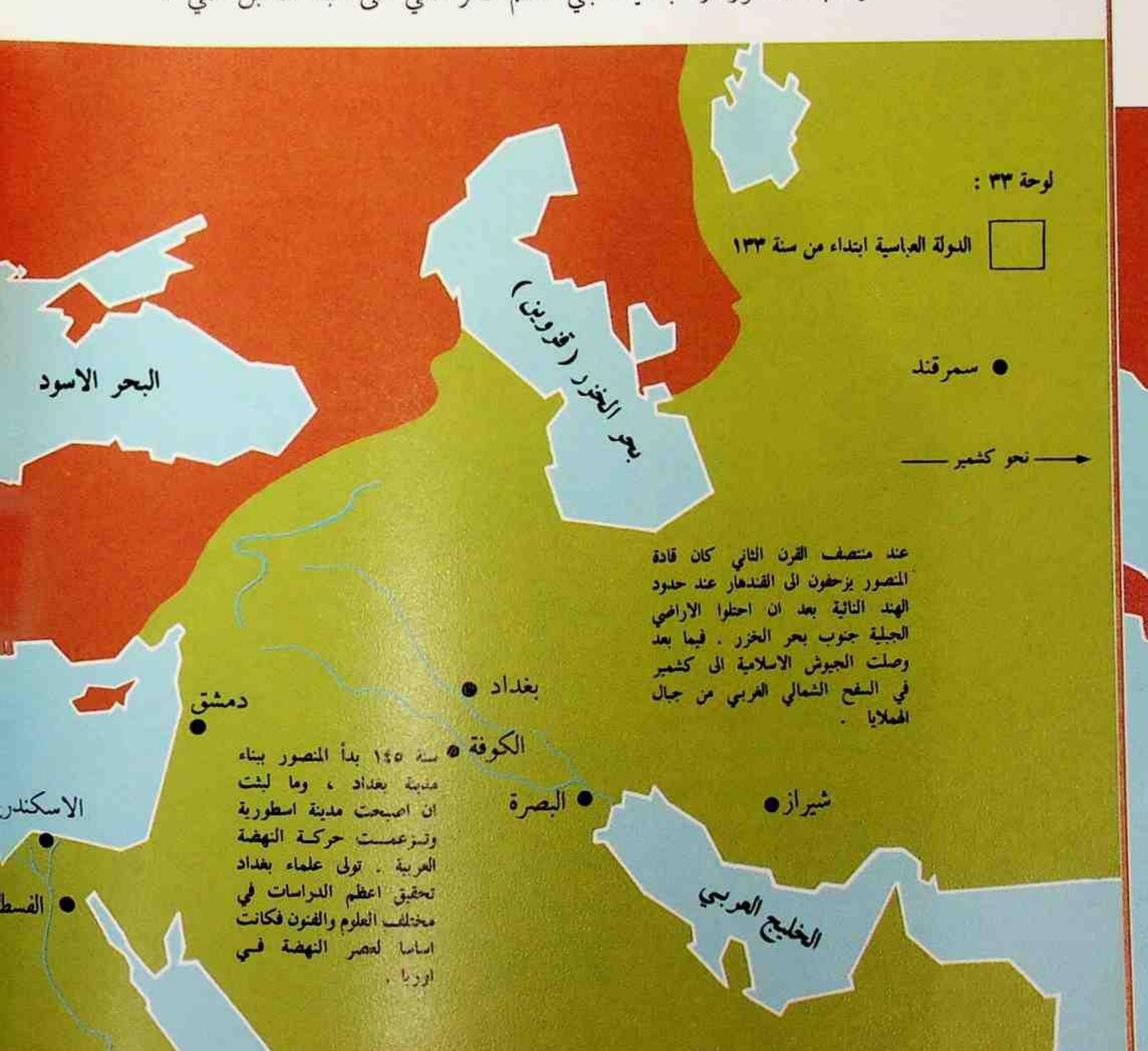
لا يغرنك ما ترى من رجال
ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا

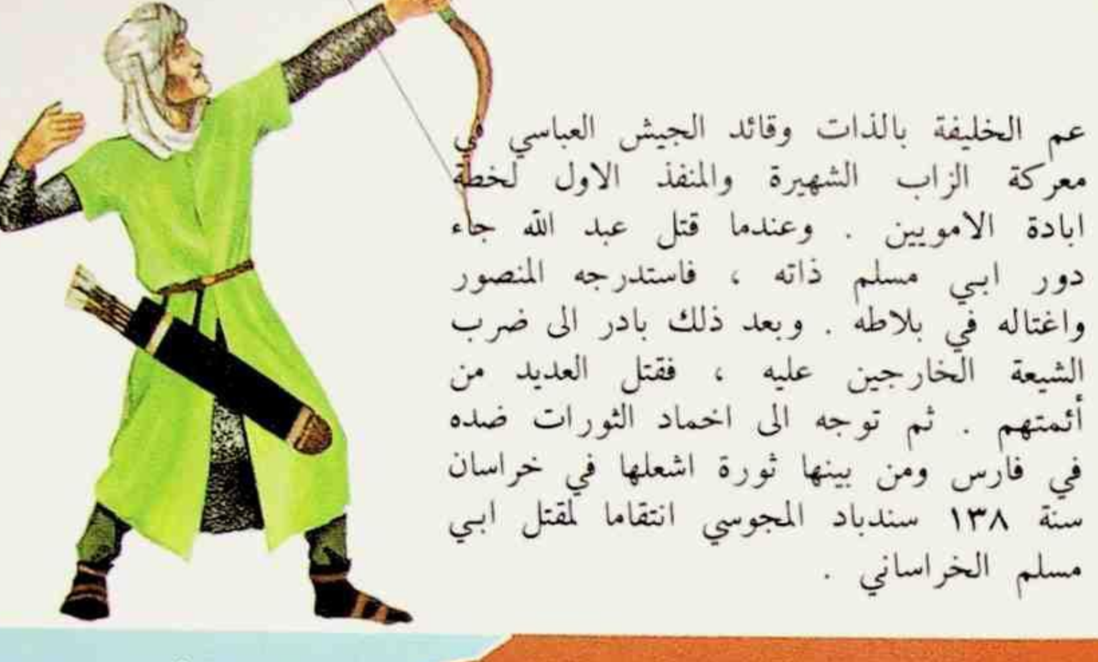
فتأثر السفاح
وأمر بقتل سليمان فقتل ... » .

عصر التأسيس :

بعد أن استتب الأمر للعباسيين لم يعد السفاح يطمئن الى بقائه في الكوفة ـ معقل الشيعة ـ فقرر الانتقال منها الى الانبار واتخذها مقرا له سماه الهاشمية (نسبة الى هاشم جد العباسيين) . وعند وفاته بوباء الجدري سنة ١٣٧ باشر خلفه ابو جعفر الملقب بالمنصور تصفية الاعوان الذين قامت الخلافة العباسية على اكتافهم :

وقد بدأ المنصور اولا بتسليط ابي مسلم الخراساني على عبد الله بن علي ،





عم الخليفة بالذات وقائد الجيش العباسي في معركة الزاب الشهيرة والمنفذ الاول لخطة ابادة الامويين . وعندما قتل عبد الله جاء دور ابي مسلم ذاته ، فاستدرجه المنصور واغتاله في بلاطه . وبعد ذلك بادر الى ضرب الشيعة الخارجين عليه ، فقتل العديد من أئمتهم . ثم توجه الى اخماد الثورات ضده في فارس ومن بينها ثورة اشعلها في خراسان سنة ١٣٨ سندباد المجوسي انتقاما لمقتل ابي مسلم الخراساني .

لوحة ٣٤ : رماة السهام .

مع اواخر القرن الثاني كان هارون الرشيد يرسل الهدايا والسفراء الى ملك الفرنجة شارلمان . في ذلك الوقت كان شارلمان الحليف القوي للدولة العباسية ضد امويي الاندلس .

سنة ١٦٦ وجه المهدي حملة على القسطنطينية وسلم قيادتها لابنه هارون الرشيد فاضطرت الملكة ايرين الى طلب الصلح ودفع جزية سنوية بلغت تسعين الف دينار .

في الربع الاخير من القرن الثاني استقل الادارسة عن العباسيين وانشأوا دولتهم في المغرب ، مفتتحين مرحلة تفسخ الخلافة العباسية الى دويلات في الشرق وفي الغرب .

الفرنجة
البلقان
الاندلس
روما
القسطنطينية
تونس
طرابلس
برقة
البحر المتوسط

بعد قيام الدولة الاموية التي تمكن عبد الرحمن الداخل من توطيدها غربا في الاندلس ، شهد القرنان الثالث والرابع تجزؤ الخلافة العباسية الى دويلات اخرى في الشرق : فظهرت الدولة الاخشيدية في مصر سنة ٣٢٨ وارثة حكم ابن طولون فيها ، واستطاع مؤسسها محمد بن طغج ان يضم اليها سورية وفلسطين في فترة لا تتجاوز السنتين . ثم ظهرت في شمالي سوريا الدولة الحمدانية التي اشتهر اميرها سيف الدولة برعايته للشعر والفنون والاداب .

وقد واصل توطيد اركان دولته ، فسيطر على اكثر المناطق الاسلامية ، باستثناء الجزء الغربي من شمال افريقية والاندلس حيث استطاع عبد الرحمن الداخل تأسيس دولة أموية قوية .

اما على جبهة بيزنطة ، التي لم تتوقف المعارك فيها منذ اكثر من نصف قرن ، فقد استأنف المنصور القتال عند الحدود في معارك لم تؤد الى نتائج حاسمة . وفي الشرق وجه حملاته باتجاه المناطق القريبة من الهند ، فتمكنت القوات العربية من الوصول الى كشمير عند سفوح الهملايا . وتعاظمت قوة العباسيين الى درجة انهم ارسلوا حملات تأديبية الى الصين سنة ١٣٩ حيث سحق المنصور الثورة التي نشبت بعد استقالة الامبراطور مينغ هوانغ .

في الوقت نفسه اخذ العباسيون يوجهون اجهزتهم لنشر افكار بين الناس مؤداها ان السلطة يجب ان تبقى الى الابد في ايد عباسية وبموجب حق الهي ، مستغلين في ذلك صلة نسب بعيدة بالرسول صلى الله عليه وسلم . وكان واضحا ان العباسيين يعملون على توطيد نظرية « الحق الملكي المقدس » ، مضيفين الى منهاج الخلافة الملكية عند الامويين منهاجا اكثر تطرفا . فكان المنصور يردد : « انما انا سلطان الله في ارضه » ، مؤكدا على السلطة المعطاة له من السماء . بل بلغ الامر بالعباسيين انهم جعلوا الناس يعتقدون « بأنه متى قتل الخليفة العباسي اختل الكون واحتجبت الشمس وامتنع المطر » .

مدينة السلام :

سنة ١٤٥ بدأ المنصور في بناء بغداد واطلق عليها اسم « مدينة السلام » ، وقد استغرق بناؤها مدة اربع سنوات وبلغت تكاليفها نحو اربعمائة مليون وثمانمائة وثلاثة وثمانين الف درهم . ثم بنى خارج اسوارها قصرا سماه بقصر الخلد ، وعلى بعد قليل منه شيد قصر الرصافة وخصصه للمهدي ولي عهده . وعندما مات المنصور ، وهو في طريقه الى الحج سنة ١٥٩ ، حفرت له مائة قبر بالقرب من مكة ، لكنه دفن في مكان مجهول حتى لا يهتدي عدو الى قبره فيمتهن حرمته .❊

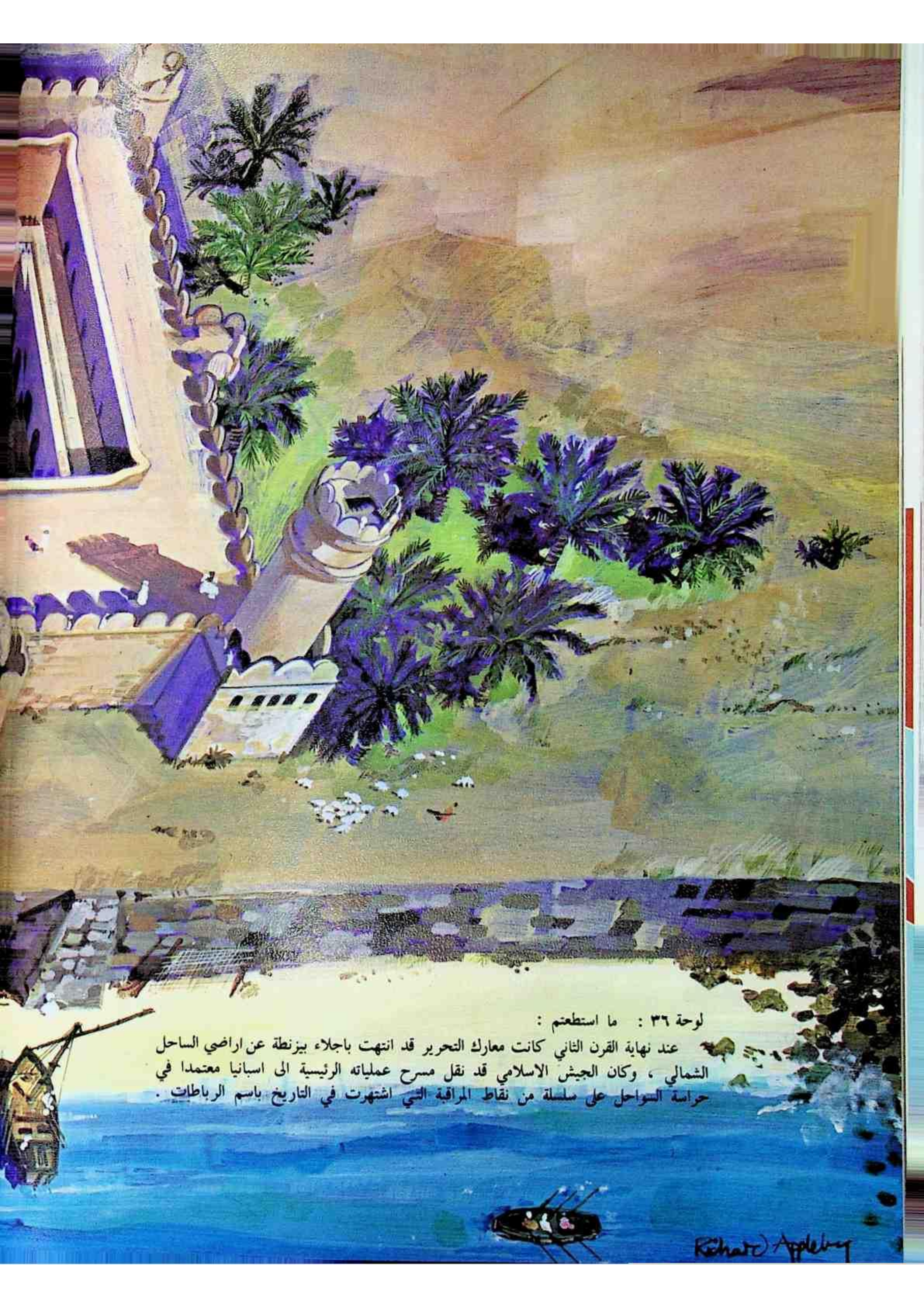
سنة ١٦٦ جرد المهدي حملة كبيرة على القسطنطينية وسلم قيادتها لابنه هارون . وفي ذلك الوقت كانت بيزنطة تحت حكم الامبراطورة ايرين « اول امرأة مطلقة السلطان في تاريخ بيزنطة » . وكانت ظروف الدولة اسوأ من ان تسمح بقبول الصدام المسلح مع قوات العباسيين الضخمة التي كانت ترابط عند مضيق البوسفور وعلى ابواب القسطنطينية في وقت واحد . فاضطرت الامبراطورة للرضوخ ودفع جزية قدرها « سبعون الفا الى تسعين الفا من الدنانير تؤديها قسطين في ابريل ويونيه من كل سنة » . اما هارون ، الذي اظهر

مواهب القيادة في تلك الحملة ، فقد منحه والده لقب « الرشيد » واوصى له بولاية العهد بعد أخيه الاكبر موسى الهادي .

خلافة موسى الهادي لم تستمر سوى سنة واحدة ، ثم جاء هارون الرشيد الذي بهر بهداياه بلاط شارلمان في محاولة لكسب امبراطوريته الناشئة الى جانبه : فمن جهة كان شارلمان يقف في وجه توسع عدو العباسيين الخليفة الاموي في الاندلس ، ومن جهة اخرى كان الخليفة العباسي ـ الحاكم القوي ـ خير حليف لشارلمان ضد الروم اعدائهما المشتركين .

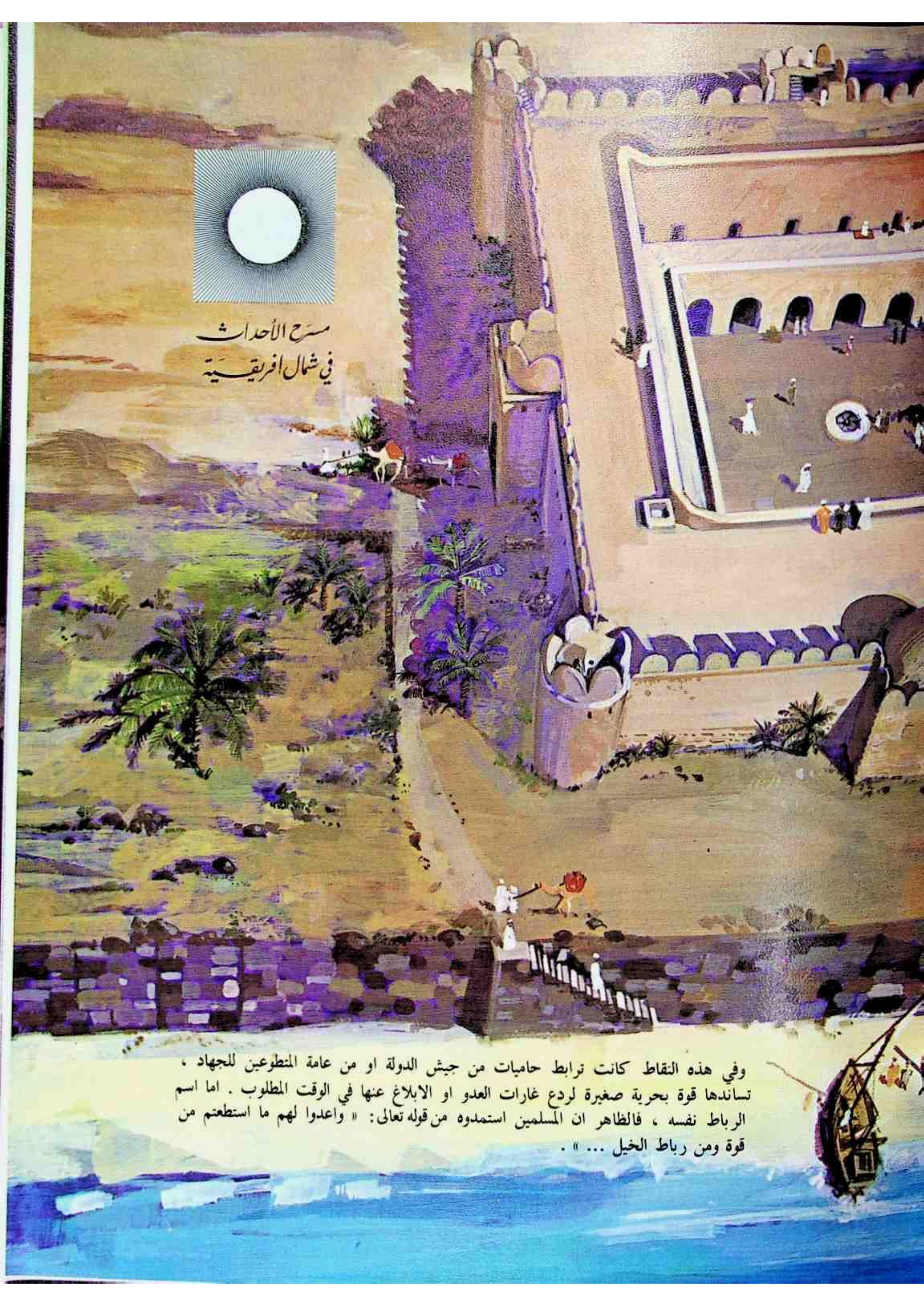
لكن مظاهر القوة المسلحة لم تنقذ الخلافة العباسية من تجزؤ الدولة نفسها ونشوء دويلات في الشرق والغرب . فكان ظهور دولة الادارسة في المغرب بعد منتصف القرن الثاني ايذانا ببدء مرحلة التفسخ التي عانت منها الدولة العباسية حتى منتصف القرن السابع ، حين ظهرت جحافل المغول حول اسوار بغداد .


لوحة ٣٥ : نسيج من فزان



لوحة ٣٦ : ما استطعتم :

عند نهاية القرن الثاني كانت معارك التحرير قد انتهت باجلاء بيزنطة عن اراضي الساحل الشمالي ، وكان الجيش الاسلامي قد نقل مسرح عملياته الرئيسية الى اسبانيا معتمدا في حراسة السواحل على سلسلة من نقاط المراقبة التي اشتهرت في التاريخ باسم الرباطات .



وفي هذه النقاط كانت ترابط حاميات من جيش الدولة او من عامة المتطوعين للجهاد ، تساندها قوة بحرية صغيرة لردع غارات العدو او الابلاغ عنها في الوقت المطلوب . اما اسم الرباط نفسه ، فالظاهر ان المسلمين استمدوه من قوله تعالى: « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... » .

عصر الأمراء

بعد توقف حركة التحرير ، في اواخر القرن الاول ، عند سواحل المحيط الاطلسي وتخوم الاندلس الشمالية ، وفي اوائل عهد الولاة ، مرت ليبيا ، والشمال الافريقي عموما ، في فترة قصيرة من الغموض ـ لعلها فترة هدوء او تحفز ـ لم ينقل عنها التاريخ شيئا يذكر . ثم انتهت هذه الفترة في بدء عشرينات القرن الثاني بانتفاضات شعبية وثورات عارمة كان للخوارج دور كبير في التحريض عليها ، فظهرت في معظم الاوقات تحت شعارات مذهبية . لكن معظم هذه الحركات كانت في حقيقتها تعبيرا عن محاولات لوضع حد لسياسة الولاة المالية المرهقة ولتفردهم في الحكم وتسلطهم الاداري . وقد ادت ، في نهاية الامر ، الى احلال حكم الامراء محل حكم الولاة ، اي الى انتقال السلطة من يد الوالي المرسل من قبل الخليفة الى يد امير يعتبر الولاية دولة وراثية مستقلة ، لكنه يعمل ضمن اطار الدولة الاسلامية ويستمد شرعية حكمه من ولائه للخليفة .

منذ منتصف القرن الاول كان الشمال الافريقي قد شهد تسلل افواج المضطهدين من الكوفة والبصرة ـ ومن بينهم الخوارج ـ واتخاذهم لمناطقه النائية ملاجىء وخلايا اتاحت لهم نشر معتقداتهم الدينية وافكارهم السياسية . فتيسر لهم العمل على تفجير ما كان يغلي في النفوس من شعور بالغبن ، ودفع النقمة المتولدة عن ذلك الشعور الى التعبير عن نفسها في انتفاضات مسلحة موجهة في الدرجة الاولى ـ ورغم كل مظاهرها العقائدية او الطائفية ـ ضد النظام السياسي وحده .

واختار النظام السياسي ان يواجه هذه المعارضة بالرد الذي يلائم ظروفه . فاندفعت اجهزته الاعلامية منذ البداية للتنديد بجميع حركات المعارضة باعتبارها مجرد محاولات للخروج عن وحدة الامة ، حتى اصبحت كلمة « الخوارج » مجرد اداة ارهاب يشهرها النظام في وجه كل من تجرأ على المعارضة ، ويستغلها ببراعة للايحاء بأن الخروج عن سلطة الحاكم هو في الواقع خروج عن الدين نفسه .

لهذا السبب اختلط الطابع السياسي لهذه الحركات بلونها الديني ، وبهتت التمييزات الحادة بينهما حتى لدى المحققين في الامور ، واصبح من الصعب على واضعي التاريخ او دارسيه تعيين الاهداف الخاصة بكل من هذه الحركات بصورة اكيدة .

لقد اطلق تعبير الخوارج ـ تاريخيا ـ على فئة من اشد انصار الامام علي بن ابي طالب ، خرجت عليه بعد قبوله بمبدأ التحكيم بينه وبين معاوية لحل النزاع حول مسألة الخلافة . لكن اكثر من مائتي سنة كانت قد مرت على حادثة التحكيم وفصلت بين ظروفها التاريخية وبين احداث القرنين الثاني والثالث في شمال افريقيا .

فروعهم :

تفرعت عن الخوارج مذاهب عديدة منها في شمال افريقية مذهبان رئيسيان :
ـ الصفرية ، وكانوا قد رفضوا العنف كمبدأ عام ، ولكنهم عادوا ومارسوا العنف بشدة في عملهم السياسي المباشر .
ـ الاباضية ، وتميز خطهم بالاعتدال .

سنة ١٢٢ بلغت الغضبة الشعبية ذروتها ضد الوالي عبيد الله بن الحبحاب . وكان قد اتى الى ولاية افريقية بعد فترة توالى فيها على حكم المنطقة طوال عشرين سنة ولاة اشتهر معظمهم بالتسلط والارهاب ، مثل يزيد بن ابي مسلم ـ تلميذ الحجاج بن يوسف ـ الذي اتبع التقليد البيزنطي مع حرس دار الولاية « بوشم اسم الجندي على راحة يده اليمنى وصنعته كحرسي في راحة يده اليسرى » . اما ابن الحبحاب نفسه فكان لا يقل تعسفا عن اسلافه وحرصا على استرضاء الخليفة « بارسال المزيد من الاموال والسبي » ، معتبرا الولاية مجرد ملك مشاع له ولاعوانه دون ادنى اعتبار لمصالح الناس .

فجأة اندلعت الثورة ، وقادها شخص اسمه لا يخلو من دلالة خاصة : انه يدعى ميسرة الفقير .

من هو ؟

لا تتحدث عنه المصادر باسهاب ، وكل ما نعلمه عن تاريخ نشأته انه كان واحدا من السقائين في مدينة القيروان . ويبدو ان ميسرة كان يستمع هناك ـ لاول مرة ـ الى نقاش غير عادي بين علماء هذه المدينة حول موضوع العدالة في الاسلام والاخاء بين اسرة المؤمنين الواحدة .

في بداية نضاله السياسي توصل ميسرة الى اقناع عشرين رجلا بالذهاب معه الى دمشق وتشكيل وفد لنقل شكوى الناس الى الخليفة شخصيا . ولكنه عاد بطبيعة الحال دون ان يحظى بمشاهدة الخليفة . واختار ان يرد على هذا الاهمال بالاعلان عن نفسه اماما ، وسرعان ما بايعته الجموع وسارت وراءه مفتتحة بذلك مرحلة انتفاضات شعبية شاملة :

من طنجة الى السوس الادنى ، احتل الثوار بقيادة ميسرة المدن والتحصينات العسكرية وبادروا الى اتباع سياسة التصفية الفورية مع الولاة الصغار والمسؤولين الرسميين . لكن تلك الموجة الاولى من الثورة توقفت اثناء زحفها على القيروان ، اذ دارت قربها معركة غامضة اسفرت عن انسحاب ميسرة فجأة دون سبب عسكري واضح ، ولم يقتنع بقية قادته بهذا الانسحاب ، فحملوه ـ شخصيا ـ مسؤولية الهزيمة واتهموه بعدم الكفاءة لقيادتهم ثم بادروا الى اعدامه على الفور .

بعد ذلك اعاد الثوار تجميع صفوفهم بزعامة امام جديد يدعى خالد بن حميد الزناتي . وتمكن احد قادته ، عكاشة بن ايوب ، من السيطرة على ضواحي قابس سنة ١٢٣ . وعندما اراد عكاشة ان يستنهض الليبيين للمساهمة في الثورة ، ارسل اخاه الى ضواحي صبراتة . وبالفعل تجمعت هناك فئات الناقمين وقرروا الزحف الى سوق صبراتة حيث كان عاملها يتولى امامة الصلاة في مسجدها .

تمكن الثوار من محاصرة المسجد . لكن والي طرابلس اسرع الى نجدة صبراتة التي كانت تقع تحت نفوذه المباشر ، واستطاع قمع الثورة على الفور ، ثم راح يطارد اخا عكاشة الذي اضطر الى الهرب والالتحاق بقوات اخيه في قابس .

عكاشة نفسه خاض معاركه الاخيرة قرب القيروان ، وتورط في سلسلة من المواجهات الخاسرة ادت في نهاية الامر الى هزيمته على يد والي افريقية حنظلة بن صفوان في معركة جرت سنة ١٢٤ .

في تلك الاثناء كان حنظلة بن صفوان يرسل احد معاونيه الى المناطق الثائرة في الاندلس ، حيث تمت السيطرة على الثورة في هذه الجبهة ايضا ، واقصي المحرضون ، ومن بينهم عبد الرحمن بن حبيب ، حفيد عقبة بن نافع ، الذي لجأ الى افريقية حيث تمكن من استغلال النقمة الشعبية على حنظلة والي القيروان ، واستقطب حوله الفئات الناقمة ، وفرض على الوالي ان يتنحى له عن ولايته ، ففعل حقنا للدماء .

بعد ثلاث سنوات اضطر مروان الثاني ، آخر الخلفاء الامويين ، الى القبول بشرعية « الانقلاب » الذي قام به عبد الرحمن بن حبيب في ولاية افريقية . فالدولة الاموية نفسها كانت تواجه بدورها ثورة اخرى اكثر تدميرا ، ولم يكن جيش مروان قادرا على حسم الامور حتى في الانحاء القريبة من دمشق ، اذ ان الثورة كانت قد انتشرت من فلسطين الى حمص . اما في فارس والعراق فكان الشيعة قد تحالفوا مع العباسيين واهل خراسان في جبهة امتدت من بخارى في الشرق حتى الحدود القريبة من الشام في الغرب . وتحت هذه الظروف افتتح ابن حبيب حكمه بأن أوعز الى شقيقه الياس بن حبيب والي طرابلس بأن يعتقل عبد الله بن مسعود زعيم الأباضيين فيها ويقتله في محاولة لجس النبض بين حركات المعارضة . وكانت ردة الفعل عنيفة ومفاجئة الى حد جعل عبد الرحمن يعلن تنصله من الجريمة ويلقي تبعتها على شقيقه بعزله من منصب الولاية . لكن هذا الاعتذار الواهن لم يخمد نار الثورة التي ادت الى طرد جيشه من طرابلس . وقد بذل عبد الرحمن جهودا مضنية قبل ان يسترد قواه ، ويتمكن من توجيه الضربة الحاسمة للثورة في معركة قابس ، وهي المعركة التي تقدم بعدها نحو طرابلس ، فاجتاح أسوارها ، وعاقب اهلها عقابا صارما ، وقتل بعض الاسرى وصلب البعض الآخر .

دولة بني حبيب

(١٢٧-١٤٠)

عند عودة الامير ابن حبيب الى القيروان سنة ١٣٢ وصلت انباء تولي بني العباس للخلافة . واستقبل عبد الرحمن هذا الحدث التاريخي باللامبالاة طيلة عهد الخليفة ابي العباس السفاح . ثم عاد فاعلن اعترافه بسلطة الخليفة ابي جعفر المنصور ، آملا ان يكافأه الخليفة على هذا الولاء بجعل ولايته امارة وراثية لاسرة بني حبيب . لكن الخليفة ـ فيما يبدو ـ رفض المساومة ، فاضطر عبد الرحمن الى خلع طاعته واعلان عصيانه عليه في خطبة مثيرة قال فيها : « اني ظننت هذا الخائن (يقصد المنصور) يدعو الى الحق ويقوم به ، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من اقامة العدل ، واني قد خلعته كما خلعت نعلي هذا » ، وقذف بنعله من رجله . ثم امر بتمزيق الرايات العباسية السوداء واحراقها وتعميم كتاب له بخلع المنصور .

لكن عبد الرحمن كان يحفر قبره بيديه ، فلم يلبث افراد اسرته ان انطلقوا فجأة يتنازعون على الحكم في مذبحة عائلية دامية بين الاخوة وابناء الاخوة . فاغتال الياس شقيقه عبد الرحمن اولا قبل ان يغتاله فجأة ابن اخيه حبيب الذي لقي حتفه بدوره على يد منافس آخر من اعمامه .

بزوال هذه الامارة سنة ١٤٠ استعادت الفئات المكبوتة قدرتها على التحرك :

فالفئات الصفرية بادرت الى الاستيلاء على القيروان حيث افتعلت مجزرة كبرى ضد اهلها . والاباضيون في طرابلس بايعوا ابا الخطاب عبد الاعلى اماما لهم ، فلم يلبث ان جمع أنصاره وزحف باتجاه القيروان لوضع حد لاعمال الصفرية .

بعد اشتباك عنيف داخل اسوار المدينة تمكن الاباضيون من ابادة القوة الصفرية وفرض سلطانهم على القيروان . وفي اعقاب هذه المعركة اختار الامام احد كبار مساعديه ، وهو عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، واليا عليها ، جاعلا القيروان تتبع ولاية طرابلس ـ مقر حكمه ـ لأول مرة .

في تلك الاثناء ، كان جيش ابي جعفر المنصور يسير من برقة متجها غربا في مهمة تستهدف القضاء على الحركة الاباضية ووضع حد للتمرد الدائم على سلطة الخلافة في شمال افريقية . لكن المعركة التي دارت عند سرت اسفرت عن انتصار حاسم للاباضية وانسحاب جيش الخليفة الى الشرق .

في السنة التالية توجهت حملة اخرى الى طرابلس ، فخرج ابو الخطاب بنفسه هذه المرة وحقق انتصارا جديدا وارغم الحملة على العودة الى قواعدها الدائمة في مصر .

اذ ذاك عهد المنصور الى والي مصر محمد بن الاشعث شخصيا بقيادة جيش ضم خمسين الف مقاتل وامره بالزحف مجددا على طرابلس بحثا عن قوات ابي الخطاب التي كانت قد اصبحت حينذاك تعاني تنافسا حادا بين عناصرها المتنافرة ، الامر الذي اربك كل حسابات قائدها هذه المرة .

وعندما بلغت القائد العباسي اخبار التفكك في الجيش الاباضي ، قرر التظاهر بالتراجع مسيرة ثلاثة ايام ، بعد ان كان قد دخل مناطق اقليم طرابلس . فاطمأن ابو الخطاب الى هذا « الانسحاب » وفرق رجاله معتبرا المعركة منتهية . واذ ذاك فاجأه الاشعث بالقرب من ثاورغاء في هجوم صاعق اسفر عن مقتل ابي الخطاب وعدد كبير من اصحابه ودخول القوات العباسية طرابلس دون مقاومة سنة ١٤٤ .

وترامت انباء الهزيمة الى عبد الرحمن بن رستم ـ والي ابي الخطاب على القيروان ـ فقرر اخلاء عاصمته والتجأ الى موضع تيهرت ، حيث بنى مدينة ستصبح قريبا عاصمة لدولة اباضية مستقلة ، هي الامارة الرستمية التي استقطبت جميع الاباضيين من المغرب الاوسط الى طرابلس وجبل نفوسة .

بعد عشر سنوات عاد الاباضيون فعقدوا للامام ابي حاتم يعقوب .

وعندما اراد والي طرابلس اعتقاله ، هاجموا المدينة وارغموا الوالي على اخلائها والتراجع حتى قابس . وهناك التفت حول الامام ابي حاتم جموع غفيرة ـ قيل انها بلغت مائة وثلاثين الف رجل ـ فزحف بها على القيروان وضرب حولها حصارا دام سنة كاملة حتى اضطر واليها عمر بن حفص هزارمرد ، لنفاذ المؤن ، الى الخروج منها وشن هجوم اسفر عن مقتله ، مما حمل خليفته في القيروان على طلب الصلح . فاجابه ابو حاتم الى طلبه مقابل خروجه من القيروان مع جيشه وجميع الموظفين العباسيين . فخرجوا ودخلها ابو حاتم واحرق ابوابها وهدم اسوارها .

من بغداد ، رد الخليفة المنصور على الاباضيين بحملة جديدة كبيرة قوامها ستون الف مقاتل بقيادة والي مصر يزيد بن حاتم سنة ١٥٥ .

وقد سارع الامام لملاقاة جيش الخليفة بعد ان ولى على القيروان صاحبه عبد العزيز المعافري . الا ان عبد العزيز ما لبث ان واجه تمردا مفاجئا ارغم الامام الاباضي على العودة الى القيروان والاقتصاص بنفسه من المتمردين . ثم تواردت الانباء بوصول جيش الخليفة الى منطقة سرت ، فتقدم الاباضيون للقائه في معركة تمكنوا في بدايتها من التفوق على العباسيين . لكنهم ارغموا فيما بعد على التراجع الى القرب من طرابلس ، لأن موازين القوى اختلت فجأة بانضمام اعداد كبيرة من المتمردين على الامام الاباضي الى جيش العباسيين ، فكانت النتيجة هزيمة كاملة للاباضيين فروا على اثرها الى جبل نفوسة . وتابع قائد الحملة تعقبهم بنفسه الى هناك ، حيث تمكن من قتل الامام الاباضي ، ثم عاد وسيطر بسهولة على طرابلس وقضى على ما تبقى فيها من قوات اباضية .

دولة بني الأغلب
(١٨٤-٢٩٦)

مرت ولاية افريقية بعد ذلك بفترة هدوء استمرت حوالى عشرين سنة ، حتى بداية ظهور متاعب من نوع جديد لولاة العباسيين . ففي سنة ١٧٨ واجه الفضل بن روح بن حاتم ، والي القيروان ، تمردا قام به الجنود واستولوا فيه على المدينة وقتلوه . على اثر ذلك عم المنطقة اضطراب استمر طيلة سبعة اشهر . فرأى الخليفة هارون الرشيد ان يوجه اليها احد كبار قادته ، هرثمة بن اعين ، واليا على افريقية والمغرب . وعندما وصل الوالي العباسي الى برقة نزل فيها وبعث برسول الى القيروان لمفاوضة المتمردين هناك . ويبدو ان مهمة الرسول قد اثمرت فدخل ابن هرثمة القيروان دون قتال سنة ١٧٩ .

بعد مرور سنتين على ولايته الناجحة ، اعفاه الخليفة الرشيد منها نزولا عند طلبه ، وقلدها محمد بن مقاتل العكي ـ أخا الخليفة بالرضاعة ـ فأساء

التصرف مع الجند والرعية ، واضطر الرشيد لعزله بعد ثلاث سنوات كانت اضطراباتها وثورات الجند فيها قد مهدت السبيل لابراهيم بن الاغلب ، والي الزاب في المغرب الاوسط ، للاستيلاء على القيروان والاستقلال بولاية افريقية سنة ١٨٤ . ويبدو ان الخليفة الرشيد قد رأى في امارة الاغالبة ، المستقلة والموالية معا ، حلا موفقا لمشكلة هذا الجزء من الشمال الافريقي النائي عن مركز الخلافة ، فبادر الى دعم ابراهيم بن الاغلب واضفى على ولايته طابع الشرعية في محاولة واضحة لاحتوائه بدل اخضاعه بالقوة .

هكذا شهدت اواخر القرن الثاني مولد امارة الاغالبة ، تضاف الى الامارات الاخرى الموزعة من اقصى المغرب عند الساحل الاطلسي الى اقصى الشرق من الشمال الافريقي عند حدود مصر : فبالاضافة الى ظهور الدولة الرستمية في تيهرت (١٦٠ ـ ٢٩٦) ، كان ادريس بن عبد الله ايضا ينشئ الدولة الادريسية (١٧٢ ـ ٣٦٤) في مراكش بعد ان تمكن من الافلات من قبضة العباسيين في المدينة والحجاز . والى الشرق ـ في مصر بالذات ـ سيبادر احمد بن طولون الى الاستقلال بولاية مصر عن العباسيين ، معتبرا نفسه احق باموالها من الخليفة في بغداد ، ويؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢).

حدودهم :

ليس معروفا بالتحديد الى اي مدى امتد نفوذ الاغالبة في شمال افريقية ، ولكنهم على اي حال لم يتخطوا حدود اقليم طرابلس شرقا ، بينما سيطروا غربا على افريقية بكاملها وعلى الجزء الشرقي من المغرب الاوسط حتى الزاب . اما برقة فقد ظلت طيلة فترة حكمهم تحت النفوذ المباشر للعباسيين ثم للطولونيين من بعدهم . كذلك فزان في الجنوب ، التي كانت تأثيرات الافكار الاباضية والنفوذ الرستمي تأتي اليها عبر جبل نفوسة ، فلم يكن للاغالبة أي وجود فيها على الاطلاق .



نهاية الأرب للنويري :

« .. قال : ولما كتب هرثمة
الى هارون يسأله الاعفاء
وجه محمد بن مقاتل
أميرا للغرب ،
وكان رضيع هارون ،
فقدم القيروان في شهر رمضان
سنة احدى وثمانين ومائة .
ولم يكن بالمحمود السيرة
وخرج عليه بتونس
تمام بن تميم التميمي ،
وكان عامله عليها ،
فبايعه جماعة من القواد
وأهل الشام وأهل خراسان ،
فخرج في النصف من شهر رمضان
سنة ثلاث وثلاثين ومائة
الى القيروان ،
وخرج اليه ابن العكي فيمن معه
فقاتله قتالا شديدا
في منية الخيل ،
فانهزم ابن العكي ودخل القيروان
وتحصن في دار كان قد بناها
وجلا عن دار الامارة ،
وأقبل تمام ودخل القيروان
في يوم الأربعاء لخمس بقين
من شهر رمضان ،
فأمنه تمام على دمه وماله
على انه يخرج عنه
فخرج تلك الليلة
حتى وصل الى طرابلس ،
فكاتبه بعض اهل خراسان
فنهض ابراهيم بن الأغلب من الزاب
على تمام
غضبا للعكي ... » .

دام حكم الاغالبة في القيروان مدة قرن من الزمن تقريبا ، وقد تفاوتت قدرات امرائهم الذين تعاقبوا بعد ابراهيم بن الاغلب مؤسس الدولة . فبرز منهم زيادة الله الاول فاتح صقلية ، وابراهيم الثاني الذي استشهد مبديا بطولة خارقة في معركة جرت بعد ذلك في صقلية نفسها .

كان ابراهيم بن الاغلب قد احتفظ بالقيروان مركزا للامارة ، ولكنه انشأ على بعد ثلاثة اميال منها قصرا اسمي « بالقصر الابيض » سرعان ما تحولت المنطقة المحيطة به الى مدينة محصنة . ثم جاء ابراهيم الثاني وانشأ مدينة اخرى مشابهة على بعد خمسة اميال من القيروان ، وهي مدينة الرقادة التي اصبحت عاصمة الاغالبة فيما بعد .

في القيروان نفسها ، اهتم الاغالبة بتشييد مسجدها الشهير ، فباشر زيادة الله الاول بناءه فوق المسجد الذي اسسه عقبة بن نافع ابان حملات التحرير الاولى . وفي عهد ابراهيم الثاني اضيف الى المسجد اعمدة الرخام المستخرجة من مدينة قرطاجة القديمة . وتم توسيعه مرتين على الاقل باضافة اجنحة المساجد ودور التعليم اليه في غضون القرن الثالث . وبعد انتشار المذهب المالكي على يد الاغالبة وتسرب اراء المعتزلة الجريئة الى الشمال الافريقي تبوأت القيروان المركز الاهم لحركة الفكر الاسلامي في شمال افريقية ، فحفلت اروقة مساجدها بالمناظرات العلمية والفقهية بين علماء القيروان وبين علماء من الشام والعراق والاندلس .

وقد فرضت ظروف تلك الحقبة ان ينحصر نفوذ الاغالبة في رقعة صغيرة من شمال افريقية ـ في الوسط تماما بين امارات مستقلة اخرى في الشرق وفي الغرب ـ فكان لا بد من ان يتوسعوا عبر المتوسط ، فانشأوا قوة بحرية ما لبثت ان اصبحت اسطولا ضخما حملهم باتجاه سواحل ايطاليا الجنوبية ومكنهم من اجتياح شواطئ فرنسا

الحلة السيراء لابن الابار :

« .. وقرأت في تاريخ
أبي اسحاق ابراهيم بن القاسم
المعروف بالرقيق
ان المعتضد
كتب الى ابراهيم من العراق :
ان لم تترك أخلاقك في سفك الدماء
فأسلم البلاد الى ابن عمك
محمد بن زيادة الله
صاحب طرابلس ،
فخرج ابراهيم الى طرابلس خفية
وأظهر انه يريد الخروج الى مصر
حيلة منه
الى أن ظفر به فقتله وصلبه ،
وكان بين خروجه ورجوعه
خمسة عشر يوما ...».

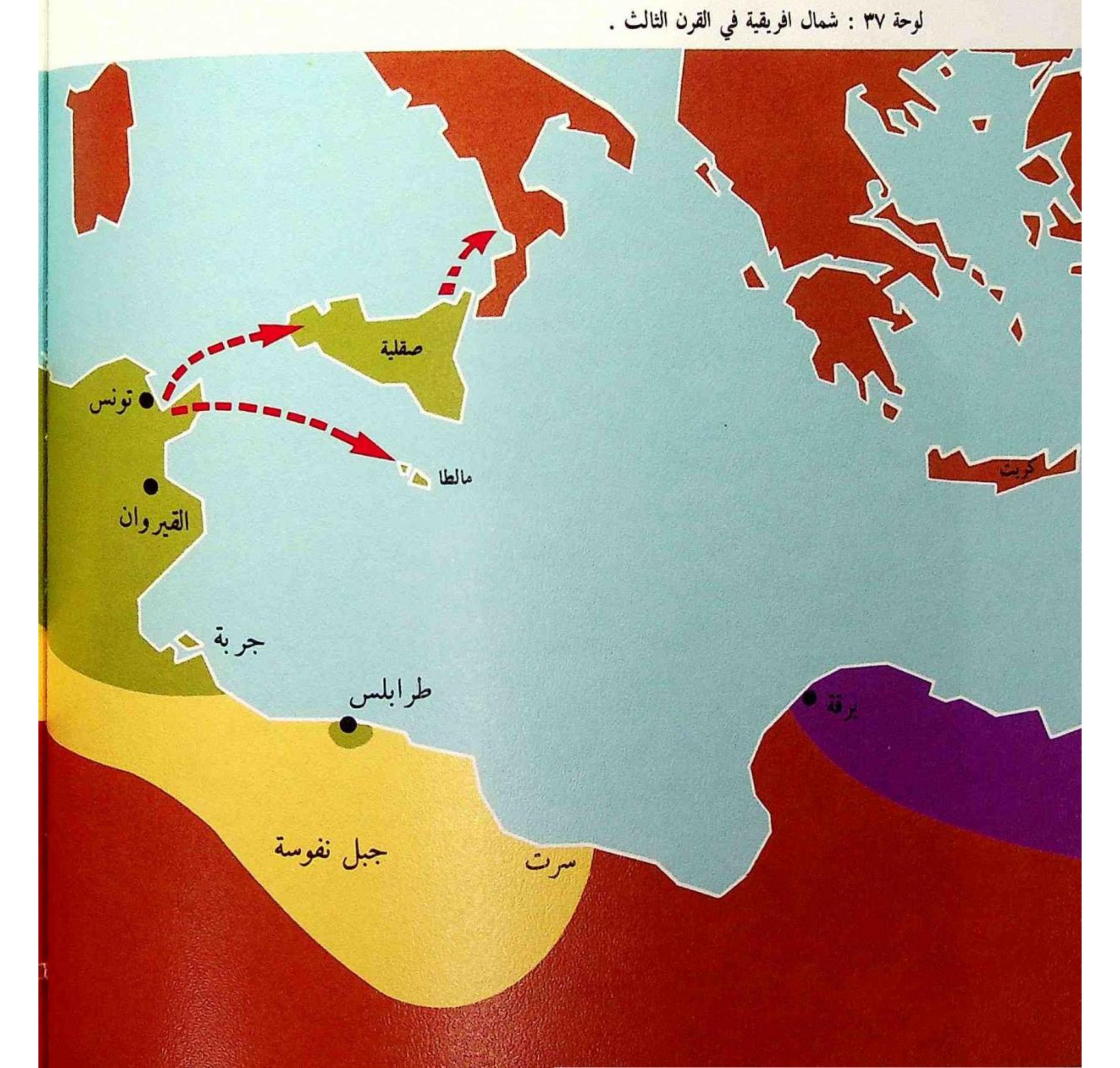
الحلة السيراء لابن الابار :

« .. عبد الله بن الصائغ
المعروف بصاحب البريد :
أحد ولاة زيادة الله بن عبد الله
آخر ملوك بني الأغلب
وأصحابه المخصوصين
بلطف المنزلة عنده ،
وتغير عليه اخيرا
فقتله بطرابلس عند انتقاض دولته
وهربه الى مصر أمام الشيعي
في سنة ست وتسعين ومائتين ... » .

وكورسيكا وسردينيا . وفي وقت لاحق تمكن زيادة الله الاول من النزول في صقلية وأراضي السواحل الايطالية المجاورة ، في موجة بدت شديدة الشبه بموجة الهجوم الاولى التي شهدت امجاد قرطاجة في بداية عصر الصراع البحري خلال القرن السابع قبل الميلاد .

هذا العمل العسكري الباهر حققه الاغالبة ـ كما حققته قرطاجة من قبلهم ـ بفضل فرق المتطوعين من الجنود الافريقيين الذين قاموا دائما بعبء الحرب على هذا الجانب من البحر المتوسط . لكن الاغالبة ـ مثل قرطاجة ايضا ـ فشلوا في ادراك هذه الحقيقة الهامة ، وعمدوا الى استبدال الجنود المتطوعين بفرق من الحرس الخاص ما لبثت ان اصبحت ـ مثل فرق الحرس الامبراطوري في عصر الرومان ـ مجرد خلايا للمؤامرات والدسائس داخل

لوحة ٣٧ : شمال افريقية في القرن الثالث .

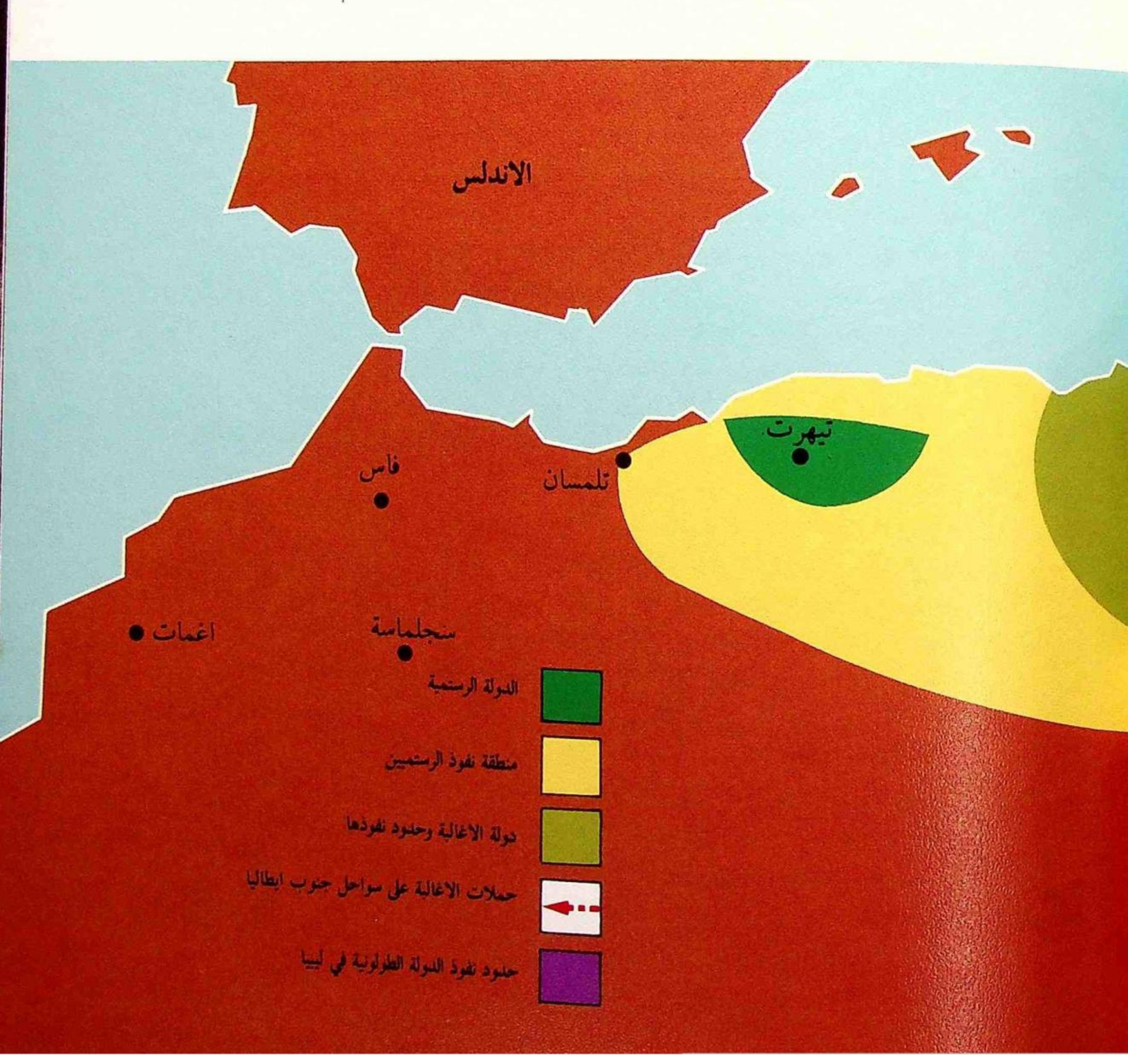


مقر الحكم .

وقد اندثر الجيش الاصلي .

واقفرت الحدود من المجاهدين ، فدفع الاغالبة ثمن هذه الغلطة فادحا ، عندما اجتاح الفاطميون حدودهم المفتوحة ، ولم يجد رجال الحرس الخاص ثمة ما يفعلونه حيالهم سوى ان يحملوا الامير ويهربوا به الى صقلية .

لقد اثبتت الظروف ان تقسيم شمال افريقية الى رقع صغيرة موزعة بين الامراء فكرة خيالية غير قابلة للتنفيذ في ارض الواقع . فالمنطقة الواسعة التي تملك الصحراء الكبرى بمثابة عمق تعبوي لا يمكن الاحتفاظ بها حقا الا تحت راية دولة واحدة ، وفيما عدا ذلك فان كل تقسيم آخر من شأنه



ان يقود الى صراع مسلح غير قابل للحسم العسكري في مساحات الصحراء المترامية . ولعل نجاح الفاطميين في اكتساح امارات شمال افريقية سنة ٢٩٦ وتوحيد المنطقة تحت راية واحدة ، دليل واضح على هذه الحقيقة . لكن الدليل الاكثر وضوحا ان الامارات نفسها ظلت مشتبكة في حروب اهلية ضارية على جميع جبهات شمال افريقية اكثر من مائة سنة دون ان تتمكن احداها من حسم الموقف عسكريا لصالحها .

دولة بني رستم

(١٦٠-٢٩٦)

في طرابلس تصاعد الصدام المسلح بين امارة بني رستم وبين امارة بني الاغلب حتى تقدم الرستميون سنة ١٩٧ بقوات ضخمة لضرب الحصار حول المدينة . لكن الاغالبة تمكنوا من الدفاع عن انفسهم بنجاح ، مما دعا في نهاية المطاف الى رغبة الطرفين في استبدال الحرب بالمفاوضات . وقد تم الاتفاق باقتسام طرابلس وضواحيها بين الامارتين : داخل طرابلس للاغالبة وخارج اسوارها حتى سرت للرستميين . بناء على هذا الاتفاق اصبحت المنطقة الممتدة من سرت في الشرق حتى جبال مطماطة ودمر في الغرب تابعة للدولة الرستمية .

في جبل نفوسة طلب الاباضيون من صاحب تيهرت ان يعين عليهم واليا من عنده في بادرة ارادوا من ورائها تثبيت الوحدة السياسية بعد الوحدة الدينية بينهم وبين الدولة الرستمية ..

وقد تسلم السمح بن الخطاب امامة جبل نفوسة ، واستمرت العلاقات الودية مع الرستميين طيلة عهده . لكن عند وفاته سنة ٢٠٥ نشب النزاع بين اباضيي الجبل حول خلافته ، ولم يتمكن الامير الرستمي عبد الوهاب من حسم هذه القضية ، فاستمر الصراع المسلح اكثر من عشرين سنة حتى تمكن ابن عبد الوهاب ، بعد وفاة والده ، من وضع المنطقة تحت حراسة عسكرية دائمة .

سنة ٢٠٨ توفي عبد الوهاب واجتمع رأي الأباضية على تنصيب ابنه افلح ، لكن خلف ابن السمح امام الاباضيين في جبل نفوسة لم يشأ ان يعترف به وتقدم لطرد واليه من الجبل في سلسلة من المعارك التي لم يتمكن الرستميون من حسمها حتى سنة ٢٢١ . وخلال الخمسين عاما التالية كان النزاع ما يزال مستمرا بين افراد البيت المالك ، في معركة طويلة دامية انتهت باكتساح الفاطميين لمدينة تيهرت سنة ٢٩٦ .

الدولة الطولونية

(٢٥٤-٢٩٢)

في مصر كان احمد بن طولون ، نائب الوالي ، يتآمر للاستئثار بالحكم ، والاستقلال بالولاية عن الخليفة العباسي ، وقد ساعده الحظ بوفاة الوالي ووصول ابنه الى الحكم الذي اطلق يده في شؤون الولاية . فضم اليها مدينة الاسكندرية ، وقمع جميع انتفاضات الشيعة ، ومد نفوذه حتى اقليم برقة *.

لكن برقة ثارت في وجهه . وبادر الطولونيون لحصارها من البر والبحر بقيادة لؤلؤ غلام ابن طولون . وعندما فتحت لهم ابوابها ، انزلوا بزعمائها عقوبات تفاوتت بين قطع الايدي والجلد والصلب .

على أثرها كان العباس ، ابن أحمد بن طولون ، يكتب من مصر الى ابراهيم الثاني الأغلبي ويعلمه بأنه قادم لتسلم ولاية افريقية التي ادعى بأن الخليفة العباسي قلده اياها . ويبدو ان ذلك الأمير الصغير كان يحلم احلاما كبيرة مستغلا انشغال والده باخضاع ثورة نشبت في انطاكية .



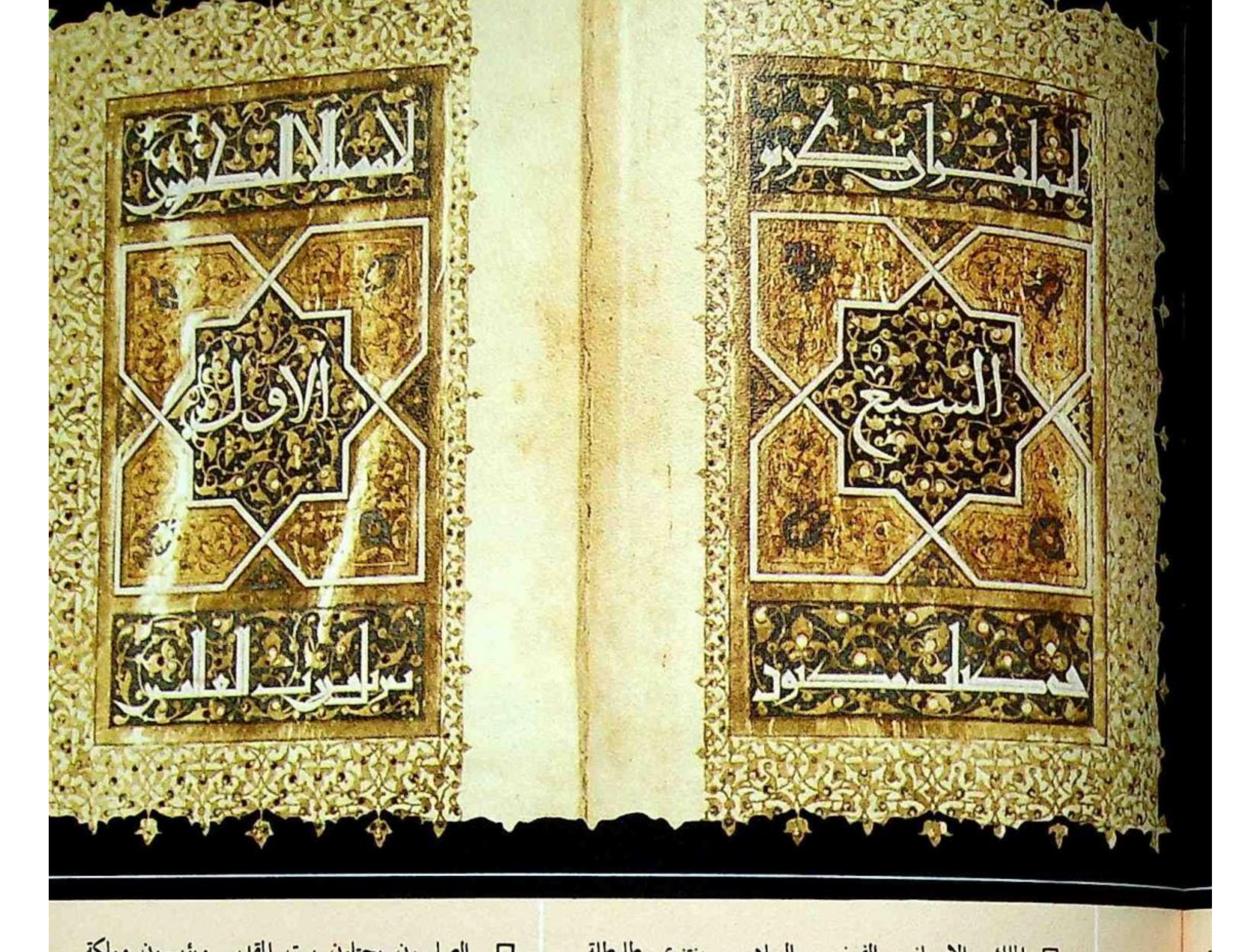
وقد توجه العباس الى برقة سنة ٢٦٦ على رأس ثمانمائة فارس وعشرة آلاف رجل وخمسمائة جمل على ظهرها ثمانمائة حمل من الدنانير الذهبية . ومن برقة سار غربا باتجاه القيروان متوقفا في طريقه اليها عند مدينة لبدة .

وفي البداية رحب به اهل لبدة . لكنه اساء التصرف فثاروا عليه ، مستنجدين بأباضيي جبل نفوسة وبوالي الاغالبة في طرابلس . فاطبق عليه الفريقان معا وارغماه على الفرار الى برقة ، حيث كان جيش والده الغاضب بانتظاره ، فاستسلم اليه بعد مقاومة قصيرة سنة ٢٦٨ .

اما برقة فقد ظلت تابعة للحكم الطولوني حتى انقضائه سنة ٢٩٢ على يد الجيش العباسي الذي استردها للخليفة لفترة قصيرة فقط ، اذ لم يستهل القرن الرابع حتى وقعت تحت حكم الفاطميين سنة ٣٠١ .

لوحة ٣٨ :
مخطوطة
من
القرن الثامن .

حتى ٤٠٥ هـ او ١٠١٤م	□ بداية تفكك الخلافة الاموية في الاندلس بعد وفاة الخليفة المنصور . □ نشوب الحرب بين المانيا وبولندا .	□ تشييد مسجد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله في القاهرة . □ ملوك الطوائف يتقاسمون الاندلس . □ قيام دولة بني حماد في المغرب .
حتى ٤٣٨ هـ او ١٠٤٦م	□ العرب في جزيرة سردينيا . □ الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني يجرد حملة على ارمينيا .	□ اندثار الخلافة الاموية في الاندلس . □ وفاة ابن سينا . □ الاحتفال بتتويج الامبراطور هنري الثالث في روما.
حتى ٤٥٢ هـ او ١٠٦٠م	□ روبير جيسكار يؤسس مملكة نورمانية في جنوب ايطاليا . □ الانشقاق النهائي بين كنيسة روما وبين الكنيسة البيزنطية .	□ السلاجقة يحتلون بغداد . □ قيام دولة المرابطين في شمال افريقية . □ النورمان يغزون صقلية .
حتى ٤٦١ هـ او ١٠٦٨م	□ تأسيس مدينة مراكش . □ السلاجقة يغزون ارمينيا بقيادة الب ارسلان . □ قوات النورمان تحتل انجلترا . □ شي ـ تصونج امبراطورا على الصين .	□ الامبراطور النورماني وليم الاول (الفاتح) يتمكن من سحق الانتفاضات التي قامت ضده في شمالي وغربي انجلترا .
حتى ٤٧٤ هـ او ١٠٨١م	□ السلاجقة يهزمون البيزنطيين في موقعة مانزكرت ويأسرون الامبراطور رومانوس الرابع . □ النورمان يغزون باليرمو . □ السلجوقي ملكشاه يخضع سوريا وفلسطين .	□ البدء في انشاء برج لندن . □ تأسيس دولة ارمنية في كيليكيا . □ ابرام معاهدة تجارية بين بيزنطة والبندقية .



حتى ٥١٧ هـ او ١١٢٣م	☐ الملك الاسباني الفونسو السادس ينتزع طليطلة من العرب . ☐ الحملة الصليبية الاولى على المشرق العربي .	☐ الصليبيون يحتلون بيت المقدس ويؤسسون مملكة لاتينية فيها . ☐ وفاة عمر الخيام .
حتى ٥٤٩ هـ او ١١٥٤م	☐ تجديد المعاهدة التي تمنح رعاية خاصة لمصالح تجار البندقية في الامبراطورية البيزنطية . ☐ تتويج روجر الثاني النورماني في باليرمو بصقلية . ☐ اخفاق الصليبيين امام دمشق في حملتهم الثانية .	☐ قيام دولة الموحدين في المغرب . ☐ نشر كتاب « الجغرافيا » للأدريسي في بالبرمو .
حتى ٥٦٣ هـ او ١١٦٧م	☐ مونيخ تصبح المركز الاول لتجارة الملح في اوربا . ☐ نزاع سياسي في انجلترا بين الملك هنري الثاني وبين توماس بيكت يضطر الاخير للفرار الى فرنسا .	☐ بيزنطة تتحالف مع البندقية ضد الامبراطور الالماني فردريك الاول . ☐ تأسيس جامعة اكسفورد .
حتى ٥٨٣ هـ او ١١٨٧م	☐ اربعة من « الفرسان » النورمان يغتالون توماس بيكت رغم التسوية الرسمية بينه وبين هنري الثاني. ☐ صلاح الدين الايوبي يتولى حكم مصر ثم يضم سوريا اليه بعد خمس سنوات .	☐ تأسيس مدينة بلفاست . ☐ صلاح الدين يهزم القوات الصليبية في موقعة حطين ويدخل بيت المقدس .
حتى ٥٩٧ هـ او ١٢٠٠م	☐ الصين تصدر الشاي الى اليابان لاول مرة . ☐ وفاة صلاح الدين الايوبي . ☐ مقتل ريكاردس قلب الاسد خلال معركة جرت في فرنسا .	☐ تأسيس جامعة كمبردج ☐ احصائية تشير الى وجود ستين الف تاجر ايطالي يعملون في القسطنطينية .

ان يقود الى صراع مسلح غير قابل للحسم العسكري في مساحات الصحراء المترامية . ولعل نجاح الفاطميين في اكتساح امارات شمال افريقية سنة ٢٩٦ وتوحيد المنطقة تحت راية واحدة ، دليل واضح على هذه الحقيقة . لكن الدليل الاكثر وضوحا ان الامارات نفسها ظلت مشتبكة في حروب اهلية ضارية على جميع جبهات شمال افريقية اكثر من مائة سنة دون ان تتمكن احداها من حسم الموقف عسكريا لصالحها .

دولة بني رستم

(١٦٠-٢٩٦)

في طرابلس تصاعد الصدام المسلح بين امارة بني رستم وبين امارة بني الاغلب حتى تقدم الرستميون سنة ١٩٧ بقوات ضخمة لضرب الحصار حول المدينة . لكن الاغالبة تمكنوا من الدفاع عن انفسهم بنجاح ، مما دعا في نهاية المطاف الى رغبة الطرفين في استبدال الحرب بالمفاوضات . وقد تم الاتفاق باقتسام طرابلس وضواحيها بين الامارتين : داخل طرابلس للاغالبة وخارج اسوارها حتى سرت للرستميين . بناء على هذا الاتفاق اصبحت المنطقة الممتدة من سرت في الشرق حتى جبال مطماطة ودمر في الغرب تابعة للدولة الرستمية .

في جبل نفوسة طلب الاباضيون من صاحب تيهرت ان يعين عليهم واليا من عنده في بادرة ارادوا من ورائها تثبيت الوحدة السياسية بعد الوحدة الدينية بينهم وبين الدولة الرستمية ..

وقد تسلم السمح بن الخطاب امامة جبل نفوسة ، واستمرت العلاقات الودية مع الرستميين طيلة عهده . لكن عند وفاته سنة ٢٠٥ نشب النزاع بين اباضيي الجبل حول خلافته ، ولم يتمكن الامير الرستمي عبد الوهاب من حسم هذه القضية ، فاستمر الصراع المسلح اكثر من عشرين سنة حتى تمكن ابن عبد الوهاب ، بعد وفاة والده ، من وضع المنطقة تحت حراسة عسكرية دائمة .

سنة ٢٠٨ توفي عبد الوهاب واجتمع رأي الأباضية على تنصيب ابنه افلح ، لكن خلف ابن السمح امام الاباضيين في جبل نفوسة لم يشأ ان يعترف به وتقدم لطرد واليه من الجبل في سلسلة من المعارك التي لم يتمكن الرستميون من حسمها حتى سنة ٢٢١ . وخلال الخمسين عاما التالية كان النزاع ما يزال مستمرا بين افراد البيت المالك ، في معركة طويلة دامية انتهت باكتساح الفاطميين لمدينة تيهرت سنة ٢٩٦ .

الدولة الطولونية

(٢٥٤-٢٩٢)

في مصر كان احمد بن طولون ، نائب الوالي ، يتآمر للاستئثار بالحكم ، والاستقلال بالولاية عن الخليفة العباسي ، وقد ساعده الحظ بوفاة الوالي ووصول ابنه الى الحكم الذي اطلق يده في شؤون الولاية . فضم اليها مدينة الاسكندرية ، وقمع جميع انتفاضات الشيعة ، ومد نفوذه حتى اقليم برقة *.

لكن برقة ثارت في وجهه . وبادر الطولونيون لحصارها من البر والبحر بقيادة لؤلؤ غلام ابن طولون . وعندما فتحت لهم ابوابها ، انزلوا بزعمائها عقوبات تفاوتت بين قطع الايدي والجلد والصلب .

على أثرها كان العباس ، ابن أحمد بن طولون ، يكتب من مصر الى ابراهيم الثاني الأغلبي ويعلمه بأنه قادم لتسلم ولاية افريقية التي ادعى بأن الخليفة العباسي قلده اياها . ويبدو ان ذلك الأمير الصغير كان يحلم احلاما كبيرة مستغلا انشغال والده باخضاع ثورة نشبت في انطاكية .



وقد توجه العباس الى برقة سنة ٢٦٦ على رأس ثمانمائة فارس وعشرة آلاف رجل وخمسمائة جمل على ظهرها ثمانمائة حمل من الدنانير الذهبية . ومن برقة سار غربا باتجاه القيروان متوقفا في طريقه اليها عند مدينة لبدة .

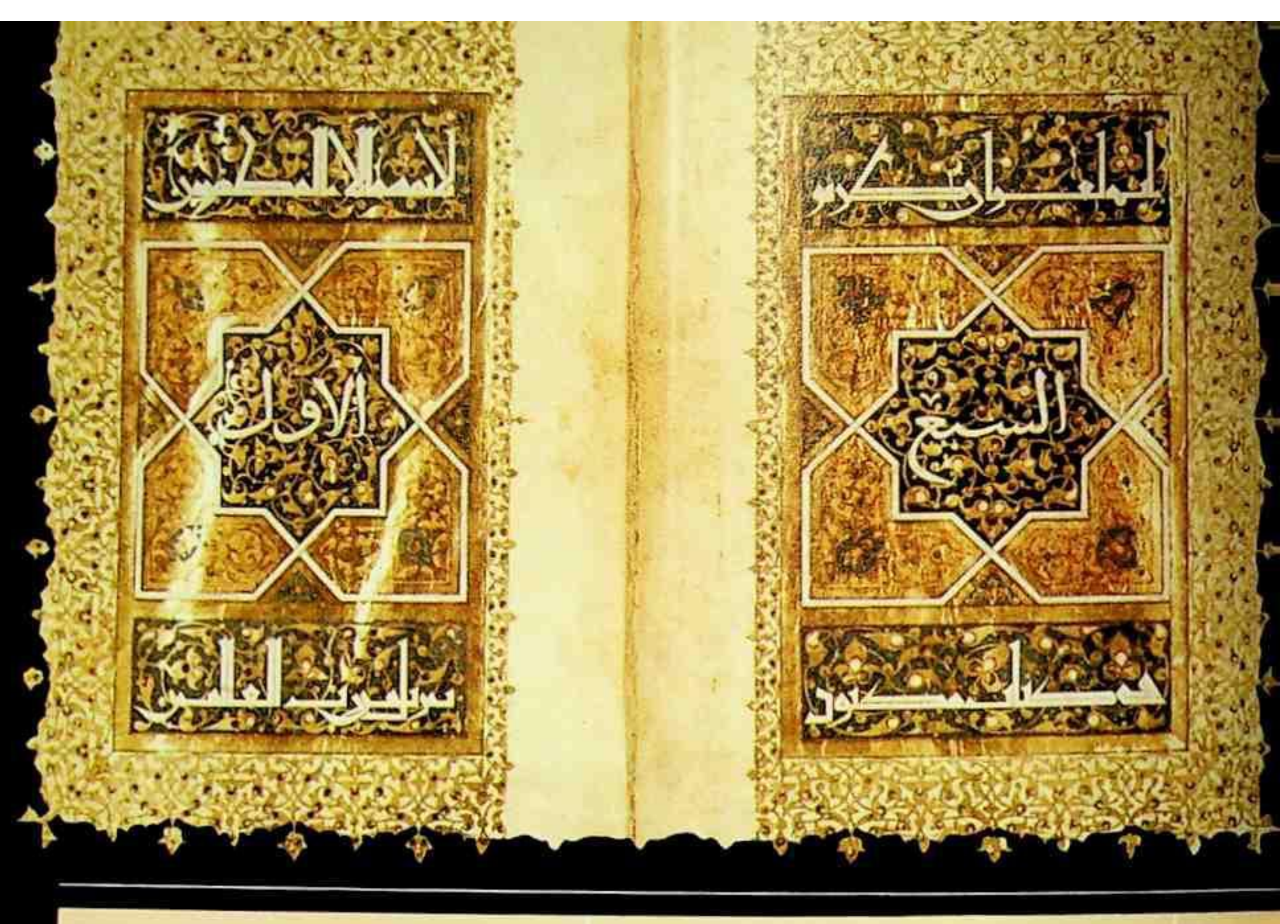
وفي البداية رحب به اهل لبدة . لكنه اساء التصرف فثاروا عليه ، مستنجدين بأباضيي جبل نفوسة وبوالي الاغالبة في طرابلس . فاطبق عليه الفريقان معا وارغماه على الفرار الى برقة ، حيث كان جيش والده الغاضب بانتظاره ، فاستسلم اليه بعد مقاومة قصيرة سنة ٢٦٨ .

اما برقة فقد ظلت تابعة للحكم الطولوني حتى انقضائه سنة ٢٩٢ على يد الجيش العباسي الذي استردها للخليفة لفترة قصيرة فقط ، اذ لم يستهل القرن الرابع حتى وقعت تحت حكم الفاطميين سنة ٣٠١ .

لوحة ٣٨ :
مخطوطة
من
القرن الثامن .

(من سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١م)

حتى ٤٠٥ هـ او ١٠١٤م	□ بداية تفكك الخلافة الاموية في الاندلس بعد وفاة الخليفة المنصور . □ نشوب الحرب بين المانيا وبولندا .	□ تشييد مسجد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله في القاهرة . □ ملوك الطوائف يتقاسمون الاندلس . □ قيام دولة بني حماد في المغرب .
حتى ٤٣٨ هـ او ١٠٤٦م	□ العرب في جزيرة سردينيا . □ الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني يجرد حملة على ارمينيا .	□ اندثار الخلافة الاموية في الاندلس . □ وفاة ابن سينا . □ الاحتفال بتتويج الامبراطور هنري الثالث في روما.
حتى ٤٥٢ هـ او ١٠٦٠م	□ روبير جيسكار يؤسس مملكة نورمانية في جنوب ايطاليا . □ الانشقاق النهائي بين كنيسة روما وبين الكنيسة البيزنطية .	□ السلاجقة يحتلون بغداد . □ قيام دولة المرابطين في شمال افريقية . □ النورمان يغزون صقلية .
حتى ٤٦١ هـ او ١٠٦٨م	□ تأسيس مدينة مراكش . □ السلاجقة يغزون ارمينيا بقيادة الب ارسلان . □ قوات النورمان تحتل انجلترا . □ شي ـ تصونج امبراطورا على الصين .	□ الامبراطور النورماني وليم الاول (الفاتح) يتمكن من سحق الانتفاضات التي قامت ضده في شمالي وغربي انجلترا .
حتى ٤٧٤ هـ او ١٠٨١م	□ السلاجقة يهزمون البيزنطيين في موقعة مانزكرت ويأسرون الامبراطور رومانوس الرابع . □ النورمان يغزون بالبرمو . □ السلجوقي ملكشاه يخضع سوريا وفلسطين .	□ البدء في انشاء برج لندن . □ تأسيس دولة ارمنية في كيليكيا . □ ابرام معاهدة تجارية بين بيزنطة والبندقية .



٥١٧ هـ ١١٢٣م	□ الملك الاسباني الفونسو السادس ينتزع طليطلة من العرب . □ الحملة الصليبية الاولى على المشرق العربي .	□ الصليبيون يحتلون بيت المقدس ويؤسسون مملكة لاتينية فيها . □ وفاة عمر الخيام .
٥٤٩ هـ ١١٥٤م	□ تجديد المعاهدة التي تمنح رعاية خاصة لمصالح تجار البندقية في الامبراطورية البيزنطية . □ تتويج روجر الثاني النورماني في باليرمو بصقلية . □ اخفاق الصليبيين امام دمشق في حملتهم الثانية .	□ قيام دولة الموحدين في المغرب . □ نشر كتاب « الجغرافيا » للأدريسي في باليرمو .
٥٦٣ هـ ١١٦٧م	□ مونيخ تصبح المركز الاول لتجارة الملح في اوربا . □ نزاع سياسي في انجلترا بين الملك هنري الثاني وبين توماس بيكت يضطر الاخير للفرار الى فرنسا .	□ بيزنطة تتحالف مع البندقية ضد الامبراطور الالماني فردريك الاول . □ تأسيس جامعة اكسفورد .
٥٨٣ هـ ١١٨٧م	□ اربعة من « الفرسان » النورمان يغتالون توماس بيكت رغم التسوية الرسمية بينه وبين هنري الثاني. □ صلاح الدين الايوبي يتولى حكم مصر ثم يضم سوريا اليه بعد خمس سنوات .	□ تأسيس مدينة بلفاست . □ صلاح الدين يهزم القوات الصليبية في موقعة حطين ويدخل بيت المقدس .
٥٩٧ هـ ١٢٠٠م	□ الصين تصدر الشاي الى اليابان لاول مرة . □ وفاة صلاح الدين الايوبي . □ مقتل ريكاردس قلب الأسد خلال معركة جرت في فرنسا .	□ تأسيس جامعة كمبردج □ احصائية تشير الى وجود ستين الف تاجر ايطالي يعملون في القسطنطينية .

"إذهبي أنّى ذهبتِ سوف يأتيني خراجكِ".

الرشيد يخاطب غيمة.

سنة ١٩٣ توفي الخليفة هارون الرشيد ، اعظم خلفاء بني العباس ، وأشهر حاكم شهدته القرون الوسطى على الاطلاق . اما نظام الخلافة نفسه فقد كان يواجه ثلاث مشاكل غير قابلة للحل :

الاولى : ان الولاة لم يعودوا مجرد موظفين للخليفة بل اصبحوا امراء

يتوارثون العرش في نظام اسري لا يقل شرعية عن نظام وراثة الخلافة نفسها .

الثانية : ان الصراع على السلطة لم يعد محصورا بين اسرة عربية وبين اسرة عربية اخرى ، بل اصبح صراعا واسعا يضم شعوبا باكملها ، وخاصة في فارس التي تحولت الى شبه عاصمة رسمية لدعاة الشعوبية بالذات .

الثالثة : ان نظام الخلافة الوراثي ، تحت هذه الظروف الخاصة ، اصبح معرضا للخطر في اكثر من موضع واحد . فلم يعد من الضروري ان يخرج الحكم من يد بني العباس لكي يتعرضوا للابادة ، بل صار يكفي ان ينحاز واحد منهم الى جبهات المعارضة المكبوتة لكي يفتح على اقاربه بركانا باكمله . ان الرشيد نفسه يحس بابعاد الكارثة وراء حجب المستقبل ، ويتخطى العرف السائد بتعيين ولي العهد وحده الى تعيين ولي العهد وخليفته ايضا في محاولة اخيرة لاغلاق الباب في وجه العاصفة . لكن الباب انفتح بيسر قبل ان يصل الرشيد الى قبره .

فقد انفجر النزاع بين ولديه الامين والمأمون ، وانحاز احدهما الى الامراء العرب ، وانحاز الآخر الى الامراء الفرس ، وانغمسوا جميعا في صراع مسلح على جبهة عريضة شملت معظم العراق وخراسان ، وانتهت سنة ١٩٦ بحصار بغداد وتهديم منشآتها وأسر الخليفة الامين الذي احتز الجنود الفرس رأسه وبعثوه الى اخيه المأمون في خراسان بمثابة رسالة لا تحتاج الى مترجم . وفي نهاية هذه الحرب الرهيبة كان من الواضح ان الصراع على السلطة قد انتقل من ميدانه المألوف بين الأسرة والأسرة الى ميدانه الجديد بين افراد الاسرة الواحدة ، وان نظام « البيت المالك » كما صممه معاوية قد انهار في الواقع على سكانه :

فكرسي الحكم الذي صعد اليه المأمون فوق جثة أخيه ما لبث ان تحول الى فخ مميت يشبه كرسي الاعدام ، لا يعتليه الخليفة لكي يحكم ، بل ـ فقط ـ لكي يموت . وأسوأ ما في الأمر ان الشرط الوحيد لهذا المصير بالذات أن يكون القتيل دائما هو الخليفة شخصيا ، وان يكون عباسيا من الاسرة الحاكمة . ان الحرب تندلع سرا داخل حجرات البيت المالك .

بعض الخلفاء لقي حتفه على يد اقرب الناس اليه :

قال ابن الاثير : [اول من استبد من النساء الخيزران ام الهادي والرشيد ، وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ، ومن خالفها منهم او اعترضها قتلته . وكانت في ايام زوجها المهدي صاحبة الامر والنهي وهو يطاوعها ، فلما تولى ابنها الهادي ارادت الاستبداد بالامور دونه ، وان تسلك به مسلك ابيه ، فلم يمض اربعة اشهر حتى انثال الناس اليها ، وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك ، وكلمته يوما في امر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا فقالت : « لا بد من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » ، فغضب الهادي وقال : « ويلي على ابن الفاعلة . قد علمت انه صاحبها والله لا اقضيها لك » ، قالت : « اذن والله لا اسألك حاجة » ، قال : « لا ابالي » ، وقامت مغضبة فصاح بها : « مكانك ، والله لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي او خاصتي لاضربن عنقه ولاقبضن ماله . مـا هـذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ؟ إياك وإياك ، لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي » ، فانصرفت وهي لا تعقل .] . الى أن يقول : [فحقدتها عليه حتى اذا علمت انه يريد خلع اخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه فقتلته .] .

عند وفاة الخيزران كانت ثروتها ـ كما ذكرها المسعودي وابن الاثير ـ ١٦٠ مليون درهم ، اي حوالى نصف ميزانية الدولة بأسرها . اما « قبيحة » ام المعتز ـ التي شاركت ايضا في قتل ولدها ـ فقد تركت وراءها ثروة بلغت

مليونين اثنين من الدنانير نقدا بالاضافة الى ما اورده الطبري عن جواهرها الشهيرة ، ومنها « مكوك من الزمرد ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت احمر » مما قدروا ثمنه بحوالى مليونين اخرين من الدنانير.

بعض الخلفاء لقي حتفه على يد خادمه :

ومشكلة الخدم داخل البيت المالك مشكلة غير طارئة على تاريخ الحكم الوراثي . فما دامت السلطة محصورة تحت سقف واحد ، فان كل فرد داخل هذا البيت يرى نفسه ـ عمليا ـ في موقع السلطة . وقد انقاد خدم بني العباس مثل غيرهم وراء هذه الفكرة الخادعة ، وتكدسوا في بيوت الاسرة الحاكمة للمشاركة في الصراع الدائر حول مقعد الخليفة باعداد مثيرة للريبة ، حتى ان الامير المقتدر ـ كما ذكر المسعودي ـ كان قد جمع منهم احد عشر الف خادم قبل ان تؤول اليه الخلافة .

يلفت النظر في فرق الخدم داخـل بيت الخليفة فرقتان :

الاولى فرقة الغلمان الحُجرية ، نسبة الى حجرات البيت . وهؤلاء هم الخصيان الذين يتولون مهام الخدمة داخل جناح الحريم . فنظام الحكم الوراثي يحتاج اساسا الى المحافظة على نقاء نسل الحاكم شخصيا ، وليس ثمة حل عملي لهذه المشكلة بالذات سوى صيانة نسائه داخل غرف الحريم في عهدة حراس غير قادرين على الانجاب . لقد كان من الواضح ان تحويل الخلافة الى نظام وراثي انحراف حاسم عن مبادئ الاسلام الى مبادئ مستوردة من نظم اخرى ، وكانت مصادر التشويه الطارئ بادية لكل العيان : فمنذ ذلك الوقت كان الجاحظ قد قال : « وكل خصاء في الدنيا فان اصله من قبل الروم ... وحسبك بالخصاء مثلة ، وحسبك بصنيع الخاص قسوة » .

الثانية فرقة الغلمان المصافية ، نسبة الى المصائف اي غزوات الصيف . وهؤلاء في الواقع جيش باكمله مجهز خاصة للقتال خارج الحدود ، لكنه لا يعمل داخل نطاق الجيش العام ، ولا يتقاضى اجوره من خزانة الدولة ، بل يموله الخليفة شخصيا ، ويأخذ جميع غنائمه بمثابة مشروع خاص . وفي هذه الفرقة ظهر معظم الخدم الذين عرفتهم حلبات الصراع على السلطة في الدولة الاسلامية . فالغلام بدر ـ خادم المعتضد ـ « تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام » . والغلام بجكم ـ خادم المكتفي ـ « ترقى في المناصب حتى صار امير الامراء » ، اي اكبر موظف في الدولة . وجوهر الصقلي ـ خادم المعز ـ « تولى قيادة الجيش المتجه لغزو مصر ، وودعه اولاد الخليفة واهله ومشوا بين يديه حتى خرج موكبه من المدينة » . وكافور النوبي ـ خادم الاخشيدين ـ وضع يده على عرش مصر وتولى حكمها فعلا سنة ٣٥٥ .

اما الخليفة المقتدر ـ الذي انتقل الى قصر الخلافة على رأس جيش من

الخدم ـ فقد لقي حتفه على يد افضل خادم لديه واقربهم الى قلبه . ذكر المسعودي انه في أيام المقتدر نبغ مؤنس الخادم ، فقدمه ، وكان يستشيره في اموره ، فتصرف مؤنس في شؤون الدولة كما يشاء ، وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيت المال ، واستبد بكل شيء . ثم كانت بينه وبين المقتدر وحشة ادت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، فحملوا رأسه الى مؤنس « فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه ... » .

أغلب الخلفاء لقي حتفه على يد حرسه الخاص :

ومشكلة الحرس الخاص مشكلة بدأت في عصر المأمون الذي احاط نفسه بفرق من الجنود الفرس ، ثم تفاقمت فجأة ، واصبحت معضلة غير قابلة للحل ، عندما خطر لخلفه المعتصم ان يحرر يديه من قيود الجنود الفرس فوضع عنقه ـ وعاصمته ـ تحت سيوف الجنود الاتراك .

قال ابن الاثير :

[فلما افضت الخلافة للمعتصم كان الاتراك عونا له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم ، وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كثيرا ، وربما اردوا الواحد بعد الواحد قتيلا على قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد ، فقام اليه شيخ فقال له : « يا أبا اسحق » ، فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال : « يا شيخ ما لك ؟ » ، قال : « لا جزاك الله عن الجوار خيرا . جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا ». والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ولم يرراكبا الى مثل ذلك اليوم .] .

فماذا فعل الخليفة ؟

لقد بنى لنفسه وحراسه مدينة تخصهم وحدهم في سامراء ، وهو الحل المألوف الذي اختاره الخليفة الفاطمي ببناء مدينة القاهرة ، واختاره الامير الاغلبي ببناء مدينة الرقادة .

عن مدينة المعتصم قال ابن الاثير :

« فخرج فصلى بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكرا لاجناده ، حتى اتى سامراء فاتخذها معسكرا فاعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيها الخطط واقطع اتراكه القطائع على حسب القبائل (التركية) ومجاورتهم في بلادهم » .

وراء اسوار المدينة الخاصة كان الخليفة في الواقع مجرد رجل اسير بين ايدي حراسه ، وكانت هذه الحقيقة مألوفة لدى المواطن العادي الى حد يثير الضحك .

قال الفخري :
[.. لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة » . وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال : « أنا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » ، فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ » ، قال : « مهما اراد الاتراك » . فلم يبق أحد في المجلس الا ضحك .] .

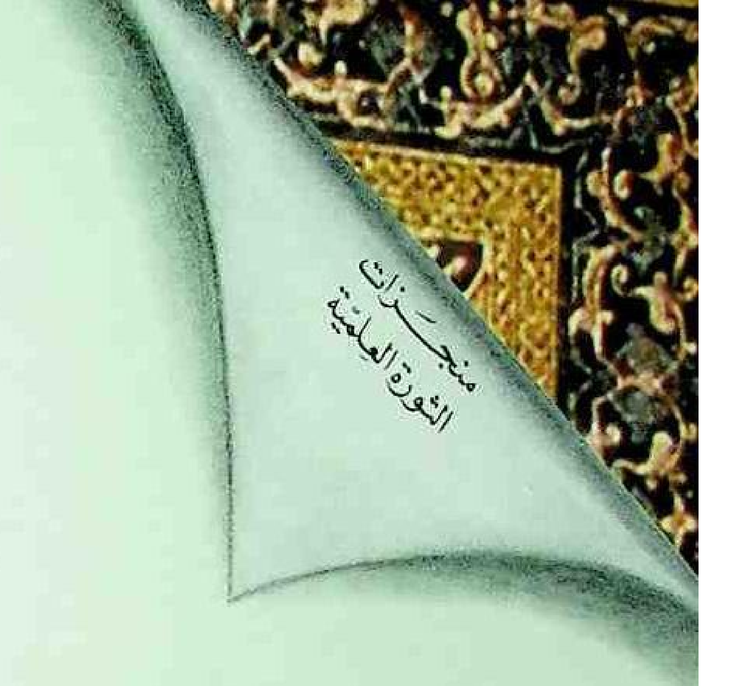
لكن النكتة لم تكن طريفة الى هذا الحد . فقد قام الاتراك فعلا بقتل الخليفة المعتز بعد ان « جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه واقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر ... » . اما الخليفة المكتفي فقد « سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس » ، وعزلوا ابنه المدعو باسم القاهر ، « فكان يشاهد وهو يستعطي في اسواق بغداد لابسا قبقابا خشبيا » .

لوحة ٣٩ : أرقام من دفاتر الخليفة :

طبيب الخليفة		
الراتب السنوي لجبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد كما اورده صاحب طبقات الاطباء ، الجزء الاول		
راتب نقدي من بيت المال العام	١٢٠,٠٠٠	درهم
علاوات	٦٠,٠٠٠	»
راتب نقدي من الخليفة	٥٠,٠٠٠	»
هدية عيد صوم النصارى	٥٠,٠٠٠	»
هدية على يوم الشعانين	١٠,٠٠٠	»
هدية على عيد الفطر نقدا	٥٠,٠٠٠	»
مكافآت على صفد الخليفة	١٠٠,٠٠٠	»
مكافآت على شرب الدواء	١٠٠,٠٠٠	»

ملابس الخليفة	
خزانة المكتفي كما اوردها المقريزي ، الجزء الاول	
٤,٠٠٠,٠٠٠	من قطع الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣,٠٠٠	من الاثواب الخراسانية المروية
٨,٠٠٠	من الملاءات
١٣,٠٠٠	من العمائم المروية
١,٨٠٠	من الحلل الموشاة بالذهب
١٨,٠٠٠	من البطائن التي تحمل من كرمان في انابيب القصب .
١٨,٠٠٠	من الابسطة الارمنية .

حارس الخليفة	
ثروة الامير سيف الدين تنكز التستري كما اوردها ابن خلكان ، الجزء الثاني	
١٩	رطلا من الزمرد والياقوت
١,٢٥٠	حبة لؤلؤ كبارا مدورة
٢٤٠,٠٠٠	مثقال ذهب
١٠,٠٠٠,٠٠٠	درهم فضة
٤	قناطير مصرية من المصاغ والعقود
٦	قناطير فضيات
١,٢٠٠,٠٠٠	دينار

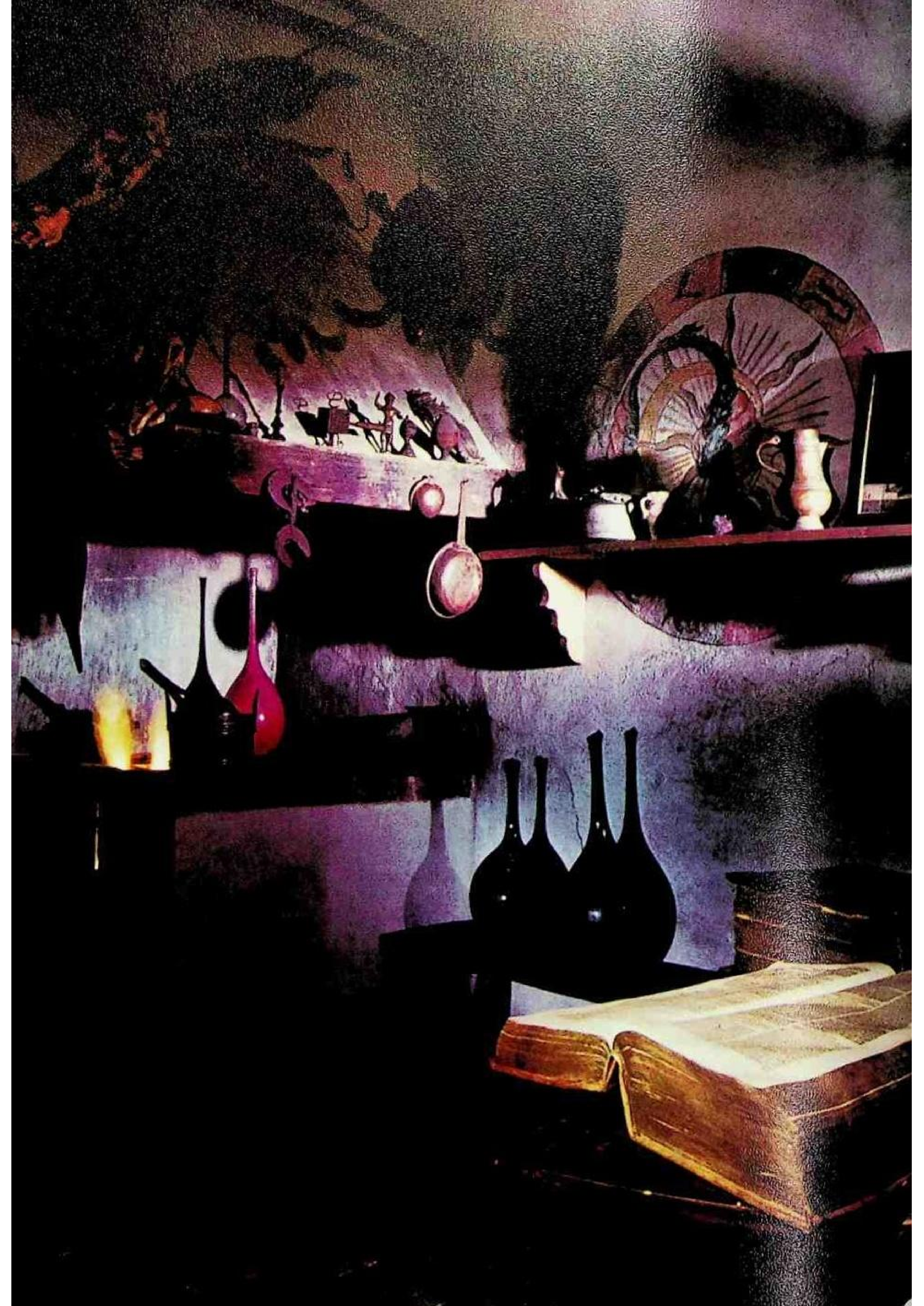


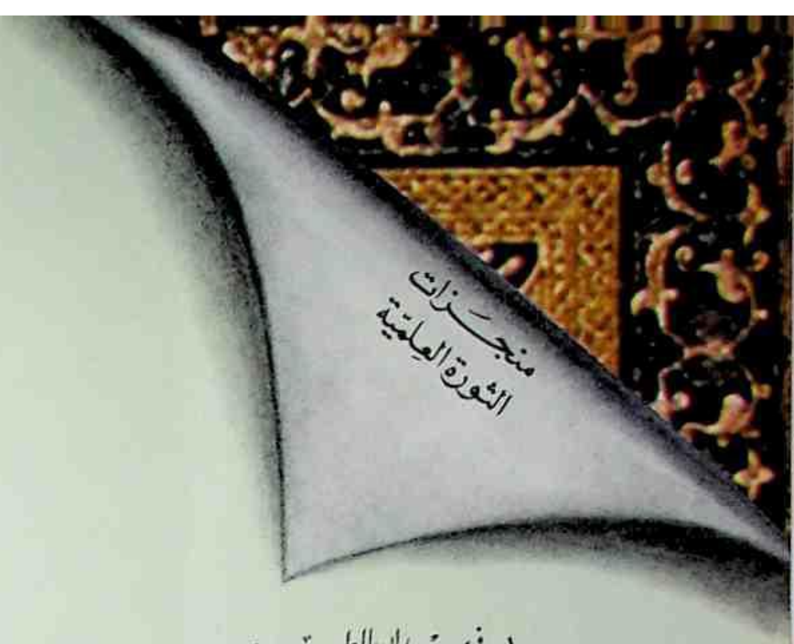
وعلى الجانب الآخر ،
وفي مقابل هذه الصورة الكئيبة داخل
جدران قصر الخليفة ، كانت الصورة زاهية
وبالغة الاثارة في ساحات الحياة العامة . وكان
المأمون بالذات قد ساهم اكثر من سواه في اعداد
المسرح للثورة العلمية الواسعة النطاق التي ختمت تاريخ العصور
القديمة وفتحت الطريق امام مسيرة العلم والحضارة في العصور
الوسطى . ولعل الاحاطة بتفاصيل الحركة العلمية في الدولة
الاسلامية بأسرها عمل يخرج كثيرا عن نطاق هذا
الكتاب ، لكن الاشارة الى منجزاتها الكبرى
على الاقل امر لا بد منه لالقاء الضوء المطلوب
على معالم هذه الثورة الحاسمة.

لوحة ٤٠ : رواد العلم التجريبي :

العرب اول من استخدموا طرق التقطير والتكليس ، ووصفوا بدقة اساليب التبخير والترشيح والتبلور . واليهم يعود الفضل في استحضار الكثير من المركبات الكيماوية وغيرها مما لا يزال يستخدم في عصرنا الحاضر .

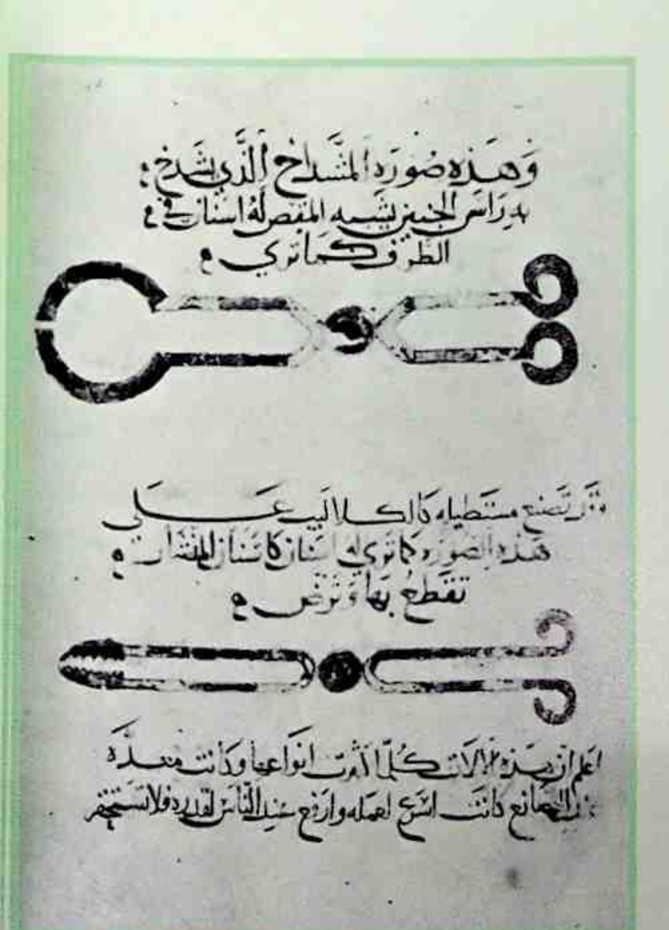
اما تجارب العلماء العرب امثال الرازي وابن حيان فهي التي وضعت الحد الفاصل بين السحر وبين الكيمياء ، وافتتحت طريق العلم الاختباري الحديث في معامل مجهزة بما يحتاج اليه الباحث من مرشحات وقوارير دقيقة وانابيق مفرغة من الهواء .





١- في ميدان الطب :

العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة ، وأول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المصدورين . وقد وصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر ، واستعملوا الافيون على نطاق واسع لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة باسم رد المقاومة الفجائي ، ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قدح العين ، واشاروا الى عملية تفتيت الحصاة ، وهم ايضا اول من استخدم البنج .


وهذه صورة المشداخ الذي يشدخ به رأس الجنين يشبه المقص له أسنان في الطرف كما ترى

... مستطيلة كالكلاليب على هذه الصورة كما ترى لها أسنان كأسنان المنشار تقطع بها وترض

اعلم أن هذه الآلات كلما أكثرت أنواعها وكانت معدة ... الصانع كانت أسرع لعملك وأرفع عند الناس لقدرك ولا تستحقر

وثائق

لوحة ٤١ و ٤٢ و ٤٣ :

- آلات جراحية يظهر حول رسمها شرح لاغراضها ووجوه استعمالها .
- تخطيط للجهاز العصبي.
- تخطيط للهيكل العظمي .

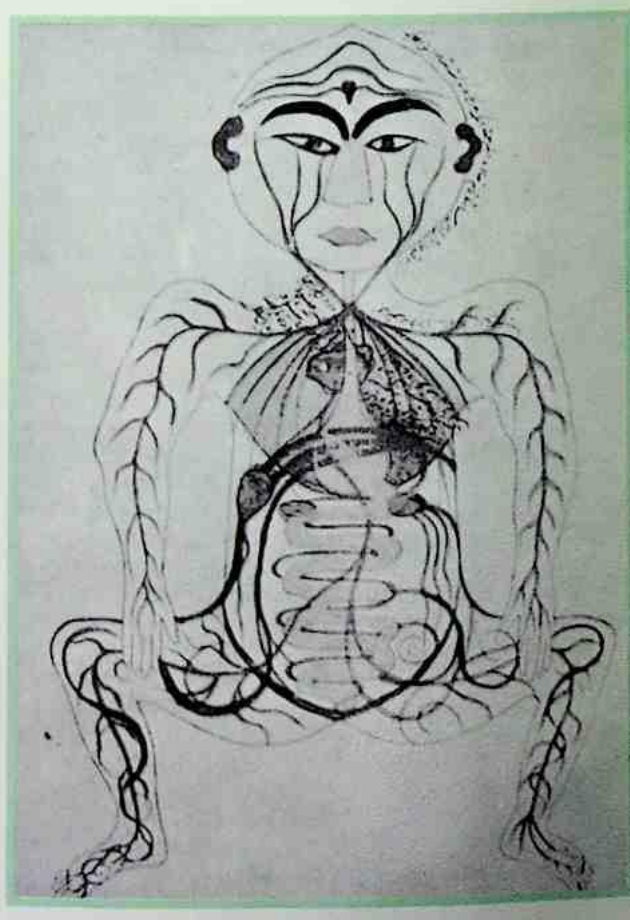
علماء التشريح الاسلامي تناولوا خصوصاً وصف الأجزاء والعناصر التي يتكون منها الجسم البشري ، وأهمها العظام والاعصاب والعضلات ، واعتبروا الجسم البشري مركبا من ٢٤٨ عظمة ووصفوا بعضها وصفاً دقيقاً ، لكنهم عرفوا الاعصاب معرفة وافرة ، بينما بقي علمهم بالعضلات زهيدا .

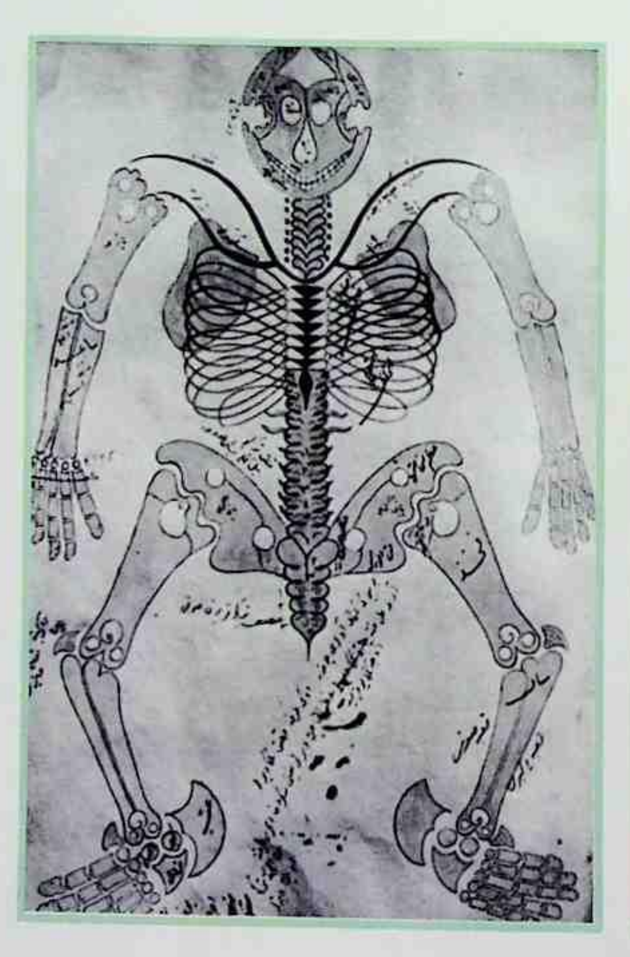
٢ـ في ميدان الكيمياء :

العرب هم مؤسسو علم الكيمياء ، وهم اول من قام بتحضير الادوية والعقاقير في صيدليات متخصصة . وقد اكتشفوا أسس معظم المركبات الكيماوية الحديثة ، واستحضروا منها للمرة الاولى في تاريخ هذا العلم جميع المركبات التالية :

ماء الفضة (حامض النتريك) . زيت الزاج (حامض الكبريتيك) . ماء الذهب (حامض النيتروهيدروكلوريك) . البوتاسا . روح النشادر . ملح النشادر . حجر جهنم (نترات الفضة). السليماني (كلوريد الزئبق) . الراسب الاحمر (اكسيد الزئبق). ملح البارود (نترات البوتاسا). الزاج الاخضر (كبريتات الحديد) . الكحول والقلي والزرنيخ . بالاضافة الى مركبات اخرى لم تصل الينا معادلاتها ، ولم يكتشفها العلم المعاصر ايضا ، مثل مركب غير قابل للاشتعال اشار ابن الاثير الى ان العرب استخدموه في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ وطلوا به سفنهم فلم تعد تحرقها النار .

عن « موسوعة الاسلام »





منجزات الثورة العلمية

٣ـ في ميدان الفلك :

العلماء العرب هم اول من ابطل صناعة التنجيم المقامة على الخرافة والحدس ، وأول من اتجه لدراسة النجوم وحركات الافلاك طبقا للحقائق المستمدة من مراصد متخصصة ومجهزة تجهيزا علميا . وقد عرفوا من آلات الرصد :

١ ـ اللبنة : وهي جسم مربع مستو ، يستعلم به الميل الكلي وابعاد الكواكب وعرض البلد .
٢ ـ الحلقة الاعتدالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدل ، ليعلم بها التحويل الاعتدالي .
٣ ـ ذات الاوتار : هي اربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعتدالية ، ويعلم بها تحويل الميل .
٤ ـ ذات الحلق : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولا . وتركب من حلقة تقوم مقام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقوم مقام المارة بالاقطاب ، تركب احداهما في الاخرى بالتصنيف والتقطيع ، وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى ، تركب الاولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها ، وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى ، ومن حلقة الارض وقطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي .
٥ ـ ذات السمت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح ، يعلم بها السمت وارتفاعه ، وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين .
٦ ـ ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي ، يعلم بها الارتفاع .
٧ ـ ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين .
٨ ـ المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد ، وهي ثلاث مساطر .
٩ ـ الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة ، منها : التام ، والمسطح ، والطوماري ، والهلالي ، والزورقي ، والعقربي ، والآسي ، والقوسي ، والجنوبي ، والشمالي ، والمبطح ، والمسرطق ، وحق القمر ، والمغنى ، والجامعة ، وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ، ولكل شكل تنوعات مما لا يحصيه عد .

عن « كتاب التمدن الاسلامي »



لوحة ٤٤ :
الكرة الفلكية ، وتظهر فيها مواقع الكواكب والنجوم وتقسيمات الفلك كما توصل الى تصورها الفلكيون المسلمون في العصور الغابرة .

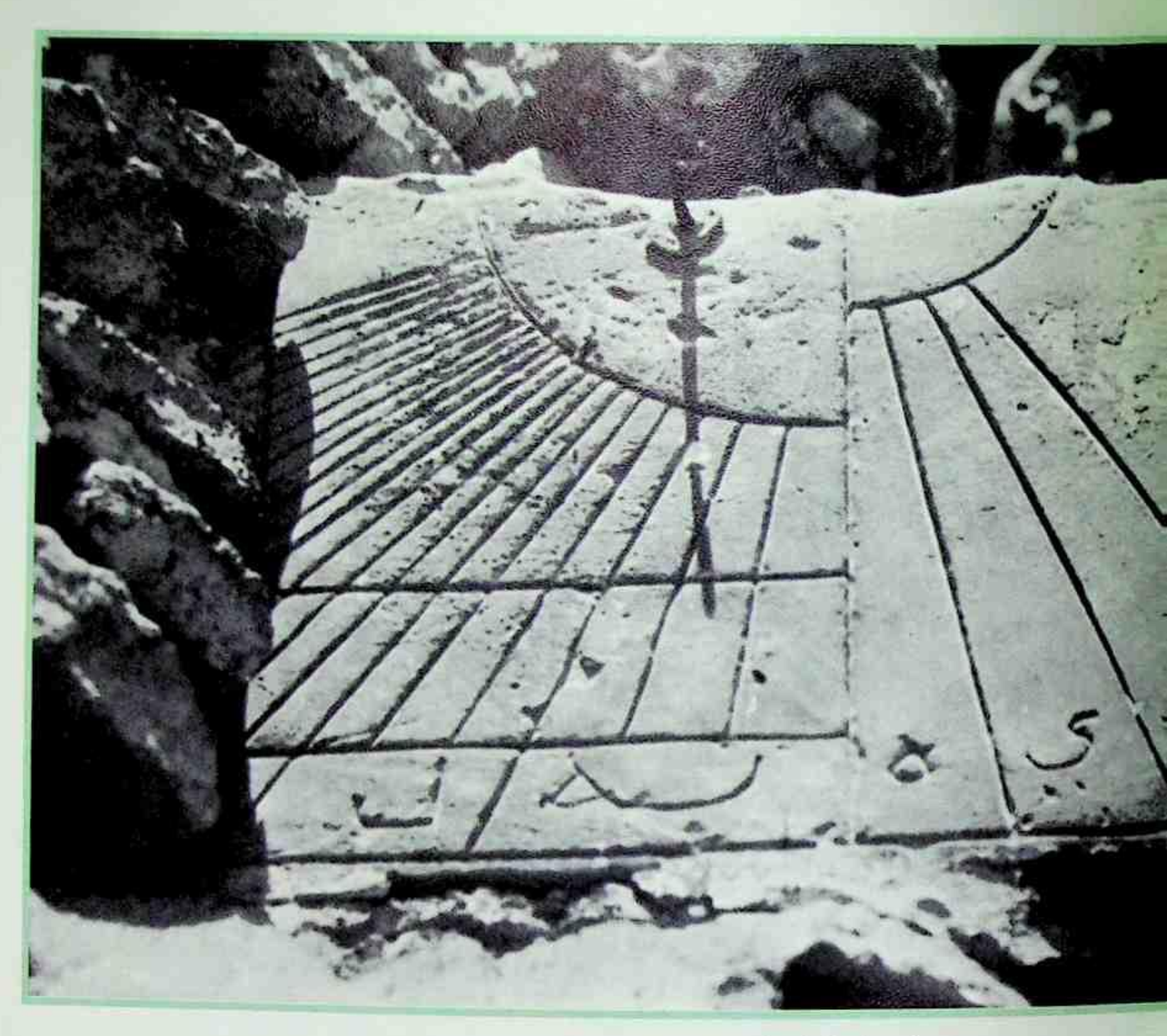
لوحة ٤٥ :
منظر لمرصد الامير جاي سينغ في نيودلهي ، وهو احد المراصد التي بناها هذا الامير في مدن الهند الرئيسية في القرن الثاني عشر .



لوحة ٤٧ :
ساعة شمسية
عثر عليها
في
القاهرة القديمة .

لوحة ٤٦ :

اسطرلاب من صنع سوري ، وهو يختلف في تفاصيله عن الجهاز المعروف في فارس وتركيا . لقد ساعدت هذه الآلة وغيرها البيروني في تحرياته وابحاثه الجغرافية ـ الحسابية ، فمكنته من بلوغ معرفة في هذا الحقل استحقت له لقب مؤسس علم مساحة الارض او الجيوديزيا .



٤ـ في ميدان الرياضيات :

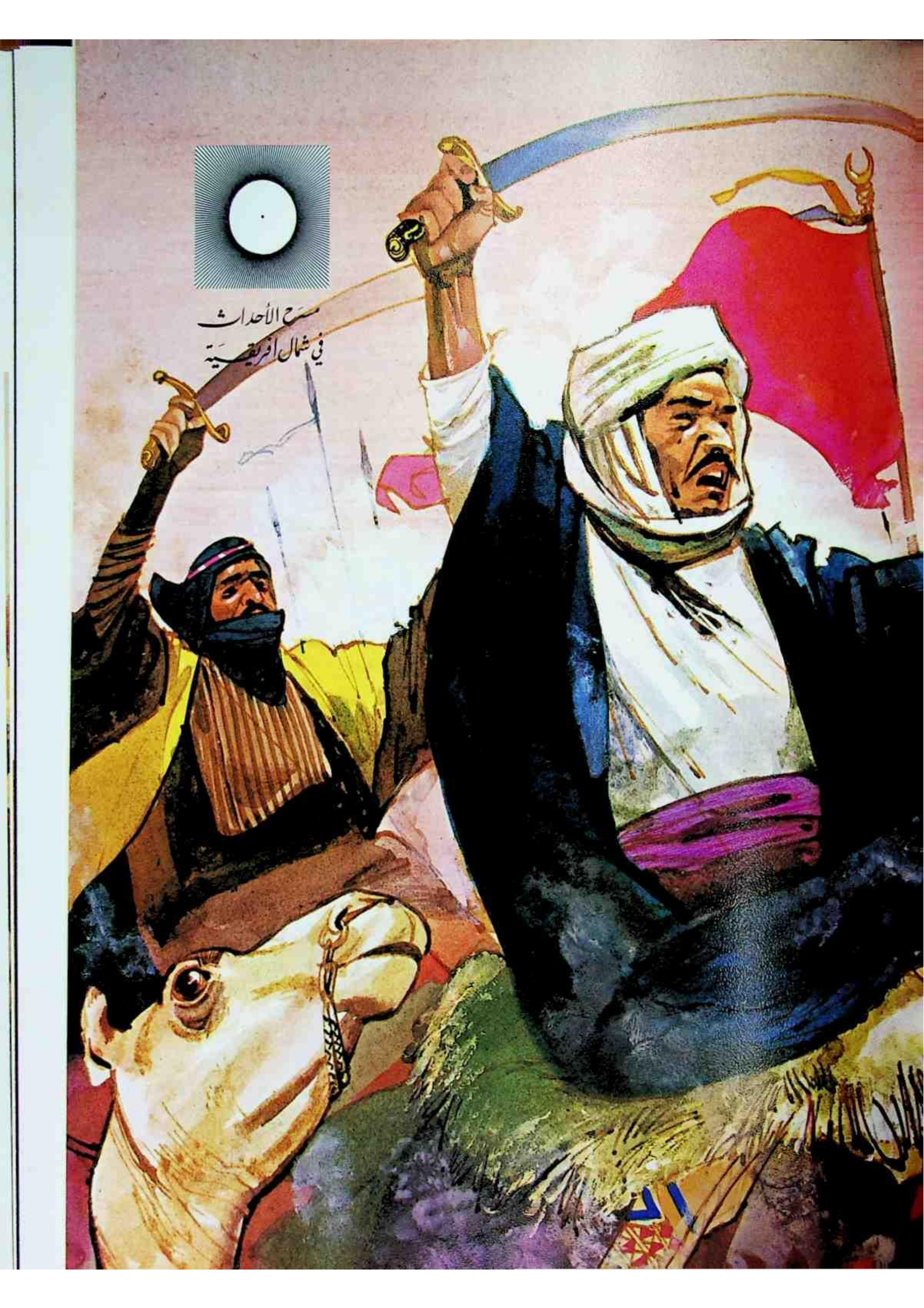
الرياضيون العرب هم الذين ابتكروا الجبر والهندسة التحليلية وعلم المثلثات المسطحة والمستديرة . وقد تمثلت اعظم منجزاتهم في ادخال الارقام التي سمحت بالاستغناء عن تمثيل الاعداد بالفاظ كاملة او بأحرف الابجدية وفي ادخال الصفر . فبفضل هذين التجديدين لم تعد العمليات الحسابية مقتصرة على الاختصاصيين ، بل اصبحت في متناول الناس لخدمة حياتهم اليومية . وقد أطلق العرب على الأرقام العربية اسم الارقام الهندية ، واعطوا تفسيرين لهذه التسمية : فمنهم من قال انها نسبة الى الهندسة ، بينما قال آخرون انها نسبة الى الهند ، لأن اول من شرح استعمال هذه الارقام في قصر الخليفة المنصور عند منتصف القرن الثاني كان عالما هنديا . ومهما كان الامر ، فمن المسلم به ان العرب هم الذين اخترعوا هذه الرموز التي ما تزال تعرف باسمهم .

عن « الموسوعة الموجزة للحضارة العربية »



لوحة ٤٨ : يالثارات الحسين :

سنة ٦١ لم يجد الخليفة يزيد ثمة حلا لمشاكل الصراع حول سدة الخلافة سوى إبادة اسرة الامام علي بن أبي طالب ، وقد استدرج جميع افرادها الى كربلاء ، وذبحهم عن آخرهم ، فيما عدا طفل صغير واحد يبدو ان الجنود لم يفطنوا اليه أو لم يريدوا أن يقتلوه . بعد سبعين عاما بالضبط كان هذا الطفل هو إمام حركة التشيع التي استغلها العباسيون في اكتساح دولة بني أمية وتأسيس دولة جديدة في بغداد بدل دمشق . وبعد مائة وستين عاما اخرى كان هذا الطفل نفسه اماما لحركة التشيع الأخرى التي استغلها الفاطميون في اكتساح ولايات بني العباس في شمال افريقية ، وتأسيس دولة جديدة في القاهرة بدل بغداد .


مسرح الأحداث
في شمال افريقية

الباب الذي فتحه معاوية

ثلاثة خلفاء
وثلاث عواصم

الدور الحاسم في الثورة على بني أمية ، لم يقم به العباسيون بل العلويون الذين تحملوا اعباء الصراع المسلح في مراحله المبكرة ، وخاضوا المعركة الرئيسية ضد جيش الخليفة الاموي ورفعوا ابا العباس الى سدة الخلافة في العراق ، آملين ان ينالوا لديه من الحظوة ما يكفي لتنفيذ برامجهم الدينية والسياسية ، او على الاقل ما يدعو لايقاف حملات الابادة التي كانت دولة بني امية تشنها عليهم منذ عصر معاوية . لكن امالهم العريضة لم تتحقق*:

فقد افتتح الخليفة الجديد عهده بحملة تصفية لقادتهم ودعاتهم ، ثم انطلق يطاردهم بلا هوادة داخل مراكز تجمعاتهم في المشرق ، وبالذات في فارس والعراق .

الاسماعيليون كانوا اكثر طوائف العلويين تعرضا لنقمة الخليفة . وقد نتج عن تعقبه لخلاياهم ومطاردته لرؤسائهم ان اصبح العمل السري لديهم اساس التنظيم نفسه ، واصبح اسم قادته الائمة المستترين .

مجمل دعوتهم ، الالتفاف حول اهل البيت من ذرية علي بن ابي طالب ، وخاصة حول اسرة اسماعيل ، ابن جعفر الصادق ، التي يظهر فيها امام يدعى المهدي ، يؤول اليه الملك ، فيطهر الارض ويملؤها عدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا . اما الجهاد عند الاسماعيليين فهو العمل على تمهيد الطريق لهذا الامام المنتظر بشن الحرب ضد الدولة .

في شمال افريقية :

اتخذ الائمة الاسماعيليون مقرا ومركزا رئيسيا لهم بلدة سلمية ، بالقرب من حمص . وآخر امام منهم اقام فيها مستترا ، عند اواخر القرن الهجري

الثالث ، هو الامام عبيد الله ، الذي انتشر دعاته في جميع انحاء المشرق الاسلامي ، خاصة في بلاد فارس وفي اليمن .*

أحد هؤلاء الدعاة ، واسمه ابو عبد الله الشيعي ، خرج من اليمن متوجها الى الشمال الافريقي لنشر الدعوة فيه بعيدا عن أعين السلطة العباسية . فوصل الى بلاد كتامة ، التي كانت جزءا من الدولة الاغلبية ، وحل فيها ضيفا على قبيلة كتامة سنة ٢٨٩ .

وعندما التف حوله ما يكفي من المناصرين والاتباع ، دعا الى الجهاد ، وأخد ينظم كتامة في شكل حكومة محلية بديوانها وجندها ، كما راح يبشر بظهور المهدي فيها واتخاذه منها وزراءه وحكامه . وقد سهل قبول هذه الدعوة فساد الدولة الاغلبية في اواخر ايامها وانتشار الظلم وتهالك الامراء وحاشياتهم على اللهو والترف .

سنة ٢٩١ افتتح ابو عبد الله الصدام المسلح مع السلطة بالتصدي للاغالبة الموالين للعباسيين ، فاستولى على عدد من مدنهم في الانحاء الغربية ، ثم ارسل الى المهدي الامام عبيد الله بسلمية حمص يدعوه للحضور الى افريقية .

وقد سار المهدي مع ابنه ابي القاسم واتباعه من الشام الى طرابلس حيث مكث بضعة أيام ، تعرف خلالها الى واليها احمد بن عبد الله بن الاغلب ، وقدم له الهدايا والاموال . ثم غادرها قبل ان يصل كتاب الامير الاغلبي زيادة الله الثالث الى الوالي بالقبض عليه . وقرر الوالي – لسبب او لآخر – ان يتركه يتوارى ، معتذرا الى الامير الاغلبي : « بانه قد سار ولم يدركه » .

لكن عبيد الله المهدي كان قد تنبه الى الاخطار المحدقة به ، فانحرف جنوبا في اتجاه الصحراء ثم تابع سيره غربا حتى وصل الى سجلماسة ، عاصمة دولة بني مدرار في المغرب الاقصى ، على عهد آخر امرائها أليسع ، الذي تقبل منه الهدايا وأحسن معاملته حتى وصلته اخبار انتصارات ابي عبد الله الشيعي على الاغالبة ، فقبض عليه وزج به في السجن مع ابنه أبي القاسم واتباعه .

في تلك الاثناء ، كان ابو عبد الله الشيعي قد استولى على القيروان ، بعد ان ارغم زيادة الله الثالث على الهرب من رقادة . فلما بلغه خبر اعتقال المهدي ، استخلف على القيروان اخاه ابا العباس واتجه نحو سجلماسة . وفي الطريق اليها اجتاح دولة الرستميين ، ودخل عاصمتهم تيهرت وولى عليها احد اتباعه ، ثم انطلق الى سجلماسة وحاصرها . ففر واليها أليسع وابناؤه .



حين دخل ابو عبد الله سجلماسة ، قصد على عجل الى دار مريم مدرار ، حيث كان المهدي مسجونا . فلما رآه ، ترجل امامه وقبل الارض بين يديه ، قائلا لمن معه وهو يبكي : « هذا هو مولاي ومولاكم ، قد انجز الله وعده ، واعطاه حقه ، وأظهر أمره » . ثم انتقلوا الى رقادة ، سنة ٢٩٧ ، فاستقبل المهدي فيها الفقهاء والاعيان ، وجدد لهم الأمان قائلا : « انتم آمنون في انفسكم وذراريكم » ، ولم يذكر اموالهم .

اتخذ مقره في قصر الصحن برقادة ، وأصبح لقبه امير المؤمنين ، واقسم له الولاء والطاعة رؤساء القبائل وعلى رأسهم كتامة . ثم اخذ بتنظيم الدولة الجديدة التي سميت بالدولة الفاطمية ، تيمما بفاطمة الزهراء . وقد عرفت ايضا باسم الدولة العبيدية ، نسبة لاسم المهدي عبيد الله ، وباسم الدولة الاسماعيلية ، نسبة لذرية أئمتها . وجعل المهدي من رقادة عاصمة له ، وجمع كل الصلاحيات في يده .

هكذا ظهر الفاطميون . وانتهى عصر وبدأ عصر ، فابيدت امارات الاغالبة والرستميين والادارسة ، وتوحد المغرب الكبير باسره تحت راية دولة واحدة لاول مرة منذ عصر هارون الرشيد . لكن وحدته ـ هذه المرة ـ كانت تتم في ظروف مختلفة ، وكانت موجهة في الدرجة الاولى ضد وحدة الخلافة الاسلامية بالذات .

فالباب الذي فتحه معاوية ، بخلع طاعة الخليفة ومحاربته للاستيلاء على السلطة ، قبل منتصف القرن الاول ، كان ما يزال بابا مفتوحا ، عند نهاية القرن الثالث ، وكان الصراع على السلطة ما يزال يدور عنده يوميا . كل ما في الامر انه اصبح يدور على مستوى الدولة في حروب منظمة واسعة النطاق .



لوحة ٤٩ : مراحل تأسيس دولة الشيعة في شمال افريقية

في بداية القرن الرابع بلغ التمزق مداه عندما تحطمت قاعدة الخلافة الاسلامية تحت الضغط بين ثلاثة مراكز مرة واحدة : خلافة في بغداد ، وخلافة في قرطبة ، واخرى في المهدية ، عاصمة الفاطميين الجديدة في افريقية . ومنذ هذا الوقت وحتى ظهور العثمانيين بعد ستة قرون تقريبا ، كان على المسلمين ان يعايشوا تجربة الانفصال الاولى التي ادت الى تقويض فكرة الامام الواحد والامة الواحدة على ايدي اصحاب المذاهب والمغامرين السياسيين ، وفتحت بذلك باب الصراع المسلح على جبهتين في وقت واحد :

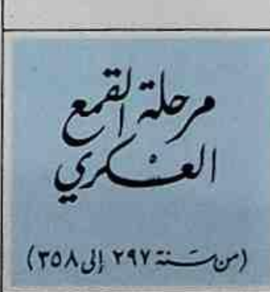
جبهة خارجية تشهد حربا شبه مستمرة بين الدول الاسلامية ، وجبهة داخلية تشهد حربا اخرى داخل الحدود ضد الدولة . ان نجاح الفاطميين في توحيد شمال افريقية لا يغير من ابعاد هذا الواقع الشاذ ، ولا يغلق جبهات الحرب في المنطقة ، بل يعيد فتحها بعنف اكثر في ثلاث مراحل محدودة :

الاولى : مرحلة القمع العسكري المباشر الذي لجأ اليه الفاطميون لتوطيد حكمهم في المغرب ، وظلوا قادرين على تنفيذ التزاماته بنجاح حتى انتقلوا الى مصر .

الثانية : مرحلة الردع بالتهديد غير المباشر ، وهي سياسة لجأ اليها الفاطميون بعد ان استقروا في مصر ، وقصرت يدهم عن الوصول الى المغرب بقوات عسكرية فعالة ، فعمدوا الى تقسيم المنطقة بين ثلاثة امراء ، كل واحد منهم يراقب الآخر لحساب الخليفة الفاطمي .

الثالثة : مرحلة الانتقام ، وهي الفترة التي اكتشف فيها الخليفة الفاطمي ان سياسته في المغرب اخطأت اهدافها تماما ، وان الامراء قد اتفقوا على الثورة ، فلم يجد امامه سوى ان يقذفهم بآخر سلاح في حوزته ، ويفتح الحدود امام القبائل العربية التي تجمعت في مصر خلال موجات الهجرة الدائمة .

ان تفاعل هذه المراحل الثلاث هو تاريخ الفاطميين في شمال افريقية .



من رقادة أرسل الخليفة الفاطمي سنة ٢٩٨ ماكنون بن دبارة واليا على طرابلس ، وهو من قبيلة كتامة ، نصيرة الفاطميين الاولى . فاثار هذا التعيين ابناء القبائل المجاورة لطرابلس ، فولوا عليهم واليا منهم ، هو ابو هارون الهواري ، وهبوا بزعامته زاحفين لحصار طرابلس . فارسل اليهم المهدي حملة تمكنت من فك الحصار وساعدت ماكنون على استعادة زمام السلطة من جديد . لكنه ما لبث ان عاد لممارسة سياسة العنف وتسليط ابناء قبيلة كتامة على الاهلين واعراضهم وعيالهم ، فثاروا مجددا في وجهه سنة ٢٩٩ . وفي هذه المرة استمرت ثورتهم سنة كاملة ، لم يرحموا خلالها من وقع بين ايديهم من بني كتامة ، حتى اضطر ماكنون نفسه الى الهرب .

ورد المهدي على الثورة بتجريد حملتين ضدها : واحدة بحرية قوامها ١٥ سفينة ، وقد تصدت لها قوات المقاومة عندما وصلت الى ميناء طرابلس ، فاحرقتها وقتلت بحارتها . والاخرى برية ، وقد قادها ابن المهدي ابو القاسم

بنفسه ، واجتاح قبائل هوارة ، ثم حاصر طرابلس حتى استسلم اهلها ، ففرض عليهم غرامة مالية كبيرة ، وقتل الاغالبة الذين الصق بهم تهمة تدبير الثورة .

في تلك الاثناء ، كان اسطول صقلي ، بقيادة احمد بن قرهب ، والي صقلية الثائر على الفاطميين ، يغير على سواحل الشمال الافريقي . وبعد ان هاجم صفاقس في افريقية ، وصل الى طرابلس لمهاجمتها ، فتصدى له ابو القاسم وحمى المدينة من غاراته . ثم استخلف عليها واليا ، وعاد الى عاصمته رقادة سنة ٣٠٠ .

في برقة :

في الشطر الشرقي من الشمال الافريقي ، كان الخليفة العباسي قد عاد الى تعيين الولاة على مصر بعد سقوط الدولة الطولونية . فلما وصلت اخبار انتصار الدولة الفاطمية في افريقية الى مسامع الخليفة المقتدر ، طلب من واليه على مصر ، تكين ، التحسب والاحتياط . فأرسل الوالي ابا النمر احمد بن صالح واليا على برقة ودعمه بجيش كبير .

وكانت مخاوف الخليفة في محلها . فقد كان المهدي في ذلك الوقت بالذات يرتاد لنفسه الطريق نحو مصر بالحملة الاولى التي قادها حباسة بن يوسف الكتامي .

مر حباسة في طريقه الى برقة بمدينة سرت ثم اجدابيا ، فدخلهما بالامان بعد ان هرب من كان فيهما من جند بني العباس . سنة ٣٠١ وصل الى برقة ودخلها ايضا من دون قتال ، لكنه عاملها بمثابة مدينة مفتوحة وشرع يضطهد اهلها وينزل بهم شتى انواع التعذيب والتنكيل مما حمل الاهالي على الكتابة الى المهدي يشكونه اليه . فكان جواب المهدي لهم بالاعتذار والتأكيد بأنه لم يكلفه بشيء من هذا . ثم بادر فاصدر اليه امرا بمغادرة برقة والزحف على مصر ، فيما كان ابو القاسم ، ابن المهدي ، يغادر رقادة على رأس جيش كبير آخر ويزحف في الاتجاه نفسه .

في هذه المحاولة الاولى تمكن الفاطميون من الوصول الى الاسكندرية والفيوم ، لكنهم اضطروا لاخلائهما على عجل . وعند عودة ابن المهدي من حملته سنة ٣٠٢ ، مر في طريقه ببرقة ، فاستقبله اهلها بالترحاب ، لكنهم اظهروا السخط عندما استخلف عليهم واليا من كتامة يعاونه جمهور من كتامة ايضا ، ثم ثاروا ، بعد مغادرته مدينتهم ، وقتلوا الوالي ومن معه من اهل كتامة .

وقد رد المهدي ـ كعادته ـ بارسال جيش ، قاده ابو مدين بن فروخ وحاصر به مدينة برقة مدة ثمانية عشر شهرا حتى استسلمت سنة ٣٠٤ ، فدخلها وأحرق قوما من أهلها واحتجز أموالهم وبعث بآخرين الى المهدي فقتلهم . وبقي ابو مدين في برقة مع من أتى معه من أهل الشيعة حتى وفاته سنة ٣٠٦ .

بعد سنتين كان المهدي قد فرغ من بناء مدينة المهدية ، فانتقل اليها لكي يدير منها مملكته الواسعة في افريقية والمغرب وطرابلس وبرقة وصقلية .

في جبل نفوسة :

في جبل نفوسة بذل الاباضيون اول محاولة للخروج عن سلطة الفاطميين سنة ٣١٠ ، وقاد هذه الثورة رجل يكنى « ابو بطة » ، لكن المرجح ان اسمه الحقيقي هو ابو يحيى زكريا .

وقد تمكن الاباضيون في بادىء الامر من التغلب على الجيش الذي ارسله المهدي لقمع حركتهم ، وفتكوا برجاله ، وأرغموا قائده علي بن ابي سليمان ومن نجا معه من جنده على الانسحاب . لكن الموقف تغير فجأة بعد وصول الامدادات من المهدية ، اذ عاد القائد الفاطمي فاقتحم مدينة جادو ، حصن نفوسة ومعقل الاباضية الحقيقي ، وقضى على الثورة نهائيا بعد عام واحد من قيامها .

في الجنوب :

نجحت سياسة القمع العسكري هذه في مناطق طرابلس وبرقة وجبل نفوسة . لكنه لم يتسن للفاطميين ، بسبب البعد الشاسع ، ممارستها في المناطق الداخلية النائية ، حيث انشأ بنو خطاب الهواريون مملكة لهم في زويلة سنة ٣٠٦ دامت حتى سنة ٥٦٨ .

لكن هذه المملكة الصغيرة لم تخل من بعض الارتباط السياسي ، ولو الاسمي ، بالخلفاء الفاطميين وبولاتهم امراء افريقية الصنهاجيين ، كما سترتبط ، بعد زوالهم ، بالمرابطين والموحدين وبني حفص ، دون ان تتخلى عن طابع الاستقلال الذاتي الذي كانت تقتضيه طبيعة الحياة في الصحارى الداخلية النائية عن السواحل .

نظام حكمها الداخلي ـ مثل النظام الذي ساد جبل نفوسة في ذلك الحين ـ دولة قوامها سلطان او حاكم وعدد من الفقهاء يساعدونه . وفي ظل

هذا النظام ، ترعرعت زويلة ، فغدت مدينة كبيرة ، بمسجد وأسواق وحمامات ومنازل ، مع نظام دقيق لمراقبة اللصوص ، وجهاز حراسي حربي محكم يوطد الامن فيها دون الحاجة الى اسوار .

في هذه الحقبة عاشت زويلة عصرا زاهيا من عصور الازدهار التجاري ، وأثرى بنو خطاب من عائدات القوافل التجارية وقوافل الرقيق أثراء تشير اليه الدنانير الذهبية التي عثر على عدد منها مؤخرا في زويلة .

مرحلة التهديد الداخلي

(من سنة ٣٥٨ إلى ٤٤١)

سنة ٣٥٨ خرج جوهر الصقلي قائد قوات الفاطميين قاصدا مصر على رأس جيش تعداده مائة الف مقاتل في محاولة جديدة لانتزاعها من سلطة الاخشيديين وحرمان الخليفة العباسي من قواعده العسكرية في الصعيد والدلتا . وفي هذه المرة نجح جوهر الصقلي في دخول الفسطاط ، وتبعه الخليفة المعز لدين الله بعد ثلاث سنوات لكي يدير دولته من القاهرة ، العاصمة الجديدة التي بناها له جوهر ، ويرتاد لنفسه الطريق نحو بقية اراضي المشرق . لكنه لم يكن قد تخلى عن المغرب او قرر ان ينفض يديه منه .❁

كان يعرف ان قواعد جيشه في مصر قد صارت بعيدة عن المغرب ، وان قدرته على القمع العسكري المباشر قد باتت شبه معدومة ، لكنه كان ما يزال يملك سلاحا فعالا من طراز مختلف ، وكانت جميع الظروف تشجعه على استعماله . انه يقسم شمال افريقية بين ثلاثة امراء لكي يهدد كل واحد منهم بالآخر : بلكين بن زيري الصنهاجي على افريقية ، وعبد الله بن يخلف الكتامي على طرابلس ، ويانس الصقلي على برقة التي كانت حتى ذلك الوقت تدار بمثابة جزء من مصر .

لكن هذه السياسة لم يتسن لها الاستمرار بعد وفاة الخليفة الفاطمي المعز سنة ٣٦٥ وتولي ابنه العزيز للخلافة . فقد سارع بلكين الى الالتماس من الخليفة الجديد ان يلحق طرابلس بولاية افريقية ، واستجاب الخليفة والحق طرابلس وسرت واجدابيا جميعا بولاية افريقية سنة ٣٦٧ . فبادر بلكين وعين على طرابلس واليا من عنده ، ثم عاد فعزله بعد بضعة اشهر ،

وعين مكانه عصولة بن بكار الذي استمرت ولايته على طرابلس حقبة من الزمن امتدت طوال حكم خلفي بلكين التاليين .

سنة ٣٩٠ قرر عصولة الاستعفاء من ولايته . لكنه لم يقدم كتاب الاستقالة الى الامير الصنهاجي بل الى الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله شخصيا . ويبدو ان الخليفة كان راغبا في استرداد طرابلس من الصنهاجيين ، فاوصى الى عصولة بالاستعفاء والقدوم اليه ، وما لبث ان كافأه على الفور بتعيينه واليا على دمشق . وقد ادرك باديس بن المنصور الامير الصنهاجي معنى هذا الاجراء من جانب الفاطميين ، فلم يعترف بالوالي الجديد يونس الصقلي الذي نقله الخليفة من برقة الى طرابلس ، بل بادر الى ارسال حملة زحفت على طرابلس وتمكنت من قتل الوالي الجديد وتشريد جيشه .✲

يونس الصقلي ـ كما يبدو من اسمه ـ واحد من الحراس الصقالبة في بلاط الخليفة ، واختياره لكي يحكم طرابلس تحت هذه الظروف المعقدة يعني بوضوح ان الفاطميين قد فقدوا ثقتهم نهائيا في ولاء اهل البلاد ، وخسروا القاعدة الشعبية العريضة التي اقاموا عليها دولتهم الاولى في المهدية ، فلم يعد امامهم ثمة اجراء اخر يتخذونه لمنع انفصال هذه المنطقة عن الدولة سوى ان يرسل الخليفة حارسا مدربا يديرها له من قلعة الولاية بمثابة شرطي ، ذلك الاجراء المهين الذي بدا منذ اول يوم مجرد تحريض سافر على الانفصال بالذات . وقد وقع الانفصال على صعيدين :

الأول: صعيد سياسي

نجح فلفل بن سعيد في تأسيس دولة زناتية شبه مستقلة دامت حوالى مائة وخمسين عاما . وقد حاول فلفل بالذات ان يستقل عن الخلافة الفاطمية وعن الصنهاجيين معا، وتمكن من تحقيق ذلك في البداية واستطاع ارغام الوالي الذي ارسله الفاطميون الى طرابلس على العودة الى مصر . وعندما حاول الخليفة الفاطمي ان يتخذ اجراء رادعا ضده ، كانت الثورة قد نشبت في برقة وقطعت كل اتصال بين مصر وطرابلس . لكن فلفل ادركه الخوف ، فقرر الاستعانة بحاكم قرطبة الاموي ، فارسل اليه وفدا يعلمه برغبته في الدخول في طاعة الخليفة الاموي ويستأذنه « في ان يضرب الدنانير والدراهم باسمه وان يدعو له على المنابر » . وعند عودة اعضاء الوفد الى طرابلس سنة ٤٠١ ، وجدوها في يد باديس الذي القى القبض عليهم وضرب اعناقهم .

فقد اغتنم الامير الصنهاجي فرصة وفاة فلفل ، خلال غياب الوفد في الاندلس ، وبادر الى مهاجمة طرابلس بقواته ، فلم يقو « وروا » اخو فلفل وخلفه على الدفاع عنها . وعند دخول باديس الى طرابلس استقبله اهلها بالدعاء

والحفاوة ، حتى ان وروا نفسه ارسل اليه طالبا الامان والعفو ، فعفا باديس عنه وعن اتباعه ونصبه واليا على نفزاوة ، مشترطا عليه ان يخرج اليها فورا ، ولا يترك احدا من قومه في طرابلس .

في برقة ظهر ابو ركوة ذو الاصل الغامض ، الذي اشتغل بتعليم القرآن للصبيان واتخذ زي فقير تلازمه ركوة للوضوء على عادة الصوفيين ، لكنه تمكن من توحيد القبائل تحت زعامته ، فاشعل الثورة ضد الفاطميين وتوصل الى القاء الرعب في نفس الخليفة الحاكم بامر الله بعد ان هزم قواته في مصر بالذات .

زعم هذا الرجل انه من سلالة الامويين وان اسمه الوليد بن هشام بن عبد الملك ، وشرع يحرض الناس على الفاطميين ، وتوصل الى ان يتزعم قبيلة بني قرة الهلالية الذين كانوا يحقدون على الخليفة الحاكم « لاسرافه في قتل الناس من جميع الطبقات وقتله من بني قرة واحراقهم بالنار » . ثم استطاع تأليب قبائل لواتة ومزاتة وزناتة فوحدهم مع بني قرة ـ رغم الثارات القديمة بين الفريقين ـ في جيش ما لبث ان هاجم القوات الفاطمية المرابطة في برقة وهزمها .

بعد ذلك بسط ابو ركوة نفوذه على جميع انحاء المنطقة المحيطة ببرقة ، فحكمها متخذا لقب « الثائر بالله » ، واستطاع ان يهزم جيشا من خمسة الاف فارس ارسله الحاكم بامر الله لاخضاعه ، في معركة بدت وكانها تجربة اختبار واقعية لامكانيات الفاطميين العسكرية في حسم اية محاولة عصيان في منطقة بقي الخليفة الفاطمي يصر على اعتبارها تحت نفوذه المباشر .

خطوة ابي ركوة التالية كانت في الزحف على مقر الخلافة في مصر ، حيث كان الخليفة الحاكم يجمع قادته « ويكتب الى الشام ليستدعي العساكر ». وعندما بلغته انباء حشود جيش ابي ركوة اسرع « يفرق الاموال والدواب والسلاح (على الامدادات القادمة من الشام) وسيرهم وهم اثنا عشر الف رجل بين فارس وراجل ، سوى العرب ، واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله ».

نشبت المعركة قرب الاسكندرية سنة ٣٩٦ ، فدار قتال عنيف بين الفريقين خسر الجانبان فيه « قتلى كثيرة ورأى الفضل مع جمع ابي ركوة ما هاله وخاف المناجزة فعاد الى عسكره » . على اثرها جهز الحاكم جيشا جديدا من اربعة الاف فارس « عبروا الى الجيزة ، فسمع ابو ركوة بهم فسار مجدا في عسكره ليوافيهم عند مصر ... وقطع ابو ركوة مسيرة خمس ليال في ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو الف فارس . وخاف اهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره » .

واصل ابو ركوة زحفه حتى بلغ صحراء الفيوم ، فلحق الفضل به بعد ان اعاد تنظيم قواته ، وتمكن هذه المرة من هزيمته واجباره على الفرار الى النوبة ، ثم اغراه بتسليم نفسه للدولة : فحمل الى مصر وطيف به شوارعها وعلى راسه طرطور ، « وجعل خلفه قرد يصفعه كان معلما بذلك ، ثم حمل الى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب فتوفي قبل وصوله فقطع راسه وصلب » .

على اثر هزيمة ابي ركوة اصدر الخليفة الفاطمي قرارا باعطاء برقة الى الامير الصنهاجي باديس في خطوة جديدة اراد بها حصر ادارة جميع المناطق تحت سلطة مركزية واحدة . وكان الصنهاجيون حتى ذلك الوقت لا يزالون يبدون الولاء للفاطميين معتبرين انفسهم الورثة الحقيقيين لهم والقوة الوحيدة القادرة على صد الهجمات المتصلة التي كانت تشنها القبائل على المدن . وبعد وفاة باديس وتولي ابنه المعز كان الامراء الزناتيون قد استرجعوا طرابلس على اية حال ، وذهبت سدى محاولات المعز في انتزاعها منهم ، رغم انه استطاع ان يحصر نفوذهم داخل المدينة فقط دون الضواحي .

الثاني : صعيد عقائدي

المعروف ان المعز بن باديس تربى على يد وزيره ابي الحسن بن ابي الزجال الذي كان يتظاهر باتباع المذهب الفاطمي الشيعي ، الا انه كان يضمر الولاء للسنة والنقمة على الشيعة . فعمل ما بوسعه لنقل عقيدته ومشاعره الى الامير ، ونجح في اقناعه بفساد المذهب الشيعي باكمله . ويبدو ان المعز بدأ يجاهر بما كان يضمره ولكن بحذر وتحفظ ، فأخذ يضطهد الشيعة اضطهادا مقنعا ، منذ سنة ٤٠٩ ، كما يستنتج من اضطرار فريق من الشيعة في ولاية افريقية الى الالتجاء الى صقلية في ذلك العام .

وقابل الخليفة الفاطمي هذا التحدي بمحاولة الاسترضاء وغض النظر ، وذلك للدفاع عن المذهب الشيعي بالنقود واسترضاء المعز بالهدايا والخلع والتشاريف ، حتى انه اضاف لقبا جديدا على القابه ، فسماه : « شرف الدولة وعضدها». لكن هذه الحيلة لم تغير شيئا من موقف الامير الصنهاجي ، الذي بدأ منذ سنة ٤٣٣ يراسل الخلافة العباسية في بغداد ويتودد للخليفة العباسي القائم بامر الله ، ويضيق الخناق علنا على أهل الشيعة ، مما حمل الوزير ببلاط الخليفة المستنصر على مخاطبة المعز « محذرا وهو يراجعه في التعرض لخلفائه والقدح فيهم ، حتى اظلم الجو بينه وبينهم » .

سنة ٤٤٠ امر المعز بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر وبحرق بنوده الخضراء والدعوة على المنابر للخليفة العباسي . وعندما سمع المستنصر

بذلك كتب للمعز متهددا ، فما كان من الامير الصنهاجي الا ان امر هذه المرة بلعن الفاطميين في الخطب وبسبك الدنانير والدراهم المضروبة باسم الفاطميين ، ثم بادر الى تغيير الوان الاعلام الى الالوان العباسية في خطوة اخيرة لنزع اي مظهر ولو شكلي من مظاهر التابعية للفاطميين . وبعد ذلك ارسل مبعوثه الى بغداد لجلب الخلع والالوية السوداء وللحصول على اقرار الخليفة الرسمي لولايته ، متعمدا ان يقطع آخر خيط يربط المغرب الكبير بالخلافة الفاطمية في مصر .

مرحلة الانتقام
(سنة ٤٤٢)

منذ بداية ارتداد المعز عن مذهب الشيعة حتى بلوغه مرحلة الانفصال النهائي عن الفاطميين ، كانت حركة ملاحقة اهل هذا المذهب واضطهادهم وتقتيلهم وحملهم على نبذ التعاليم الاسماعيلية والشيعية آخذة في الاتساع ، حتى انها كانت قد عمت البلاد عند إعلان القطيعة الرسمي . ومن مظاهر تلك الحركة ، التي انتقلت ايضا الى طرابلس ، ان العلامة الفقيه علي بن محمد المنتصر المكنى بأبي الحسن قام بنفسه باعلان الحرب على الشيعة وبتحريض الجماهير عليهم والاشتراك مع الناس في تقتيلهم .❊



وعندما انتقلت الحركة الى برقة ارسل الامير جبارة بن مختار بن القاسم زعيم القبائل في المنطقة الى المعز بن باديس يبايعه بالطاعة ويبشره بأن أهل برقة نبذوا التعاليم الفاطمية واحرقوا المنابر التي كان يدعى عليها للفاطميين ومزقوا راياتهم ولعنوهم ودعوا للخليفة العباسي .

وبذا توحدت المنطقة في تجربة اخرى بعد تجربة الوحدة بين القبائل التي حققتها ثورة ابي ركوة في برقة منذ حوالى خمسين عاما ، فلم يملك الخليفة الفاطمي ازاء فشل سياسته في الابقاء على سلطته في المنطقة سوى ان يطلق سيل القبائل العربية على شمال افريقية ، مختتما آخر مرحلة في الصراع الدامي برسالة مسجوعة كتبها الى المعز بن باديس قال له فيها : « اما بعد ، فقد ارسلنا اليكم خيولا ، وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضي الله امرا كان مفعولا . » .

لوحة ٥٠ :

مخطوطة
على الورق
من
القرن العاشر
الهجري .

حتى ٦٢١ هـ او ١٢٢٤م	□ الصليبيون يحتلون القسطنطينية . □ تأسيس مدينة امستردام في هولندا . □ جنكيزخان يغزو الصين .	□ الفونسو الثاني ملكا على البرتغال . □ جنكيزخان يغزو ايران . □ حرب فرنسية ـ انجليزية تستمر ثلاث سنوات .
حتى ٦٢٧ هـ او ١٢٢٩م	□ لويس التاسع يخلف لويس الثامن على عرش فرنسا . □ وفاة جنكيزخان وتقسيم امبراطوريته بين ابنائه	□ الامبراطور فردريك الثاني يتولى قيادة الحملة الصليبية السادسة . □ ظهور الامارة الحفصية في تونس .
حتى ٦٣٩ هـ او ١٢٤١م	□ قيام دولة بني نصر في غرناطة . □ ملك قشتالة ينتزع قرطبة من العرب . □ المغول يجتاحون روسيا ويحتلون موسكو .	□ المغول يهزمون الالمان في موقعة « ليجنتز » ثم يجتاحون بولندا والمجر ، لكنهم سرعان ما يبادرون الى الانسحاب من اوربا بعد وفاة زعيمهم جغتاي خان .
حتى ٦٧٦ هـ او ١٢٧٧م	□ الجنويون يستولون على رودس . □ حملة صليبية جديدة بقيادة لويس التاسع . □ المغول في بغداد .	□ الرحالة ماركو بولو في حاشية الزعيم المغولي قبلاي خان . □ العالم الانجليزي روجر بيكن يسجن بتهمة الهرطقة .
حتى ٦٨٨ هـ او ١٢٨٩م	□ قبلاي خان يؤسس في الصين حكم اسرة يوان . □ المغول يغزون بورما .	□ عثمان الاول يؤسس الامبراطورية العثمانية . □ انشاء جامعة مونبيلية .



حتى ٧٢٠ هـ ١٣٢٠م	□ المماليك يحررون عكا . □ زوال الامارات الصليبية في الشرق . □ فرسان القديس يوحنا يستوطنون قبرص .	□ عثمان الاول يهزم البيزنطيين في معركة بافيون . □ غرزي خان يؤسس حكم اسرة طوغلاق في دلهي .
حتى ٧٣٨ هـ او ١٣٣٧م	□ الكنيسة الكاثوليكية تطوب توما الاكويني قديسا . □ ايفان الاول يختار موسكو عاصمة له .	□ النزاع على وراثة العرش يؤدي الى حرب اهلية في اليابان . □ نشوب حرب المائة سنة بين فرنسا وانجلترا .
حتى ٧٥٥ هـ و ١٣٥٤م	□ الطاعون أو « الموت الاسود » يفني ثلث سكان انجلترا . □ زوريخ تنضم الى الاتحاد السويسري .	□ ابن بطوطة يصل في رحلاته الى الصحراء الكبرى . □ الاتراك ينتزعون غاليبولي من البيزنطيين .
حتى ٧٧٠ هـ او ١٣٦٨م	□ نشوب ثورة في باريس بزعامة مارسيل وروبر لوكوك . □ سك الفرنك في فرنسا .	□ الاتراك يستولون على ادرنة ويجعلونها عاصمتهم . □ اسرة مينغ في الصين تطيح بأسرة يوان المغولية .
حتى ٨٠٣ هـ او ١٤٠٠م	□ بناء سجن الباستيل في باريس . □ « الانشقاق الكبير » في الكنيسة الكاثوليكية بسبب انتخاب بابا في روما وآخر في افينيون بفرنسا في آن واحد .	□ تيمورلنك يبدأ سلسلة غزواته . □ الاتراك يستولون على صوفيا . □ بايزيد يخضع بلغاريا . □ تيمورلنك يغزو دلهي .

"لقد ضاعت رعيتكم وأنتم..."

الشاعر السلولي يخاطب الخليفة الأموي

روى ابن خلكان ان معاوية لما نصب ابنه يزيد لولاية العهد « اقعده في قبة حمراء ، واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد بولاية العهد حتى جاء رجل ، فسلم على الاثنين ، ثم رجع الى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تول هذا (يقصد يزيد) امور المسلمين لاضعتها . »

في عصر يزيد قال عبد الله بن هشام السلولي بشأن ضياع امور المسلمين :

غشانا الغيظ حتى لو شربنا
دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وانتم
تصيدون الارانب غافلينا

بعد خمسة قرون اخرى كان نظام وراثة العرش قد أضاع أمور المسلمين واراضيهم على حد سواء ، وكان الصراع على السلطة بين الأسر يضفي على

الدولة بأسرها صورة خرافية من صور الرعب والتمزق :

خلافة الاندلس « انقسمت في اوائل القرن الخامس الى امارات تولاها اصحاب الاطراف والرؤساء ، وتغلب كل انسان على ما في يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ، ولذلك سموا ملوك الطوائف ... » . ومنهم :

بنو حمود في مالقة والجزيرة	٤٠٧ ـ ٤٤٩
بنو عباد في اشبيلية	٤١٤ ـ ٤٨٤
بنو زيري في غرناطة	٤٠٣ ـ ٤٨٣
بنو جهور في قرطبة	٤٢٢ ـ ٤٦١
بنو ذي النون في طليطلة	٤٢٧ ـ ٤٧٨
العامريون في بلنسية	٤١٢ ـ ٤٧٨
بنو هود في سرقسطة	٤١٠ ـ ٥٣٦

خلافة بغداد « ذهبت هيبتها بما اصاب الخلفاء من التضييق والاحتقار (حتى) هان على عمالهم في اطراف المملكة ان ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بجباية أعمالهم (أي) بالاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة » . من هـذه الدول المستقلة :

السلاجقة العظام	٤٢٩ ـ ٥٥٢
سلاجقة كرمان	٤٣٣ ـ ٥٨٣
سلاجقة الشام	٤٨٧ ـ ٥١١
سلاجقة العراق وكردستان	٥١١ ـ ٥٩٠
سلاجقة آسيا الصغرى	٤٧٠ ـ ٧٠٠

خلافة القاهرة نجت من محنة الانقسام ، لأن سلطة الخليفة «لم تكن

تتجاوز باب قصره » اصلا ، ولأن الخليفة نفسه لم يكن عادة سوى طفل صغير يتخذه أحد الوزراء او قادة الجند بمثابة ستار يختبئ وراءه للاستبداد بالحكم . فالخليفة الآمر كان عمره خمس سنوات ، والخليفة الظاهر كان مجرد صبي مراهق ميال للعبث مما اغرى اعداءه بخطفه واعدامه ، والخليفة الفائز كان عمره اربع سنوات ، وقد « مات » في الحادية عشرة من عمره ، وخلفه ابن عمه العاضد وله من العمر تسع سنوات ...

تحت هذه الظروف تمت الغارة الصليبية الضارية التي افتتحها البابا اوربانوس الثاني سنة ٤٨٨ بمثابة حرب مقدسة ضد شعوب المشرق ، في خطبة القاها في مدينة كليرمون بجنوب فرنسا ، ودعا فيها « كافة المؤمنين لحمل السلاح والجهاد في سبيل استرجاع بيت المقدس من ايدي المسلمين ».

في هذه الخطبة اشار البابا الى رسل الامبراطور البيزنطي الذين كانوا



لوحة ٥١ : نوع من التحذير : انتهت حملة بطرس الناسك بكارثة شاملة سنة ٤٨٩ ، فقد هلك معظم فرق المشاة عطشا في صحارى آسيا الصغرى ، « وعمد الفرسان الى شق عروق خيولهم لامتصاص دمائها تحت وطأة الظمأ . »

يتوافدون على روما طالبين مساعدة « اخوانهم في الغرب » ، ثم وصف باسهاب « ما يلاقيه الحجاج الغربيون الى الاراضي المقدسة من مشاق وآلام ». لكنه ايضا لم ينس ان يلفت نظر مستمعيه الى « مقدار الرخاء الذي سوف ينعمون به في أرض اللبن والعسل عوضا عن الحياة التعسة التي يحيونها هنا في قبضة البؤس والمجاعة والامراض ».

وفجأة ، سرت في اوربا الغربية موجة عارمة من الحماس الديني ، وانطلقت الجموع تردد الهتاف الشهير : « هكذا يريد الله » ، بينما كان البابا يجتمع مرة اخرى باساقفته للتشاور بشأن تنظيم العمليات العسكرية واصدار قرار يطمئن الذين يشتركون في القتال « الى ان جميع ممتلكاتهم واراضيهم ستكون تحت الحماية المباشرة للكنيسة » . وبعد ذلك اصدر المجتمعون قرارا خاصا يفرض على كل مشترك في الحملات « ان يجعل على صدره وكتف سترته صليبا من نسيج احمر اللون ، وكل من حمل هذا الصليب وأخلف وعده بالمسير الى بيت المقدس يتعرض لمقاطعة الكنيسة » .



طلائع الحملة الاولى تولى قيادتها راهب يدعى « بطرس الناسك » ، وقد ابيدت بكاملها قبل ان تجتاز آسيا الصغرى . اما الحملة الرئيسية ، التي عقبتها مباشرة سنة ٤٩٠ ، فقد سارت من مناطق اللورين والراين وجنوب فرنسا ، واخترق قسم منها اراضي ايطاليا والبلقان ، والقسم الآخر اراضي جنوب ايطاليا والمجر ، ثم التقوا جميعا في القسطنطينية حيث واجه الامبراطور البيزنطي الكسيوس الاول كمنينوس مشهدا آثار رعبه : فبدلا من الجيوش النظامية التي كان يتوقع وصولها بمثابة امدادات لقواته ، جاءته حشود فوضوية سيئة العدة والتدريب ولا تأتمر الا باوامر قادتها مباشرة .

ورغم ان الامبراطور لم يكن لديه اعتراض على مطامح الامراء الفرنجة في أن يقيموا « امارات حاجزة » عند الاقاليم الواقعة على الاطراف المتاخمة لاعدائه ، فانه رغب في ان تكون له وحده اليد العليا في المنطقة . وقد عمد الى الحصول على وعد من الامراء الصليبيين بأن يعيدوا اليه جميع الاقاليم والمدن التي تتم السيطرة عليها ، مقابل ان يتولى نفقات انتقال قواتهم طوال عبورها من مناطق آسيا الصغرى .

الضربات الصليبية الاولى :

حاصر الصليبيون نيقية عاصمة السلاجقة في غربي شبه جزيرة الاناضول سنة ٤٩١ ، فسقطت بعد حصار دام حوالى ثلاثين يوما . ثم تابعوا زحفهم عبر جبال طوروس حيث توزعت منهم فرقتان : الأولى سارت بقيادة بلدوين نحو المناطق الشرقية ، وما لبثت ان استولت على مدينة الرها التي يسكنها الارمن النصارى ، ونصب بلدوين نفسه اميرا عليها ، فكانت اول امارة لاتينية في المشرق . اما الفرقة الثانية ، التي تولى قيادتها تانكريد النورماني ، فقد قصدت كيليكيا واحتلتها ، ثم تابعت زحفها شرقا الى ان استولت على طرسوس والمناطق المحيطة بها ، فيما كانت بقية الفرق الصليبية تواصل تقدمها في الاراضي السورية قاصدة انطاكية .

حصار انطاكية :

رابط الصليبيون بقيادة بوهمند وريموند خارج اسوار انطاكية واتخذوا مواضعهم عند الطرف الشمالي الغربي منها ، فيما كان اميرها السلجوقي ياغي سيان يوالي ارسال بعثاته الى سائر الامراء السلاجقة في حلب ودمشق والموصل في طلب الامدادات .

ويبدو ان تحصينات المدينة واستحكاماتها قد ارهبت القادة الصليبيين ، فلم يحاولوا اقتحامها مباشرة بل انتظروا المزيد من الامدادات . وفي تلك الاثناء كان بوهمند يستطلع الوضع داخل المدينة بواسطة مجموعة من اللاجئين والمبعدين الذين كانوا لا يزالون على اتصال باقاربهم داخل اسوارها . غير ان ذلك بدوره كان يؤدي الى تسرب المعلومات عما يحدث داخل صفوف الصليبيين انفسهم . وفي ذات يوم شهد معسكر الفرنجة قدوم بضعة زوار غرباء ، تبين انهم يمثلون بعثة مصرية ارسلها الوزير الفاطمي الافضل لمفاوضة الصليبيين حول اقتسام املاك السلاجقة بين الطرفين ، فتكون مناطق الشام الشمالية من نصيب الفرنجة بينما يحتفظ الفاطميون بفلسطين . وعلى الرغم من ان المصريين استقبلوا بما يليق بهم من التكريم وغمروا لدى مغادرتهم المعسكر بالهدايا والتمنيات الطيبة ، فان الفرنجة لم يلتزموا بأية وعود .

« الاعجوبة » :

بعد حصار طويل دام تسعة اشهر سقطت انطاكية ودخلها الصليبيون على عجل لكي يجدوا انفسهم محاصرين بدورهم من القائد السلجوقي كربوقا ، الذي كان قد اسرع لنجدة المدينة وأنزل قواته في المواقع نفسها التي اقام فيها الفرنجة طوال الأشهر الماضية .

وفي هذه المرة اشتد الحصار على الصليبيين وطال امده ، وما لبثت مؤنهم ان نفدت واخذوا « يقتاتون بما يجدونه من اوراق الشجر وجلود الدواب الجافة » ، ولم يعد ثمة حل امامهم في عزلتهم القاسية وراء الاسوار سوى ان يخرجوا لشق طريقهم بالقوة أو يبادوا داخـل المدينة . وقد خرج الصليبيون فعلا وشتتوا قوات كربوقا في معركة طويلة ، لكنهم رأوا ان ينسبوا هذا العمل الى بركة الحربة المقدسة التي عثروا عليها في احدى كنائس المدينة .

ظفر الصليبيون بانتصاراتهم في انطاكية باول امارة في الارض السورية ، تضاف الى امارة الرها التي سبق لبلدوين ان احتفظ بها لنفسه . لكن النزاع التقليدي حول زعامة انطاكية ما لبث ان نشب في ما بين قادة الحملة انفسهم من جهة وبينهم وبين الامبراطور البيزنطي من جهة اخرى . وفي نهاية الامر تمكن النورماني بوهمند من الاحتفاظ بالمدينة وازاحة جميع منافسيه ، وعلى رأسهم الكونت ريموند الذي نسب لنفسه حادثة اكتشاف الحربة وتحقيق « الاعجوبة » .

الاستيلاء على الحصون والمرافئ :

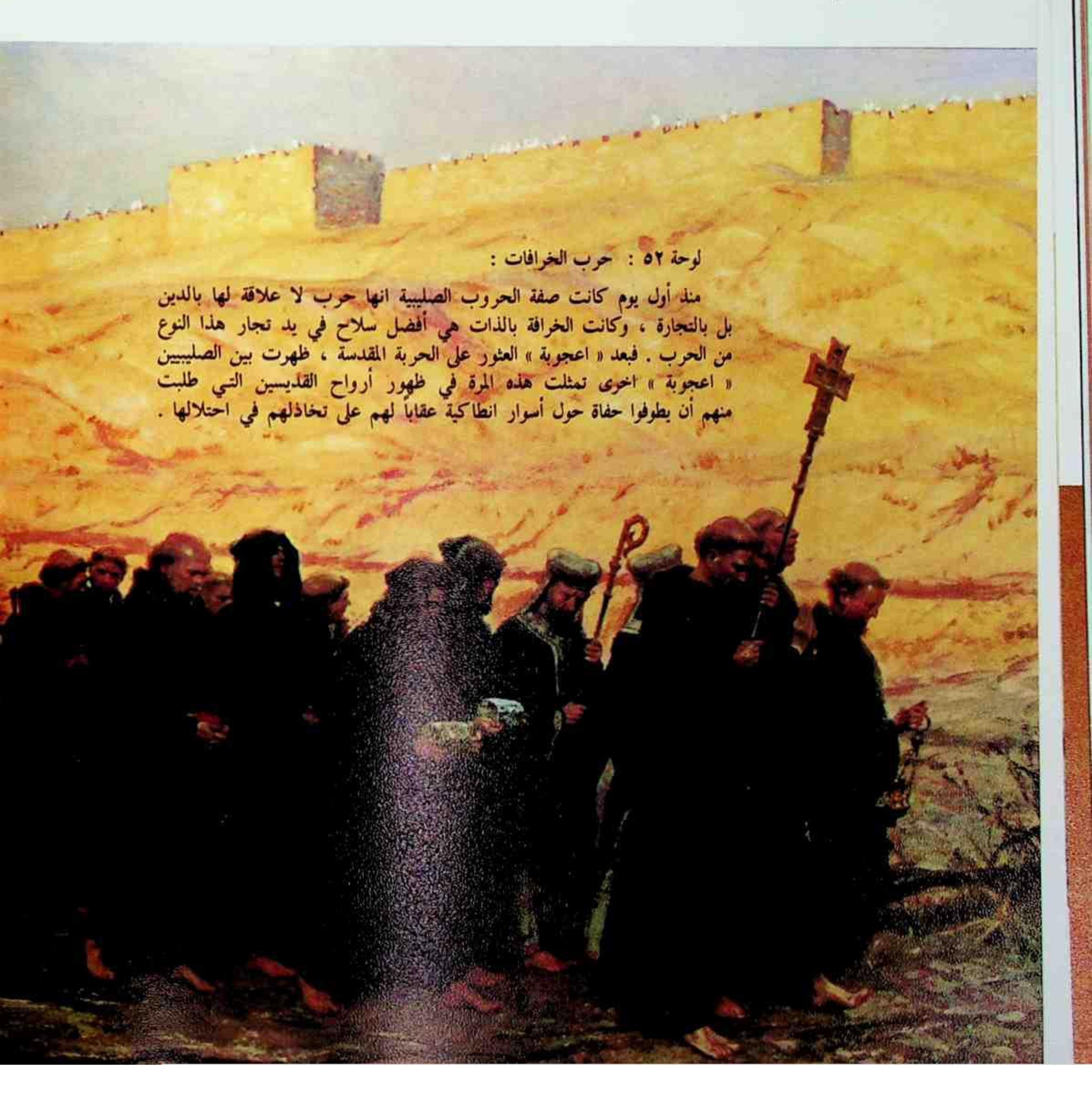
لم يبق امام ريموند سوى مغادرة انطاكية والتوجه جنوبا بحثا عن فرصة افضل . فمر بمعرة النعمان وتمكن من دخولها بعد حصار استمر مدة اسبوعين اختتمه باضرام النار فيها والقضاء على العديد من اهلها ، ثم غادرها ليحتل حصن الاكراد المطل على سهل البقيعة بين جبال النصيرية وجبال لبنان .

من حصن الاكراد وجه ريموند فرقة صغيرة استولت على طرطوس ـ الميناء الوحيد الصالح لرسو السفن بين اللاذقية وطرابلس ـ بينما كان جودفروا شقيق بلدوين ينطلق من انطاكية ليدخل ميناء جبلة الصغير ، حيث اصبح بامكان الحملة الاتصال بالاسطول الايطالي ، ثم ينضم الى قوات ريموند لمواصلة الزحف باتجاه عرقة عند الحافة الغربية من شمال لبنان .

لكن عرقة صمدت للحصار مدة شهر تقريبا ، فاضطر الصليبيون ان يتحولوا عنها ليتابعوا تقدمهم نحو بيت المقدس بعد ان انضم اليهم بوهمند والقائد النورماني الآخر تانكريد . وقد احتلوا اغلب مدن الساحل دون ان يواجهوا مقاومة تذكر ، ثم انحرفوا شرقا عند ارسوف قاصدين مدن الداخل واحتلوا الرملة في صيف سنة ٤٩٢ ، بعد ان كان اهلها قد اخلوها قبل وصولهم.

قبل ذلك بعام واحد ، كان الفاطميون قد استغلوا انشغال قوات السلاجقة بالحرب الدائرة ضد الصليبيين في المناطق الشمالية ، فبادر الوزير الفاطمي

الافضل الى الزحف على بيت المقدس وتمكن من تدمير اسوارها وانتزاعها من يد اميريها سكمان وايلغازي ، فيما كان رسله ينطلقون لمقابلة الامبراطور البيزنطي في القسطنطينية في مهمة استطلاعية حول موقفه الحقيقي من الجحافل الصليبية الزاحفة على بيت المقدس . ويبدو ان العاهل البيزنطي أصر على انكار الحركة الصليبية برمتها امام البعثة المصرية وطمأنها الى نواياه مؤكدا انه ليست له مصلحة في غزو فلسطين .

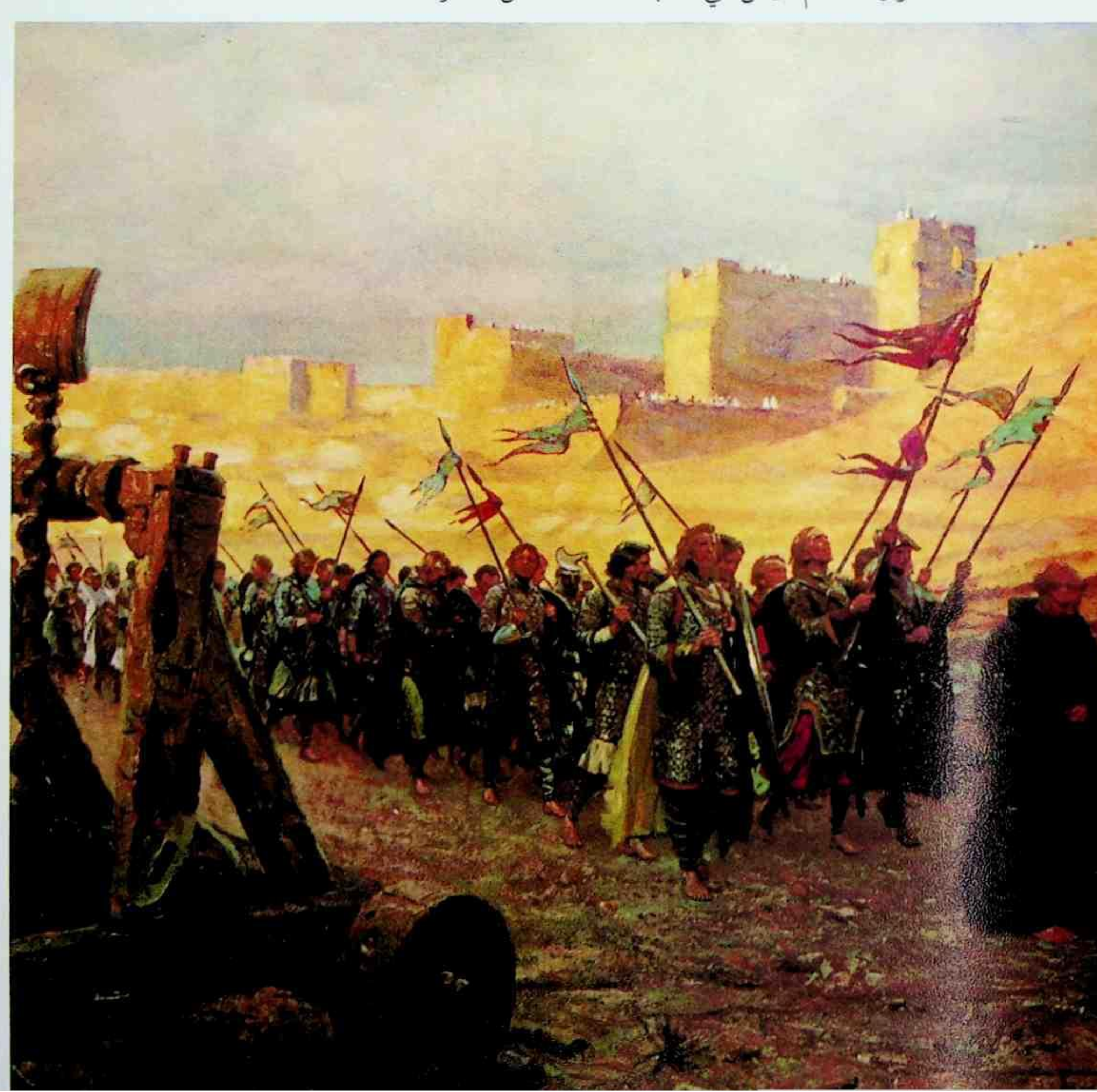


لوحة ٥٢ : حرب الخرافات :

منذ أول يوم كانت صفة الحروب الصليبية انها حرب لا علاقة لها بالدين بل بالتجارة ، وكانت الخرافة بالذات هي أفضل سلاح في يد تجار هذا النوع من الحرب . فبعد « اعجوبة » العثور على الحربة المقدسة ، ظهرت بين الصليبيين « اعجوبة » اخرى تمثلت هذه المرة في ظهور أرواح القديسين التي طلبت منهم أن يطوفوا حفاة حول أسوار انطاكية عقاباً لهم على تخاذلهم في احتلالها .

حصار بيت المقدس :

قدرت اعداد الحملة الصليبية الزاحفة على بيت المقدس بحوالى ٤٠ الفا من الجنود النظاميين والفرق المتطوعة . اما الحامية المصرية المرابطة داخل اسوار المدينة فلم يتعد افرادها الالف جندي . ولدى اقتراب الحملة من المدينة بادر حاكمها الفاطمي افتخار الدولة الى تخريب آبار المياه الواقعة خارج اسوارها . ثم ارسل في طلب الامدادات من القاهرة .



ركز الصليبيون مواقعهم قرب القطاعات المتدانية من السور ، فاتخذ جودفروا موضعه في المنطقة المواجهة للركن الشمالي الغربي ، وانضم اليه تانكريد النورماني في الموقع ذاته . اما ريموند فقد رابط بقواته في المنطقة الجنوبية . وسرعان ما تبين ان الجنود لن يطيقوا فترة طويلة من الحصار باسلحتهم غير الملائمة للقتال في ظروف مناخية حارة ، فقرروا الهجوم فورا . غير ان هجومهم الاول لم يؤد الى نتيجة حاسمة بسبب افتقار قواتهم الى المعدات الصالحة لتسلق الاسوار . وبعد قتال مرير استمر عدة ساعات قرروا الانسحاب والانصراف الى اعداد المزيد من ادوات الحصار .

الهجوم الثاني تقرر ان يبدأ في الليل ، فانشغلوا في ردم الخندق المحيط بالاسوار وركزوا القلاع الخشبية اليها ، ثم راحوا يقذفون المدينة بوابل من قذائف المجانيق . غير انهم واجهوا مقاومة عنيفة من القوات المدافعة عن المدينة ادت الى انسحابهم مجددا . وفي صبيحة اليوم التالي عمد جودفروا الى رفع قلعة خشبية تجاه السور الشمالي ، ونجح في اقامة جسر يصل بينها وبين قمة السور ، فتمكن رجاله من النفاذ الى داخل المدينة وفتح الباب المسمى « بباب الاعمدة » امام القوات الرئيسية للجيش .



لوحة ٥٣ :

الرمز والمضمون : في حملات الدعاية الصليبية ظهر الأسد ـ وهو شعار يرمز به الاوربيون لأنفسهم ـ يلتهم الجمل على ثوب التتويج الذي اختاره روجر الثاني .

هكذا يريد الله ؟

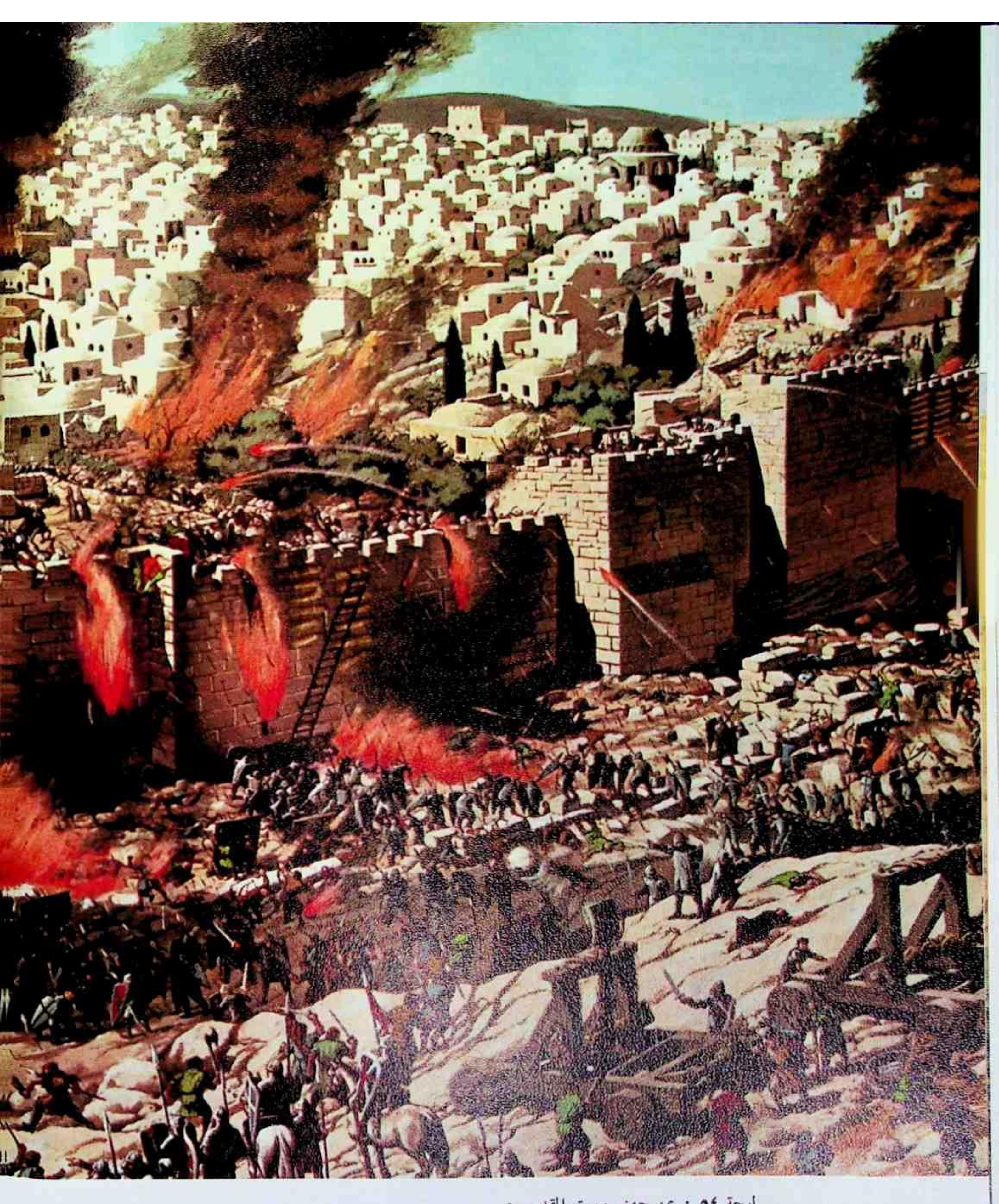
افتخار الدولة ـ امير بيت المقدس ـ اقنع الصليبيين بابقائه على قيد الحياة مع حرسه الخاص لقاء مبلغ كبير من المال ، فسمحوا له بالخروج من المدينة والانضمام الى الحملة المصرية في عسقلان . اما بقية المواطنين الذين ظلوا داخل المدينة ، فقد وضع الصليبيون السيف في اعناقهم يومين كاملين ، خلال مذبحة بلغ عدد ضحاياها سبعين الفا على الاقل ، ولم يسلم منها حتى الذين اعتصموا في المساجد والمعابد .

يروي ريموند اجويليه ، وهو من الذين اشتركوا في الحملة الصليبية وارخوا لها ، انه حينما توجه لزيارة باحة المسجد الاقصى « اخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته » . ويضيف واصفا اول يوم في بيت المقدس على عهد الصليبيين بقوله : « ان النظر كان يقع على اكوام من الرؤوس والايدي والاقدام في الطريق والساحات العامة » . وفي نهاية هذا العمل الهمجي أعلن جودفروا ، بعد ان اختير لتولي امارة بيت المقدس ، « انه يربأ بنفسه عن ان يضع على رأسه تاجا من الذهب ، حيث حمل السيد المسيح تاجا من الشوك » .

بعد بيت المقدس انصرف جودفروا الى اخضاع المناطق الساحلية ، فاحتل يافا وحيفا بمساعدة فعالة من اسطول البندقية ، ثم تقدم نحو الداخل ، واستولى على بيسان الواقعة بين الساحل وبين دمشق ، فيما استسلمت له نابلس من دون مقاومة . وبعد موت جودفروا ورثه شقيقه بلدوين امير الرها ، الذي دعا نفسه باسم « ملك بيت المقدس » بدل « حامي القبر المقدس » ، ثم بادر الى احتلال عكا ـ وهي المرفأ العميق الوحيد في فلسطين ـ لكي يضمن لاساطيل حلفائه ميناء يتلقى منها الامدادات طوال ايام السنة .

وقد اعتبر المؤرخون بلدوين المؤسس الحقيقي للمملكة اللاتينية في فلسطين . لكن الواقع ان نفوذ هذه المملكة لم يتجاوز الشريط الضيق الممتد من طرابلس شمالا حتى العقبة جنوبا ، بينما لم يتجاوز من ناحية الشرق المساحة الضئيلة الممتدة الى وادي الاردن .

وقد ادرك الصليبيون ان استمرار دولتهم وسط بحر هائل من الشعوب المعادية مرتبط من جهة بمدى قدرة الغرب على تزويدهم بالمهاجرين بشكل متصل ، ومتوقف من جهة أخرى على بقاء القادة المسلمين أنفسهم في حالة مستمرة من الانقسام السياسي .



لوحة ٥٤ : عن جهنم وبيت المقدس :

.. وبعد بضعة اسابيع تمكن الصليبيون من اختراق الأسوار وابادة جنود الحامية المصرية التي كانت ما تزال تنتظ



وصول الامدادات من الخليفة في القاهرة .

معارك الظفر :

سنة ٥٢١ ظهر عماد الدين زنكي اتابك الموصل ، وتولى قيادة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين . فكانت بادرته بداية لمرحلة جديدة خاضت الجيوش الاسلامية أبانها معارك ظافرة امتدت حتى عصر المماليك في منتصف القرن التالي .

سنة ٥٣٩ شن عماد الدين زنكي هجوما على مدينة الرها ، فانتزعها من ملكها جوسلين الثاني ، ثم واصل ابنه نور الدين فتح بقية مناطق امارة الرها وضمها الى الامارة الزنكية في الموصل .

في الموجة التالية حرر نور الدين مدينة انطاكية واسر حاكمها بوهمند الثالث ، كما اجتاح كونتية طرابلس على ساحل لبنان واسر حاكمها ريموند الثالث ، لكنه عاد فاطلق سراح الاميرين الصليبيين بعد حصوله على فدية مالية كبيرة . اما الاراضي المقدسة في فلسطين ، فقد بقيت تحت سيطرة الصليبيين ، ولم يتمكن الزنكيون من الظفر بأي انتصار على ملكها بلدوين الثالث . وكان على الارض المحتلة ان تنتظر ظهور بطل التحرير الخالد : صلاح الدين الايوبي .❋

سنة ٥٧٠ استقل صلاح الدين بمصر عن الزنكيين ، ثم اعلن الحرب عليهم ، فقضى على دولتهم خلال عشر سنوات ، وورث املاكهم في الموصل والشام . وكان قبل ذلك قد ضم اليه الحجاز واليمن ، وفرض على الخليفة العباسي ان يوليه مناطق المغرب والنوبة وفلسطين وسوريا الوسطى .

سنة ٥٨٣ باشر معاركه ضد الصليبيين ، فطردهم من طبرية ، وهي اولى المدن التي حررها ، ثم تلتها حطين حيث دارت المعركة الشهيرة التي سجل فيها انتصارات مجيدة على الجيوش الصليبية اجبرت فلولها على التراجع الى بيت المقدس .

في اعقاب هذه المعركة حدثت المقابلة المثيرة التي نقلها عماد الدين الاصفهاني بتفصيل متعمد ، فقال في كتابه « الفتح والبرق » :

« ... وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى ، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بداية مقدم الداوية (جمعية دينية عسكرية) وعدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) . واحضر الملك كي (جي دي لوسينيان ملك القدس) وأخوه جفري ، وأوك صاحب جبيل ، وهنفري والابرنس ارناط (رجينلد) صاحب الكرك ، وهو اول من وقع

في الشرك . وكان السلطان نذر دمه (بسبب تعديه المتواصل على قوافل الحجاج الى الحجاز وخرقه المستمر للاتفاقات المعقودة) ، وقال لأعملن عند وجدانه عدمه .

فلما حضر بين يديه أجلسه الى جنب الملك ، والملك بجنبه ، وقرعه على غدره وذكره بذنبه ، وقال له : كم تحلف وتحنث ، وتعهد وتنكث ، وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض .

فقال الترجمان عنه : انه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك ، وما سلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظمأ ويميل من سكرة الرعب منتشيا ، فأسّاه السلطان وحاوره ، وقثأ سورة الوجل الذي ساوره ، وسكن رعبه وأمن قلبه ، وأمر له بماء مثلوج فشربه وأطفأ به لهبه .

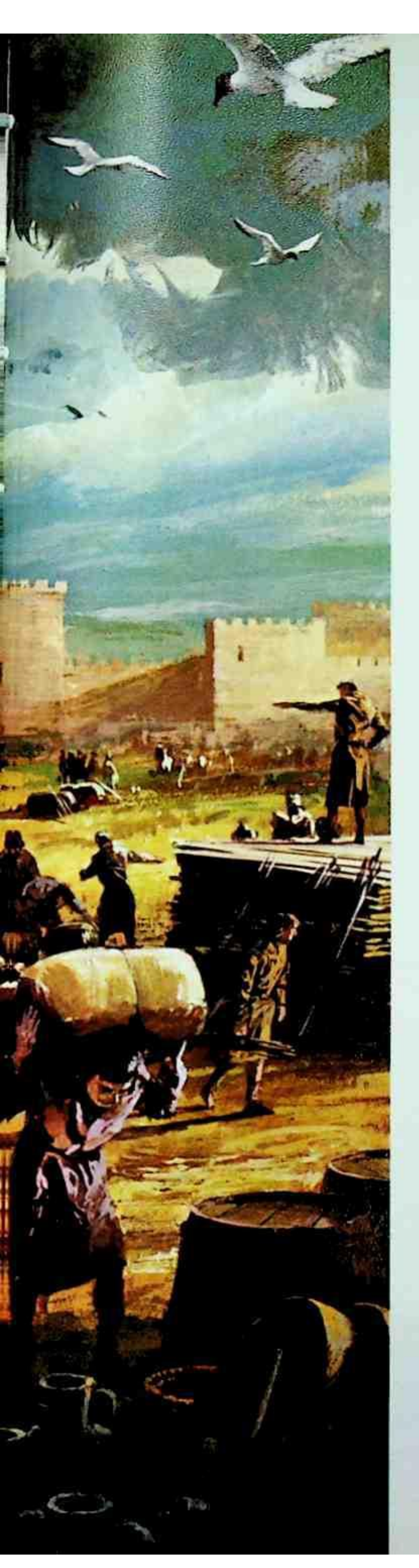
ثم ناول الملك الابرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه . فقال السلطان للملك : لم تأخذ في سقيه مني اذنا ، فلا يوجب ذلك له مني أمنا . ثم ركب وخلاهما ، وبنار الوهل اصلاهما . ولم ينزل الى ان ضربت سرادقه ، وركزت اعلامه وبيارقه ، وعادت الى الحمى عن الحومة فيالقه .

فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس ، فقام اليه وتلقاه بالسيف ، فحل عاتقه . وحين صرع أمر برأسه فقطع ، وجر برجله قدام الملك حتى اخرج ، فارتاع الملك وانزعج . فعرف السلطان انه خامره الفزع ، وساوره الهلع ، وسامره الجزع ، فاستدعاه واستدناه ، وأمنه وطمنه ، وامنه من قربه وسكنه ، وقال له : ذاك رداءته اردته ، وغدرته كما تراه غدرته ، وقد هلك بغيه وبغيه ... » .

حملة الملوك :

انتصار صلاح الدين في معركة حطين كان بداية مرحلة حاسمة في صراعه مع الفرنجة . فقد تقدم المسلمون لتحرير بيت المقدس في السنة نفسها ، وافنوا حامياتها بعد حصار لم يستمر اكثر من اسبوع . ثم توالى سقوط بقية المناطق السورية ، فتحررت خلال سنة واحدة جميع مدنها ـ من اللاذقية في الشمال حتى الكرك في الجنوب ـ ما عدا مدن انطاكية وطرابلس وصور التي استمرت مع بعض الحصون والقلاع تحت سيطرة الفرنجة .

اذ ذاك تنادى ملوك اوربا الى شن حملة جديدة ـ هي الحملة المعروفة « بالتجريدة الثالثة » ـ تولى قيادتها فردريك امبراطور المانيا وريكردس قلب الاسد ملك الانجليز وفيليب ملك فرنسا . وسرعان ما استولى ريكردس على قبرص .



اما فردريك ، فكان حظه تعيسا منذ البداية ، اذ غرق خلال عبوره احد الانهار ، فيما تابعت بقية جيشه زحفها شرقا مع قوات ملك فرنسا لحصار عكا .

في عكا انضم ريكاردس الى القوات المحاصرة للمدينة ابان القتال الذي كان دائرا برا وبحرا ، فأثار قدومه حماس الفرنجة الذين « احتفوا بمقدمه وتهللوا واشعلوا نيران البشرى » . لكن صلاح الدين ايضا كان قد خف لمساعدة المدينة وعسكر خارج اسوارها .

دام حصار عكا نحو سنتين ، وشهدت اسوارها حوادث باهرة تمت على يد الجانبين ، فرويت حول الاعمال الحربية والسياسية التي قام بها صلاح الدين وريكردس قصص اشبه بالاساطير في تاريخ حروب العصور الوسطى . وقد تميزت جيوش الفرنجة باسلحتها الحديثة واساطيلها الضخمة ، بينما تميز جيش المسلمين بحضور صلاح الدين الفذ واشرافه شخصيا على سير المعارك . لكن النجدة التي طلبها من الخليفة العباسي لم تأت قط ، ولم يكن امام اهل عكا ثمة مفر من طلب الصلح .

عقدت معاهدة الصلح سنة ٥٨٨ ، وتم الاتفاق بموجبها على ان يكون الساحل للفرنجة والمناطق الداخلية للمسلمين . لكن صلاح الدين توفي بعد ايام ، تاركا وراءه دولة ما لبثت ان توزعت بين ابنائه .

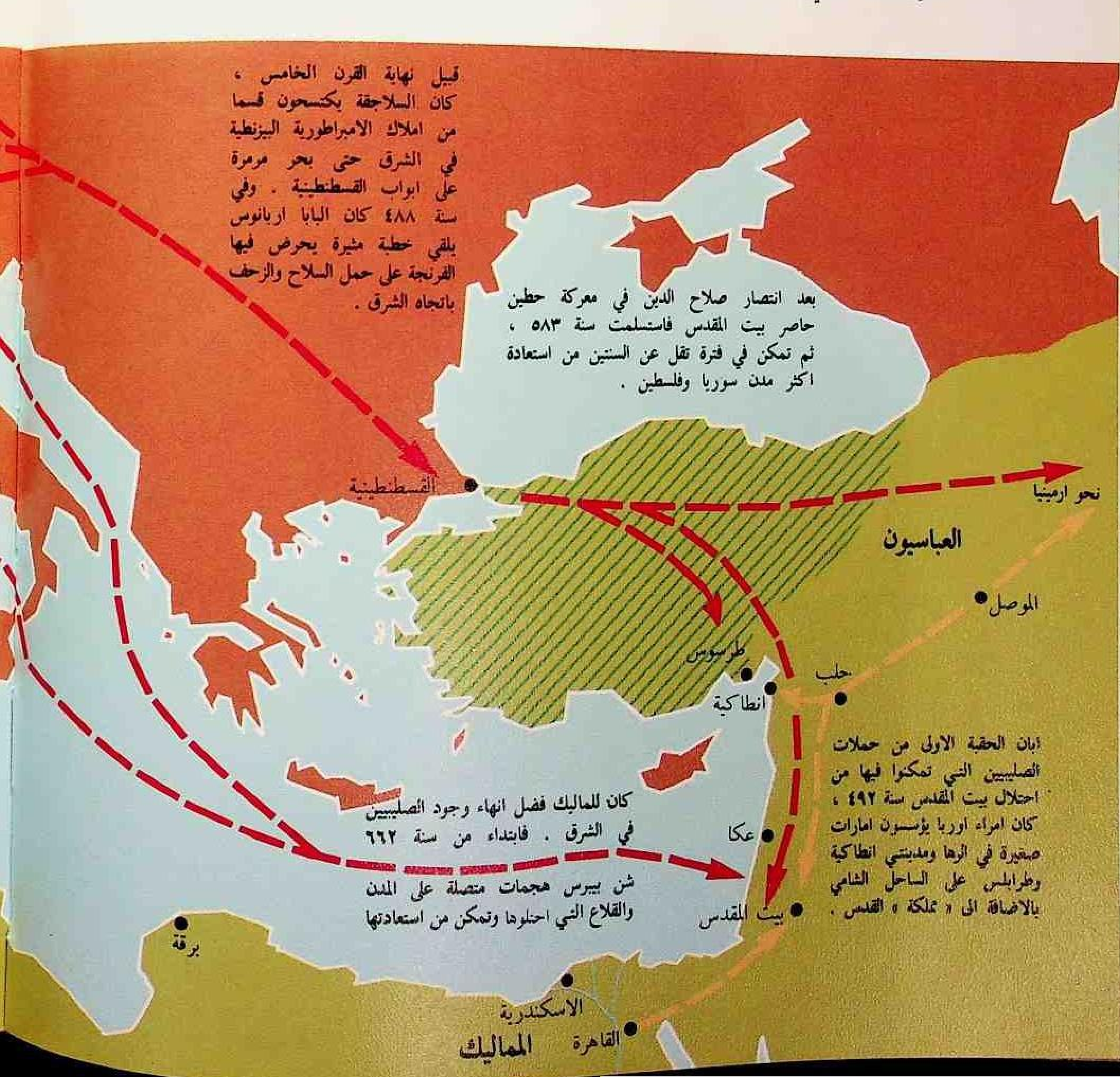
لوحة ٥٥ : جبهة على الماء :

لعبت اساطيل الصليبيين دوراً أساسياً في معارك عكا وبيت المقدس ، ووقع عليها عبء توفير ادوات الحصار وايصال الامدادات وتأمين زحف الجيش على طول سواحل الشام . لكن الغريب ان الاسطول المصري ، الذي كان قادرا على تحطيمها بيسر ، لم يقرر أن يتصدى لها بأي قدر من الجدية .



طوال الخمسين سنة التالية مرت الاسرة الايوبية ، التي تقاسمت دولة صلاح الدين في سوريا ومصر ، بفترات من الحروب الأهلية والنزاعات الدموية بين الورثة ، فتيسر للفرنجة حينئذ الاستيلاء مجددا على بعض المدن التي كان صلاح الدين نفسه قد انتزعها منهم .

لكن داء الانقسامات كان قد استفحل ايضا بين الفرنجة ، فاستعان الواحد من امرائهم بالمسلمين على الآخر ، فيما تورط الامراء الأيوبيون بدورهم في عقد محالفات مشينة مع امراء الفرنجة ضد منافسيهم من اسرة الايوبيين انفسهم ، مثل المعاهدة التي عقدها السلطان الايوبي الكامل سنة ٦٢٦ مع فردريك الثاني ، وسلم بموجبها بيت المقدس الى الفرنجة ، مقابل وعد



قطعه الملك اللاتيني على نفسه « بمساعدة الكامل على اعدائه واكثرهم من الايوبيين » .

غير ان بيت المقدس لم تبق طويلا في يد الفرنجة . فقد استعادها المسلمون على عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٢ .

اواخر الموجات :

سنة ٦٤٦ قاد لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة على المشرق العربي ، واستولى على المرفا المصري دمياط . لكن سرعان ما واجه الهزيمة في مدينة المنصورة حيث وقع في الاسر مع عدد من كبار قادته وحبسه المصريون



في « دار ابن لقمان » وعهدوا بخدمته لطواشي اسمه صبيح . وعندما افتدى نفسه بأموال طائلة ، وعاد الى الشام بعد شهر من السجن ، معلنا عن عزمه على تجميع قوات جديدة ، قال له شاعر مصري مجهول :

قل لفرنسيس ان جاء يبغي حربا
او جاء لعقد حلف صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق، والطواشي صبيح

وهكذا انتهت الغارة الصليبية على المشرق ببيتين من الشعر ، وخرجت كنيسة روما خالية الوفاض من مغامرتها الهائلة ، لكي تواجه بوادر الثورة الدينية التي ادت الى ظهور مارتن لوثر وانفصال البروتستانت عن الكاثوليك . لكن المشرق نفسه كان يواجه في هذا الوقت كارثة جديدة تزحف تجاهه من سهول آسيا ، وكانت حشود المغول قد اكتسحت الجناح الشرقي للدولة بقيادة هولاكو وظهرت فجأة تحت اسوار بغداد .

وفي سنة ٦٥٦ اقتحم التتر اسوار المدينة ، ليجدوا الخليفة العباسي « واقفا ينتظرهم مع ثلاثمائة من خاصته وقضاته » ليسلمهم المدينة بدون شرط .

من بغداد واصل هولاكو زحفه باتجاه سوريا ، فاستولى على حلب وحماة ، وبدأ يستعد للهجوم على دمشق ، عندما اضطر للعودة نحو فارس بسبب وفاة اخيه « الخان الكبير » . لكن جيوشه ظلت تواصل زحفها حتى احتلت سوريا وباتت على ابواب مصر . اذ ذاك ارسل السلطان المملوكي سيف الدين قطز قائده بيبرس على رأس حملة باتجاه فلسطين لرد التتر عن مملكته ، فاشتبك بيبرس معهم قرب الناصرة في معركة عين جالوت وهزمهم وقتل قائدهم كتبغا .

الضربات الاسلامية الاخيرة :

انتصار بيبرس على التتر كان الحلقة الاولى في سلسلة من الانتصارات الحربية والسياسية ، اختتمها بمعاركه الظافرة ضد الصليبيين واستيلائه على معاقلهم في الكرك وارسوف وصفد ويافا وانطاكية ، بالاضافة الى العديد من الحصون الحدودية التي كانت بحوزة فرسان المنظمات الدينية ، مثل الفرسان الداوية (الهيكليين) وفرسان القديس يوحنا (الاسبتاريين) .

والواقع ان اعمال بيبرس مهدت الطريق امام خلفائه ليحققوا النصر الاخير ويقضوا نهائيا على الوجود الصليبي في المشرق العربي :

ففي الفترة الواقعة بين سنة ٦٨١ وبين سنة ٦٨٩، كان السلطان قلاوون (الملقب بالمنصور) يشن هجمات متصلة على المناطق التي كانت لا تزال تحت سيطرة الفرنجة ، فيتمكن من اخضاع معظمها . وبعد وفاته واصل ابنه الاشرف المعركة التي كان يخوضها والده ضد عكا - آخر موقع حصين للصليبيين في المنطقة - فاحتلها سنة ٦٩٠ . وفي اليوم ذاته ارغم المدافعين عن مدينة صور (على الساحل الجنوبي من لبنان) على اخلائها . اما بقية المدن السورية فما لبثت ان استسلمت الواحدة تلو الاخرى خلال الشهرين التاليين .

لوحة ٥٧ :

الخماسية : نقش على باب خشبي من طراز مملوكي ظهرت فيه النجمة الخماسية التي ما تزال سائدة حتى الآن في نقوش شمال افريقية .


حرب
لوحة ٥٨


لخمسمائة عام
الباب الذي فتحه معاوية
عشرات السلاطين
وعشرات العواصم

"لقد أعطيناكم افريقية ..."

من رسالة الخليفة الفاطمي
الى القبائل العربية .

عند بداية القرن الرابع للهجرة كان انحراف معاوية بمسيرة الخلافة قد قاد الدولة الاسلامية الى نهاية الزقاق المسدود الذي وجدته روما يعترض طريقها عند بداية القرن الرابع للميلاد . ولم يكن من المدهش ان شجرات الاسر المتناحرة على العروش والسلطة قد عادت فطرحت من الثمار المرة نفسها :

روما ، بعد قرنين من تحويلها الى دولة وراثية ، اصبحت مجرد مسرح للصراع على السلطة بين ذوي النفوذ من قادة الجند والاثرياء ، واغلقت مدنها بالابواب والمزاليج ، ووقفت تقاتل من فوق الاسوار في حرب يائسة ضد القبائل من جهة وضد الشعوب الثائرة في الداخل من جهة اخرى .

نظام الخلافة ، بعد قرنين من تحويله الى دولة وراثية ، تحطم الى ثلاث قطع في بغداد والقاهرة وقرطبة ، واغلق على نفسه ابواب هذه المدن لكي يقاتل من فوق الاسوار على الجبهة المستحيلة نفسها :

خلافة قرطبة منغمسة في القتال برا وبحرا ضد الفاطميين من جهة ، وضد قبائل شمال اسبانيا من جهة اخرى ، والخليفة الناصر يحيط نفسه بآلاف من الحراس الصقالبة الذين كانوا في بلاط قرطبة ـ مثل المماليك والاتراك في بلاطات المشرق ـ مجرد خصم جديد يضاف عفوا الى حلقة المتصارعين على السلطة .

خلافة بغداد تواجه هجوم القرامطة الذين خرجوا من الاحساء فاجتاحوا اليمامة وعمان وجنوب العراق ، ثم تقدموا سنة ٣١٨ واحتلوا مكة نفسها وحملوا منها الحجر الاسود الى مدينة هجر في استعراض واضح لمدى استهانتهم بسلطة الخليفة وعجزه عن حماية شيء من مقدسات الامة التي فرض نفسه لادارة شؤونها .

خلافة القاهرة تواجه زحف القبائل على مدنها من الشرق والغرب ، فالليبيون يتقدمون من برقة الى ضواحي القاهرة في الجيزة ، وقبائل بني هلال وبني سليم تتقدم من شبه الجزيرة العربية الى العريش وشرق الدلتا ، والخليفة الفاطمي ـ كما قال ابن خلدون ـ يحتمي بقصره في محاولة يائسة لايقاف الطوفان على عتبة الباب .

تحت هذه الظروف لم تكن المشكلة الاولى ـ والملحة حقا ـ بالنسبة لاجهزة الحكم في العواصم الثلاث هي المحافظة على الدولة ، بل المحافظة على الاسرة الحاكمة ، ولم يكن ثمة شيء يتورع الوزراء والقادة العسكريون عن فعله سرا او علنا لاداء هذه المهمة :

في قرطبة اصبح بلاط الخلافة ميدانا رحبا لاصحاب المواهب من المغامرين ، حتى تمكن ابن ابي عامر ـ وهو موظف مغامر في حاشية ارملة الخليفة الحكم ـ من السيطرة الكاملة على شؤون الدولة اكثر من ربع قرن ، وتوصل الى الاستيلاء على مناطق الساحل الشمالي الغربي من افريقية التي خلفها الفاطميون وراءهم بعد رحيلهم الى مصر .

في بغداد بلغت سلطة الامراء البويهيين الوافدين على الخلافة حدا جعل احدهم يتمكن بالفعل من توحيد مناطق الخلافة العباسية وضمها في دولة واسعة مؤديا دور الخليفة بالذات .

اما في القاهرة فقد التجأ الخليفة ، لتأمين حكمه ، الى خليط هائل من الجنود الاتراك والشراكسة والصقالبة ، ثم وجد نفسه مضطرا ، لتأمين رواتبهم ، الى العمل شخصيا في تأجير البيوت ، فكان يتولى جباية الايجارات عن « عشرين الف بيت اكثرها مبني باللبن فيها خمسة او ستة طوابق وفي اسفلها مثل ذلك العدد من الحوانيت يؤجر واحدها بما بين الدينارين والعشرة شهريا » .

لقد ارسلنا اليكم خيولا :

تحت هذه الظروف تمت المؤامرة الغريبة والقاسية التي حاكها الخليفة الفاطمي لانقاذ عرشه بتحويل هجرة بني هلال وبني سليم نحو المغرب ، واشعال حرب اهلية مروعة بين ابناء الشعب الواحد على طول شمال افريقية . لكن المصادر التاريخية ، التي اعتادت ان تعالج احداث التاريخ من وجهة

نظر الدولة ، لا تفشل في رؤية معالم المؤامرة فحسب ، بل انها ايضا تلصق بالشعب تبعات الخطأ الذي ارتكبه الخليفة وحده . ان جميع المصادر تدين قبائل بني هلال وبني سليم .

تدينهم بتخريب افريقية : بحرق المزارع ، ونهب المدن ، ونشر الفوضى في ربوع البلاد . لكن احدا من اصحاب هذه المصادر لا يتذكر ان ذلك كله من صميم خطة الخليفة شخصيا ، وان ذلك الرجل المسؤول عن حماية البلاد هو الذي كان ينفذ خطة طائشة لضرب الشعب بالشعب . ولعل اغفال هذه الحقيقة كان فكرة دعائية ناجحة في عصر الخليفة ، لكنه الآن ، وفي مصادرنا التاريخية بالذات ، مجرد محاولة شبه متعمدة لتجريد التاريخ نفسه من اكبر معانيه :

فالواقع ان ارسال القبائل العربية الى شمال افريقية لم يكن قرارا سياسيا ، بل كان مجرد مغامرة من وحي الظروف العابرة . والخليفة الذي انساق وراء قرار غير مسؤول الى هذا الحد قد الحق بشمال افريقية اضرارا أبعد اثرا وأسوأ كثيرا مما كان بوسع أية غارة قبلية ان تحققه . لقد تسبب هذا الرجل في كارثة تاريخية على جميع الجبهات .

لم يسترد شمال افريقية .

ولم يكسب ولاء القبائل العربية ، ولم يحقق شيئا مفيدا واحدا من وراء مغامرته الهائلة ، لكنه نجح في تهديم الهيكل على نفسه واعدائه معا ، وتمكن من تدمير الصنهاجيين ، وتخريب مراكز الادارة على طول شمال افريقية ، مفتتحا بذلك عصرا قاسيا من عصور الصراع المسلح على ثلاث جبهات مرة واحدة :

الجبهة الاولى شهدت صراع القبائل ضد الصنهاجيين في حرب اهلية ضارية انتهت بالقضاء على كل سلطة مركزية في شمال افريقية ، وتقويض كل امل في توحيد المنطقة تحت راية دولة واحدة .

الجبهة الثانية شهدت صراع القبائل ضد بعضها البعض ، والامراء ضد بعضهم البعض ، خلال عصر حافل بالمذابح ومغامرات الافاقين والمرتزقة الذين تدفقوا على المنطقة لكي يجربوا حظوظهم في ظروف الفوضى السائدة .

الجبهة الثالثة شهدت سقوط المنطقة فريسة لغارات الصليبيين الذين استغلوا غياب السلطة المركزية وظروف الانحلال الشامل ، فتقدموا لغزو شمال افريقية من قواعدهم القريبة في صقلية وجنوى واسبانيا ، وتمكنوا

بالفعل من تأمين موضع القدم لعمليات الانزال الرئيسية التي لم يردعها عن غزو المنطقة باكملها سوى ظهور الاسطول العثماني فجأة في مياه البحر المتوسط .

اننا نتعرض هنا لتفاصيل المعارك على هذه الجبهات في شمال افريقية لكي نرى ابعاد الكارثة الشاملة التي تسبب فيها الخليفة الفاطمي بقرار طائش واحد .



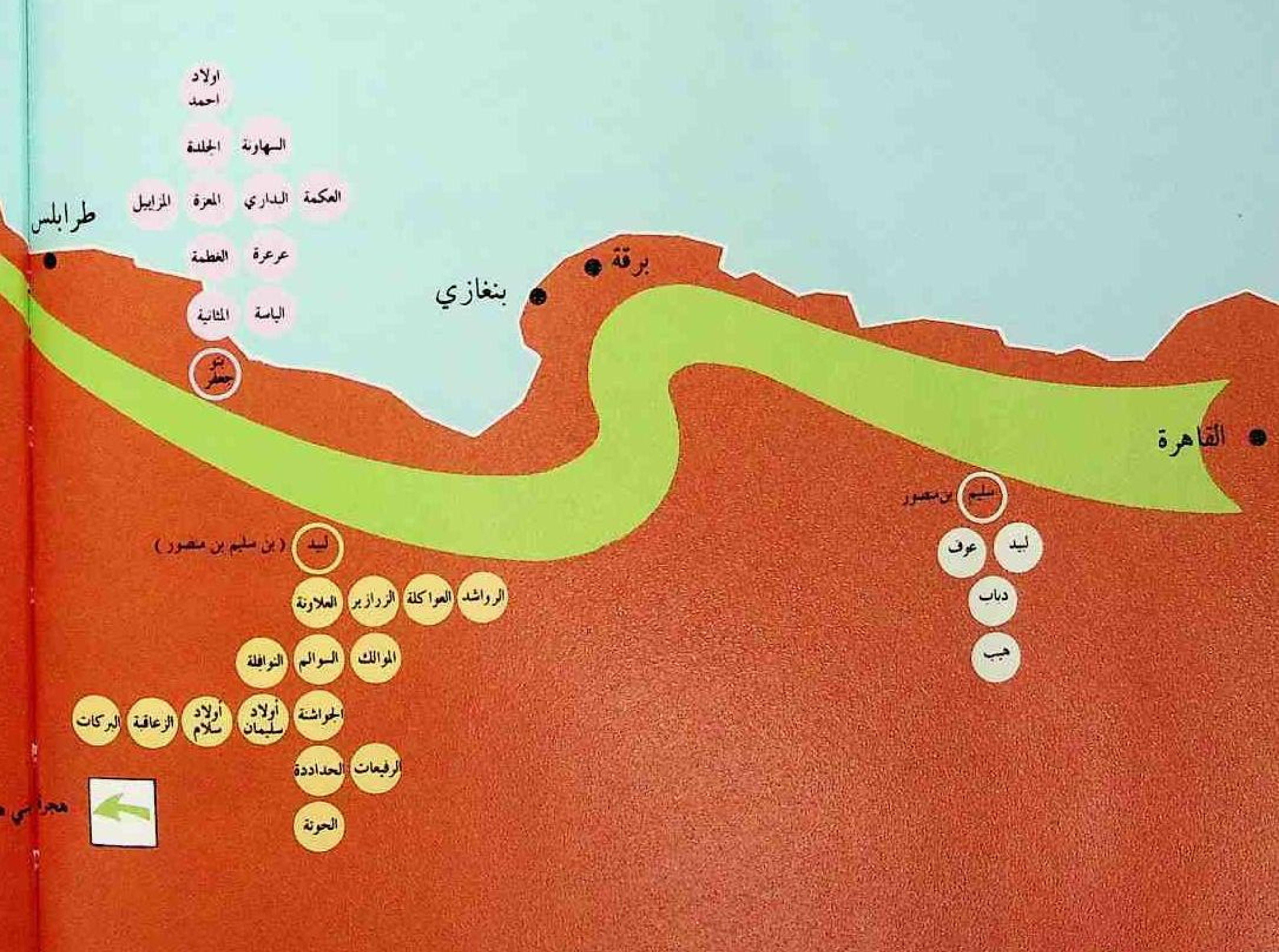
لوحة ٥٩ : الرعية والأسد :

عندما ذهب نظام الشورى ، وتكرست نظرية الحكم بين المسلمين بمثابة حق وراثي قائم على مبدأ القوة ، كان الحاكم نفسه يحفر هذه النظرية على الحجر فوق مدخل قصره . ان بيت الحاكم القائم على أمور الرعية يتحول فجأة الى عرين للأسد .

المائة عام الاولى :

سنة ٤٤٢ اندفعت القبائل العربية باتجاه الغرب في اعداد اختلفت المصادر في تقديرها الصحيح ـ ثمة من زعم انها كانت تربو على الاربعمائة الف نسمة ـ فنزلت في برقة اولا ، ثم تقارعت على توزيع الشمال الافريقي في ما بينها : فكانت برقة من نصيب بني سليم ، وطرابلس وما يليها غربا من نصيب بني هلال . في السنة التالية رحلت قبائل بني هلال بجميع بطونها عن برقة متجهة

لوحة ٦٠ : القبائل العربية وعشائرها الكبرى .



نحو طرابلس ، « وانسابوا في ارض افريقية في جموع لا يدرك اولها ولا ينتهي آخرها » .

اولى المعارك الحاسمة على ارض افريقية جرت بين قابس والقيروان ، فاشتبكت طلائع القبائل الزاحفة غربا مع قوات المعز بن باديس الذي كان قد اعد في مواجهتها جيشا يفوق عدد رجالها عشرة اضعاف ، وانتهت المعركة بهزيمة المعز وانسحابه الى القيروان . وعندما حاصرته القبائل في القيروان ، عمد الى استمالة ثلاثة من الشيوخ الذين سهلوا له الهرب من عاصمته الى مدينة المهدية بكل امواله وكنوزه مقابل زواجهم من بناته .



وبعد ذلك اعادت القبائل توزيع مناطق الشمال الافريقي غربي مصر في ما بينها : « فكان لبني هلال من تونس الى الغرب » ، وكان لبني سليم المناطق الممتدة شرقا من تونس حتى حدود مصر . وبذا « تصرم الملك من يد المعز » واندثرت آخر دولة موحدة شهدها الشمال الافريقي حتى الآن ، وزحفت القبائل لمحاصرة ما تبقى من الامراء الصنهاجيين في جيوب صغيرة داخل المهدية وصفاقس والمنصورة وقابس .

اما الزناتيون ، الذين انحصرت سلطتهم داخل طرابلس وحدها ، فقد عادوا فاتفقوا مع القبائل المسيطرة على الضواحي وتحالفوا معها في غزو مملكة بني حماد الصنهاجية في المغرب الاوسط . لكن انباء هذا الحلف بلغت بني حماد قبل أن تتحرك القوات الغازية بزمن طويل ، فتمكنوا من تجميع قوتهم وتصدوا للغزوة بنجاح في معركة سقط بها امير طرابلس الزناتي نفسه المنتصر بن خزرون سنة ٤٦٠ .

في هذه الفترة الحرجة جرت في طرابلس احداث المغامرة الغريبة التي قام بها جندي تركي يدعى شاه ملك . وكان هذا المغامر قد دخل مصر ، فأكرمه الخليفة الفاطمي ، ثم طرده منها بعد مدة . فتوجه على رأس عصابة من مائة فارس نحو طرابلس التي كانت تبحث عن أي حل للخلاص من حكم خليفة بن خزرون . وقد بادر اهلها ففتحوا له ابواب مدينتهم وساعدوه على طرد الوالي سنة ٤٨٨ . لكن الامير الصنهاجي تميم بن المعز ارسل اليه جيشا حاصر طرابلس ثم دخلها واقتاده اسيرا مع بقية رجاله الى المهدية .

خلال الخمسين عاما التالية ، كانت الفوضى السياسية قد بلغت مداها ، وكان روجر الثاني - صاحب صقلية النورماني - قد استمال اليه ما يكفي من العملاء لكي يجرب حظه في انزال قوات رئيسية على ارض شمال افريقية . ورغم ان أمير المرابطين في المغرب حاول ردعه بشن غارات بحرية متواصلة على صقلية نفسها ، ورغم ان الامير الصنهاجي بذل محاولة صادقة لتحقيق نوع من الوحدة مع المرابطين ، فان اسطول روجر افتتح عملياته العسكرية في موعدها ، وتقدم سنة ٥٣٦ فاستولى على مدينتي سوسة وصفاقس بعمارة من ثلثمائة سفينة ، وجعلهما نقطة انطلاقه لاحتلال الساحل باكمله .

احتلال الساحل باكمله يعني في الواقع مد حزام من القواعد العسكرية على طول المنطقة الواقعة بين الاسكندرية شرقا وبين طنجة غربا ، وهي الخطة المستحيلة نفسها التي كانت روما قد اكتشفت قبل ذلك بألف سنة تقريبا انها مستحيلة وباهظة التكاليف معا . لكن روجر كان عليه أن يتعلم درسه بنفسه .

سنة ٥٣٧ تقدم نحو طرابلس وانزل قوات ضخمة تحت اسوارها ، لكن الاهالي داخل المدينة وخارجها واجهوه في جبهة واحدة وارغموه على الانسحاب . بعد ثلاث سنوات عاد روجر يحاول من جديد تحت ظروف مجاعة رهيبة في طرابلس . وفي هذه المرة نجح في الوصول الى القلعة بحاميات قادرة على الاحتفاظ بها ، وتمكن من بسط نفوذه على جميع احياء المدينة داخل الاسوار ، ومن طرد آخر الولاة الزناتيين محمد بن خزرون بن خليفة . وبذا دخلت طرابلس تحت الحكم الاجنبي لاول مرة منذ سقوطها في يد الرومان خلال القرن الاول قبل الميلاد .

عهد روجر بولاية طرابلس الى رافع بن مطروح ، وبقضائها الى ابي الحجاج يوسف بن زيري ، « تاركا احكام المسلمين كلها في ايدي واليهم وقاضيهم » . وانشأ ابن مطروح مجلس شورى من عشرة شيوخ كانوا يجتمعون في المسجد لتدبير شؤون البلد ، فعرف هذا المسجد في ذلك الحين باسم مسجد العشرة .

المائة عام الثانية :

...وهزت الكارثة ضمير الامة الاسلامية بأسرها ، وانتفضت شعوب المنطقة بآخر عروق في جسدها المتعب لصد الغزو الصليبي وتوحيد شمال افريقية تحت سلطة واحدة ، وتقدمت دولة الموحدين رافعة راية الجهاد في آخر ومضة من ومضات الضوء الغارب ، فانتزعت اراضي المغرب الاقصى والاوسط من سلطة المرابطين المتداعية ، ثم انطلقت شرقا نحو معاقل الصليبيين في تونس .

سنة ٥٥١ افتتحت مدينة صفاقس مسيرة الجهاد ضد الصقالبة باشعال الثورة المسلحة داخل المدينة ، وما لبثت النار ان امتد لهيبها على طول الساحل التونسي حتى بلغت طرابلس سنة ٥٥٣ ، فهاجم اهلها الحامية الصقلية المرابطة فيها ، « واخذوا رجالها قبضا بالايدي وذبحوهم واحرقوا بيوتهم » . وطوال هذا الوقت كان من الواضح ان حركة الجهاد بأسرها تدين بوجودها لقوة الموحدين .

لكن المشايخ من زعماء القبائل رأوا في هذه القوة خطرا محققا على كياناتهم المتمثلة في مشيخات مستقلة ، فاتفقوا على مجابهة الموحدين واعدوا حملة ضخمة تتولى المبادرة في الهجوم ، وتقدموا فعلا لضرب جيش الامير عبد المؤمن الذي عمد الى استدراجهم نحو مكان وعر عند منطقة سطيف حيث دارت معركة اسفرت عن هزيمة المشايخ وتبعثر قواتهم . ومنذ ذلك الوقت اصبح الموحدون مركز القوة الوحيد في شمال افريقية ونجحوا بسهولة في فتح جميع المدن الافريقية ، باستثناء مدينة المهدية ، التي كانت مقاومة الصقالبة فيها شديدة الى ان سقطت اخيرا سنة ٥٥٥ .

بعد فتح المهدية ، اقبلت وفود المناطق تعلن الولاء للقائد الموحدي عبد المؤمن . وكان على رأس وفد طرابلس رافع بن مطروح الذي كان ترحيب عبد المؤمن به شديدا . وقد بقي ابن مطروح واليا للموحدين على طرابلس حتى بلغ الشيخوخة ، فاستأذن سنة ٥٦٨ في التوجه الى الحج ، وسافر مع اهله الى الاسكندرية حيث توفي خلال العام نفسه . اما ابناء القبائل المحيطة بطرابلس ، فقد دعاهم عبد المؤمن ، وابنه ابو يعقوب من بعده ، الى مشاركة الموحدين في الجهاد ، فلبى الدعوة اعداد منهم اشتركت رسميا مع جيوش الدولة في الغارات على الاسبان في الاندلس وعلى جزر البحر المتوسط .

لكن الموقف كان مشبعا بروح اليأس .
وكان ظهور الموحدين انفسهم مجرد انتفاضة أخيرة اقرب الى شهقة

الموت منها الى رعشة الميلاد . فلم تكن الاخطاء المتراكمة قابلة للاصلاح حقا ، ولم يكن ثمة بد من ان يسير كل شيء في مجراه الطبيعي الى منتهاه . ان عصر الموحدين لا يشهد توحيد شمال افريقية ، بل يشهد تقويض كل امل في وحدته على ايدي اربعة مغامرين خلال ملحمة دامية من ملاحم العنف والصراع على السلطة .

ففي سنة ٥٦٨ جرد صلاح الدين الايوبي حملة ضخمة باتجاه المغرب ، وبين قادة هذه الحملة كان ثمة اثنان من المماليك الارمن : احدهما يدعى ابراهيم بن قراتكين ، والآخر يدعى قراقوش التقوي .

على اطراف برقة توقفت الحملة ، وقرر قائدها ـ وهو احد اشقاء صلاح الدين ـ ان يعود بها الى القاهرة . لكن هذين المملوكين لم يعودا معه ، بل واصلا السير على رأس كتائبهما حتى بلغا ـ فيما يبدو ـ مدينة اجدابيا حيث افترقا في اتجاهين :

ابراهيم بن قراتكين اوغل غربا بمحاذاة الساحل وانطلق الى مدينة قفصة .ويقال انه احتلها واستقل بها عن الموحدين حتى استردها منه وقتله فيها المنصور يعقوب الموحدي .

قراقوش التقوي انحرف جنوبا ، وانطلق يغير على مدن الصحراء وواحاتها ، وكلما دخل بلدا غرم اهله او صادر اموالهم في غارة نهب سافر ، لكنه شخصيا ظل يعتبرها خطة عسكرية ملحة لتأمين ظهر صلاح الدين ، وظل يخطب باسمه على المنابر ويحيطه علما بذلك حتى اشرف على مدينة غدامس .

هناك ، يقال انه التقى بابراهيم بن قراتكين ، فاشتركا في مباغتة المدينة ، ثم دخلا جبل نفوسة وانطلقا يعيثان فيه فسادا عبر سلسلة من المغامرات المتلاحقة حتى افترقا مرة اخرى قرب طرابلس . وفي هذه المرة توقف قراقوش عن السير غربا ، محدثا تغييرا حاسما في خطته السابقة ، فاحتل طرابلس في اواخر سنة ٥٦٨ ـ بمساعدة فعالة من القبائل الثائرة على حكم الموحدين ـ املا ان تصبح نقطة انطلاقه لبناء دولة موحدة اخرى . وقد تمكن بالفعل من القفز على قابس سنة ٥٨٣ ، فاحتلها واتخذها عاصمة بمثابة عتبة لتحقيق القفزة الثالثة على بقية اراضي المغرب التي بدت لعينيه ، في ظروف الفوضى السائدة ، بمثابة كنز على جزيرة مهجورة . لكن الشركاء كانوا قد ظهروا فجأة في الافق .

ففي هذا الوقت كانت اسرة بني غانية المرابطية قد خسرت المعركة

الحاسمة ضد الموحدين وشرعت تتراجع امامهم شرقا على طول اراضي المغرب . وكان علي بن غانية قد توقف لشن هجوم معاكس على تونس في محاولة اخيرة لصد زحف الموحدين . ولم يكن قراقوش يملك مكانا على هذه الجبهة الملتهبة سوى مقعد متواضع في ديوان احد الاميرين . انه ينحاز الى الموحدين ، لكنه - مثل اي مغامر حقيقي - ينطلق ظاهريا في الاتجاه المعاكس وينحاز موقتا الى بني غانية .

وصل الهجوم المعاكس الى مدينة قفصة سنة ٥٨٢ ، فأقام فيها بنو غانية وقراقوش حامية مشتركة هزمت جيشا موحديا ارسله الامير المنصور يعقوب . لكن الامير الموحدي خرج اليهم بنفسه واشتبك معهم في معركة جرت قرب قابس سنة ٥٨٣ فهزمهم وبعثر قواتهم الرئيسية .

بعد ثلاث سنوات توفي علي بن غانية ، فتولى اخوه يحيى زعامة رجاله . ووجد قراقوش ان الوقت قد حان لكي يراجع خططه وحساباته ويقرر مصالحة الموحدين ، فسارع الى تونس واعلن لهم الطاعة امام عامل الامير المنصور يعقوب .

لكنه عاد فغير رأيه فى الحال ، وفر الى قابس فدخلها برجاله مخادعة وقتل من اعترضه من اهلها . ثم واصل حملته ضد القبائل التي كانت قد انحازت الى الموحدين ضده . وبعد ذلك زحف باتجاه طرابلس فتمكن من استعادتها ، وانطلق منها الى شط الجريد ، فاستولى على اكثره ، ثم عاد الى طرابلس .

اذ ذاك قرر يحيى بن غانية - الذي اصبح في الواقع الخصم الرئيسي لقراقوش - الزحف على طرابلس ومحاصرتها . وبعد قتال عنيف خارج اسوارها وداخلها اسفرت المعركة بين الشريكين المتخاصمين عن انسحاب قراقوش الى الجبال وسقوط طرابلس في يد يحيى سنة ٥٨٦ .

لم يبق يحيى بن غانية طويلا في طرابلس ، بل اكتفى باقرار الامور فيها ، وبتعيين ابن عمه واليا عليها ، وغادرها الى قابس فدخلها سنة ٥٩١ ، ثم افتتح مدينة تونس سنة ٥٩٩ ، وانطلق يشن حربا كاسحة ضد الموحدين على مدى سنين طويلة ، حتى استتب له الامر في ولاية افريقية بكاملها . وبعد ذلك استدار نحو جبل نفوسة ، لكنه لم يحقق شيئا في هذه المنطقة سوى انه خربها واحرق مزارعها .

توفي المنصور يعقوب زعيم الموحدين ، وخلفه اخوه الناصر . فرأى الامير الجديد ان الظروف مؤاتية لاستعادة ما اغتصبه بنو غانية من املاك

الموحدين في افريقية . وخرج اليهم سنة ٦٠١ بجيش بري واسطول بحري . وعندما سمع اهل طرابلس بسير امير الموحدين الى سواحلهم ، ثاروا على عامل يحيى بن غانية وطردوه من المدينة .

اما ابن غانية نفسه ، فقد ظل يحاول ايقاف زحف الموحدين نحو مناطق نفوذه حتى ادركه اليأس بعد سلسلة من المعارك ، فاستسلم للامر الواقع وفر الى ودان. وهناك التقى ببعض القبائل الحانقة على قراقوش ، فقبلت مناصرته لها عليه ، وبالفعل تمكن ابن غانية من محاصرة قراقوش وقتله .

غير ان الاقامة طابت له في ودان البعيدة عن الساحل وعن سيطرة الموحدين . فمكث فيها حتى باغته الموحدون بجيش حاصره داخلها على حين غرة . ورغم انه تمكن من الهرب الى ناحية الزاب بالمغرب الاوسط ، فان جيش الموحدين لحق به وطارده من مكان الى مكان ، حتى تمكن منه اخيرا في معركة قرب مدينة تونس ، فهزمه سنة ٦٢١ وقتل الكثيرين من رجاله ، بيد انه شخصيا افلت من القتل لكي يموت مشردا في برية تلمسان سنة ٦٣١ .

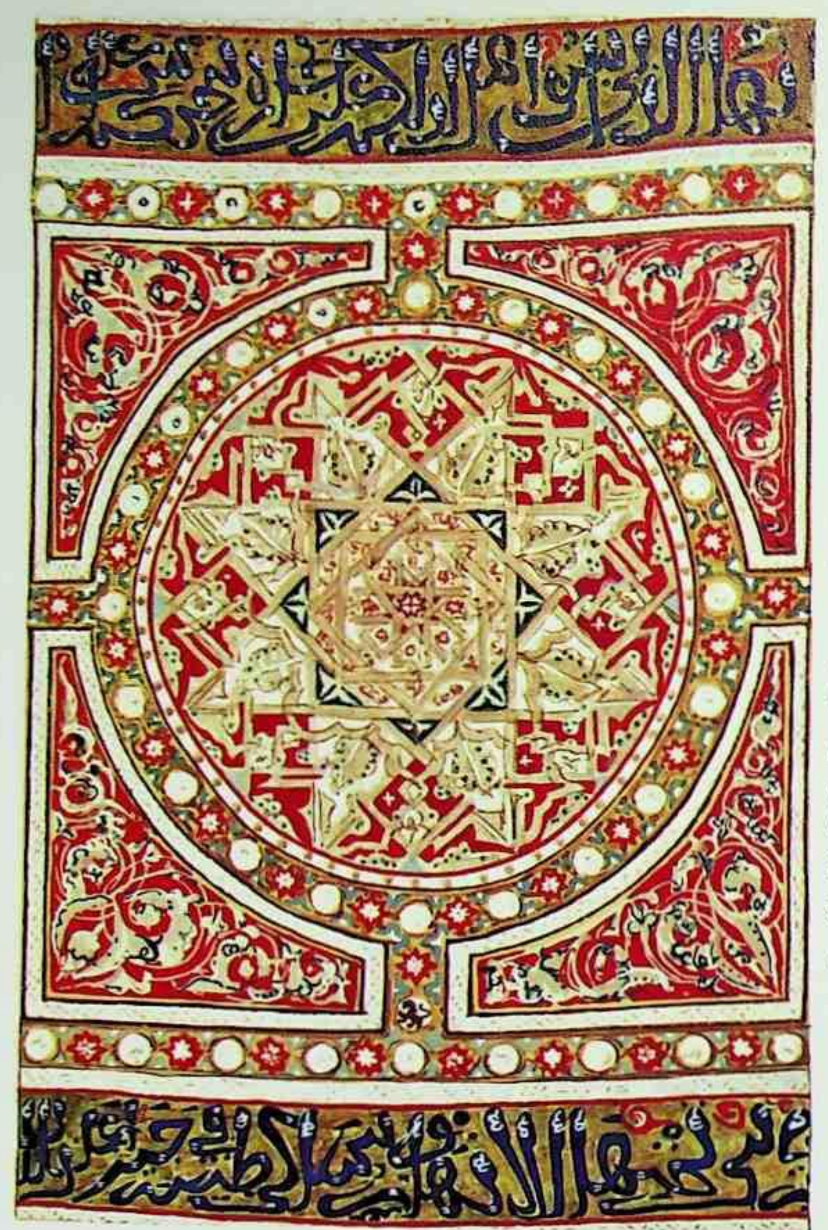
لكن المنطقة لم تهدأ .

ولم يكن لدى الموحدين من القوة ما يكفي لصد موجة العنف التالية التي غطت ولاية افريقية سنة ٦٢٥ ، وانتهت بخلع والي الموحدين الحفصي على افريقية عبد الله بن عبد الواحد على يد شقيقه ابي زكريا يحيى الذي ما لبث ان اعلن استقلاله عن الموحدين ، جاعلا من الولاية نفسها امارة حفصية .

المائة عام الثالثة:

دخلت طرابلس تحت حماية هذه الامارة منذ اعلان انفصالها سنة ٦٢٦ ، وأحس اهلها طعم الحياة المسالمة في جوار دولة قوية ، فاظهروا للحفصيين ولاء شديدا عبروا عنه في احباطهم لثورة كان ابو عبد الرحمن يعقوب يخطط لها للاستقلال بالمدينة عن دولة اسرته الحفصية . فقد اجتمع عقلاء المدينة وتشاوروا بالامر ، ثم القوا القبض عليه وارسلوا للامير ابي زكريا بذلك ، فامر بقتله مع جميع رجاله .

لكن هذا الولاء ازعج بمرور الزمن مشايخ القبائل المجاورة ، فبادر مرغم بن صابر الدبابي ، شيخ قبيلة المراغمة ، الى السعي للحصول على امر



لوحة ٦١ :
تحف
هذا العصر
المضطرب تمثلت
خصوصا في رايات
القتال .
وقد اظهر
الموحدون
ذوقا متميزا في
تزيين راياتهم
ذات الزخارف
الملونة
والنجمة المثمنة
الأضلع .

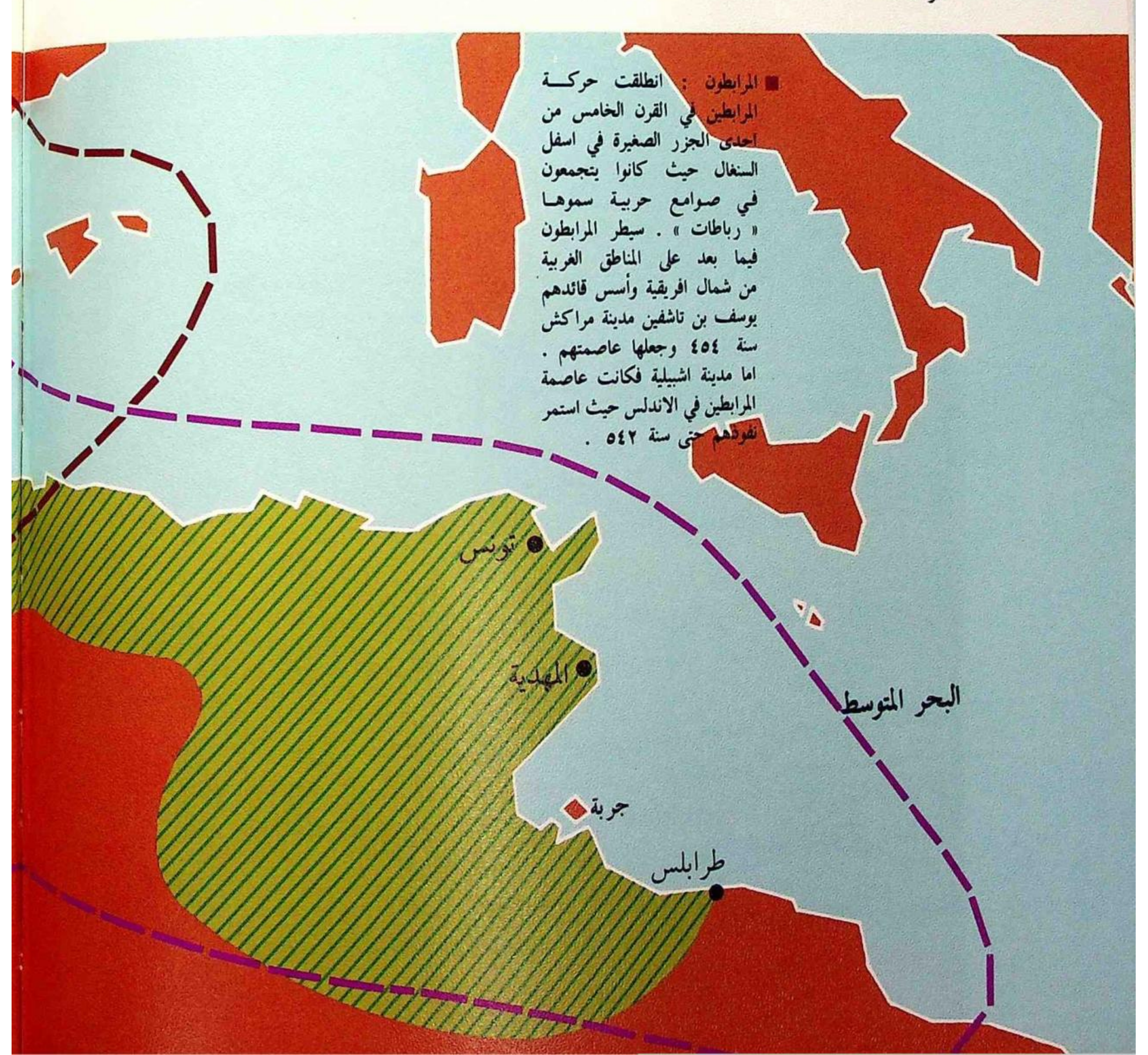
من الامير الحفصي يمنحه ، بدءا من سنة ٦٧٦ ، ملكية قرية زنزور المجاورة لطرابلس ، بمثابة قاعدة مضادة لحفظ التوازن في المنطقة . وتحت هذه الظروف الغريبة اعيد فتح الباب من جديد لعصر آخر من عصور المغامرات الدامية :

ففي سنة ٦٨١ ظهر في طرابلس رجل يسمى احمد بن مرزوق ـ وشهرته الدعي ـ كان يستعمل الشعوذة لاستمالة الناس اليه من اجل الوصول الى الحكم . وقد التقى به مرغم بن صابر ، فاتفقا على العمل معا ، واخذا يشيعان ان الدعي من سلالة الحفصيين الاوائل . ثم استحصلا على تأييد السلطان المملوكي بمصر ، المنصور قلاوون ، لاضفاء صفة الشرعية على الحركة ، الامر الذي كان له تأثير كبير على القبائل ، فالتف الكثيرون حول الحليفين وساروا وراءهما لحصار طرابلس .

صمدت لهما طرابلس ، فارتدا على القبائل القاطنة حولها ، وأخذا يبتزان الاموال منها . ثم زحفا على قابس ، فأبدى عاملها الخضوع ، وبايع الدعي الذي ما لبث ان استولى على توزر وقفصة والقيروان والمهدية وصفاقس وسوسة .

في السنة ذاتها دخل الدعي تونس ، بعد ان الحق الهزيمة بالامير ابراهيم الحفصي واضطره للفرار الى بجاية . ثم التحم مع ولده ابي فارس ، فهزمه بدوره في معركة قتل فيها ابو فارس مع عدد من اخوته وارسلت رؤوسهم الى تونس . وبعد ذلك استبد بحكم الامارة الحفصية حوالى سنتين حتى خذله اتباعه ، وفي مقدمتهم مرغم بن صابر ، وانحازوا فجأة الى الامير ابي حفص

لوحة ٦٢

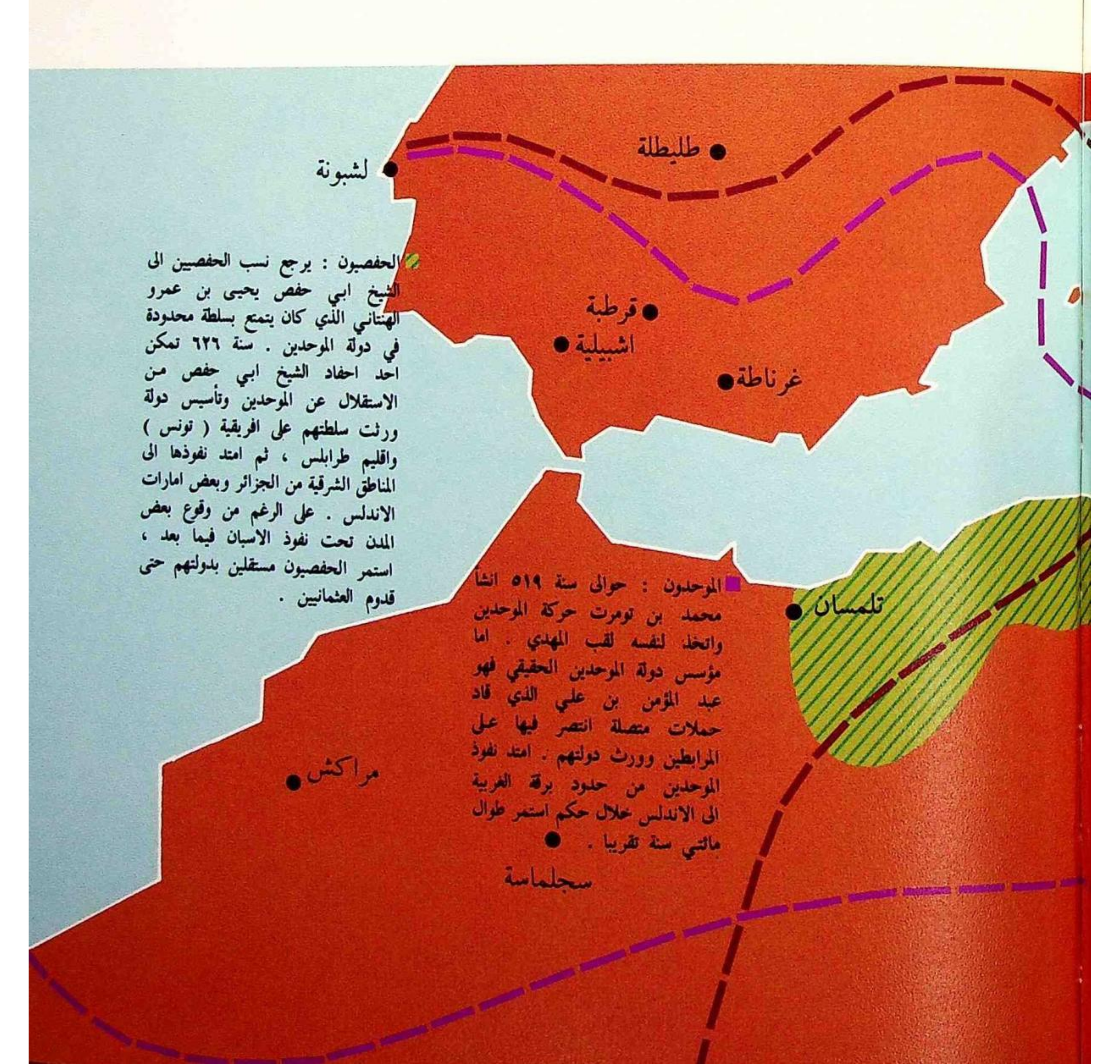


عمر الذي دخل تونس سنة ٦٨٣ وتمكن من قتل الدعي .

لكن المنطقة لم تهدأ .

ولم يكن لدى الحفصيين من القوة ما يكفي لايقاف موجة العنف التي ظلت تجتاح الولاية حتى تورطت الاسرة الحاكمة نفسها في صراع عائلي دام بين ثلاثة من امرائها :

ابو البقاء خالد حاكم الامارة في تونس ، وشقيقه ابو بكر صاحب قسنطينــة ، وابو يحيى زكريا صاحب طرابلس . وقد بلغ الصراع حد الاشتباك المسلح . ونجح ابو يحيى في احتلال تونس وقتل اميرها ابي البقاء واخذ





البيعة لنفسه سنة ٧١١ ، لكنه عاد فتنازل عنها لابنه بعد ست سنوات امام مؤامرات حليفه السابق ابي بكر الذي ظل يستميل شيوخ القبائل حتى جرهم وراءه في حملة كاسحة اجتاح بها ولاية افريقية بأسرها ، ثم دخل تونس وانتزع السلطة من يد ابن اخيه في العام التالي . وتحت هذه الظروف الغريبة ، اعيد فتح الباب من جديد امام عصر آخر من عصور المغامرات الدامية . لكن المغامرين ، هذه المرة ، جاؤوا من وراء البحار .



لوحة ٦٣ :

طلائع الغارة الاوربية على شمال افريقية قادها الملك لويس التاسع سنة ٦٦٩ ، وهاجم بها سواحل تونس في أول محاولة لانزال قوات اوربية كبيرة على أرض افريقية منذ غارة سكيبو على قرطاجة سنة ١٤٦ قبل الميلاد . والسبب هذه المرة ؟ رسميا لا شئ . فكل ما حدث ان الملك نذر ان يشترك في الحملات الصليبية اذا شفي من مرضه ، وقد شفي حقا ، فقام بحملة على مصر ، ثم بحملته هذه على تونس ، لكنه مات فجأة قبل ان تنتهي ، وتقدم اخوه لعقد معاهدة مع الحفصيين .

المائة عـام الرابعة :

في سنة ٧٥٥ ، وفيما كانت طرابلس تنعم بفترة هدوء نسبي في عصر بني ثابت ، ظهرت في الميناء قطع من اسطول جنوى ، زعم ربانها انه يحمل مواد غذائية يرغب في عرضها للبيع اذا كان بوسع الوالي ان يؤمن له الحماية . ويبدو ان الوالي استسلم لاغراء الكسب المتوقع ، وهو خمس ثمن البضائع التي تباع ، فقرر جمع الاسلحة من جنوده ليطمئن بال « التجار » الاجانب .

وما ان خيم الظلام على المدينة حتى تسلق الجنويـون اسوارها وابادوا حاميتها في وقت قصير . فهرب الوالي متدليا بعمامته من السور واحتمى عند جماعة في الضواحي اتفق ان كان لهم عليه ثأر فقتلوه . اما جنوده فكانوا قد سبقوه ايضا الى الفرار وتفرقوا في مختلف المناطق تاركين المدينة في ايدي الجنويين الذين نهبوا واسروا وسبوا ، ثم عاد بعضهم الى جنوى وبقي بعضهم مقيما في طرابلس .

خلال الخمسين عاما التالية كانت اسرة بني ثابت قد استعادت الحكم في طرابلس ، بعد ان اخلاها الجنويون مقابل فدية مالية . لكن نفوذ اسرة بني ثابت انتهى اخيرا ، بسبب النزاعات بين افرادها ، على يد الامير الحفصي ابي فارس عبد العزيز سنة ٨٠٣ ، فعادت طرابلس اذ ذاك مرة ثانية الى سلطة الحفصيين . ❋

اول وال عينه الحفصيون على طرابلس سنة ٨٠٣ رجل من ثقات الامير الحفصي . فلما توفي ولى الامير عليها ابنه محمدا المنصور ، الذي ظل يديرها حتى توفي بها سنة ٨٣٣ ، فاسندها الامير الى ابي محمد عبد الواحد بن حفص .

لكن ابا محمد لم يقبل ولاية طرابلس الا بثلاثة شروط :

الاول : الا يجرد منها قبل ان يستكمل الاستقرار والازدهار في طرابلس .

والثاني : ان يستقل بادارتها ، فلا يوجه اليه اي امر مهما كان .

والثالث : ان يكون له الجند الذي يشاء .

وقد وافق الامير فورا على هذه الشروط ، لانه كان منهمكا في محاربة سلطان بني مرين ، صاحب فاس ، وكان في حاجة الى رجل حازم يريحه من مشاكل الحكم والادارة في طرابلس .

ومنذ ان وصل هذا الوالي الى طرابلس تفرغ للعمل على اقرار الامن

واشاعة الطمأنينة في محاولة شجاعة لحل مشاكل اربعة قرون من الفوضى ، واعادة الحياة الى المدينة المتعبة . وكذلك فعل خلفه ابو بكر ، ابن الامير الحفصي عثمان المنصور ، الذي تولى امر طرابلس سنة ٨٥٨ .

لكن المنطقة لم تهدأ .
ولم يكن من شأن صراع الاسر على السلطة ان يؤدي الى نتيجة اخرى سوى مزيد من الصراع .

المائة عام الخامسة:

فما لبثت المعركة ان نشبت من جديد بين ابي بكر والي طرابلس ، وبين ابن اخيه يحيى بن محمد المسعود الذي تجاهل عمه واستلم الامارة من جده مباشرة سنة ٨٩٣ . وفي هذه المرة رفض الاهالي ان ينساقوا وراء الوالي ، وتقدموا لنزاله بمساعدة من قبيلة بني غراب ، في معركة اسفرت عن اسره واعدامه بأمر من ابن اخيه قبل نهاية العام نفسه .

لكن المنطقة لم تهدأ .
ولم يكن من المتوقع ان يتم التحالف فورا بين القبائل وبين المدن بعد خمسة قرون من القتال المستمر . وقد بادرت قبيلة بني غراب فبسطت حمايتها على محمد بن الحسن والي طرابلس الجديد حتى اصبح مجرد دمية في يدها ، ثم انطلقت تعيث فسادا في المدينة خلال فترة قاسية من اعمال القتل والسلب ، حملت الامير الحفصي على ارسال حملة بقيادة ابي البركات السلماني ، حاصرت طرابلس برا وبحرا لمدة سبعة اشهر ، وكادت ان ترغمها على فتح ابوابها لولا ان ابا البركات مات فجأة وقرر عساكره ان يفكوا الحصار .

اربعة وجوه من ساحة الحرب :


قراقوش


ابن غانية

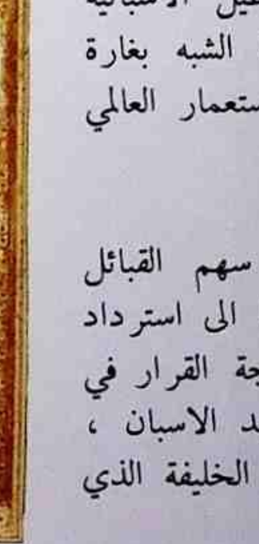

مرغم بن صابر


عبد الله بن شرف

ثم بدأ عصر اليأس .
واكتشفت القبائل ، واكتشف سكان المدن ، ان خمسة قرون من الصراع الداخلي لم تحل مشاكلهم ، بل جعلتها فعلا مستحيلة الحل ، وقادتهم الى النقطة التي لا رجوع منها بين طرفي الكماشة المطبقة عليهم برا وبحرا : فالصليبيون يذرعون سواحلهم باساطيلهم الضخمة في انتظار أية فرصة سانحة للشروع في عمليات الانزال واحتلال اراضيهم ، والمغامرون المحليون يذرعون شوارع مدنهم ، على رأس عصابات مسلحة من الحراس والانصار الجاهزين لاداء اي دور في اية مؤامرة تحملهم الى كراسي الحكم على ارض تهددها المجاعة والفوضى .

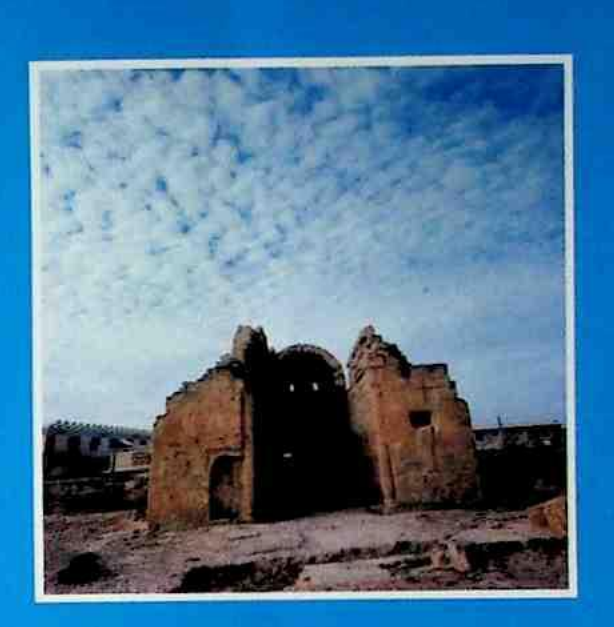
وتحت هذه الظروف اليائسة على كل الارض ، لم يكن ثمة مفر من ان يستدير المواطن بحثا عن العون من السماء : ان مدن شمال افريقية تشهد بالتدريج ظهور التكايا المزدحمة بالصوفيين والمشعوذين ودعاة السحر والتطبيب ، ويستسلم مواطنها للغيبوبة في عوالم خرافية جامحة صفتها الوحيدة المشتركة انها جميعا لا علاقة لها بالواقع . اما الحكام انفسهم فقد اصبحوا في الغالب مجرد شيوخ زوايا .✲

ففي طرابلس تم انتخاب شيخ يدعى سيدي منصور لتولي شؤون المدينة ، بعد ان فك الحفصيون حصارهم وقرروا ان يتركوها وشأنها . وقد بقي سيدي منصور في الحكم حتى اغتاله احد اقربائه سنة ٨٩٦ ، فغرقت المدينة من جديد في عهد من الفوضى الشاملة ، انتهى بانتخاب شيخ آخر يدعى عبد الله بن شرف سنة ٩١٠ . وفي هذه المرة كان الاهالي يدعون حاكمهم علنا باسم « المرابط » ، وكان الشيخ نفسه يتحصن في صومعته المظلمة ، مديرا ظهره للدنيا ، في عصر شهد انوار فجر النهضة في اوربا ، وظهور الاساطيل الاسبانية على طول سواحل المغرب في غارة شديدة الشبه بغارة روما الكاسحة التي افتتحت بها عصر الاستعمار العالمي خلال القرن الاول قبل الميلاد .



فلعل الخليفة الفاطمي ، الذي اطلق سهم القبائل المهاجرة على شمال افريقية ، كان يهدف حقا الى استرداد المنطقة من خصومه الصنهاجيين ، لكن نتيجة القرار في ارض الواقع ان المنطقة بأسرها سقطت في يد الاسبان ، مما يحدد بوضوح الى اي مدى طاش سهم الخليفة الذي لا يحسن التصويب .

...واكثر من ذلك . وقبل تخريب مراكز الادارة ، وتقويض سلطة الصنهاجيين في شمال افريقية ، كان قرار الخليفة الفاطمي موجها أولا ضد الشعب نفسه ، وكانت خطته بتخريب مدنه على طول الساحل الشمالي لافريقية مجرد لطمة هوجاء لهدم المراكز الحضارية الوحيدة التي كان بوسعها أن تتصدى لرد الغارة الاوربية القادمة عبر البحر . ان الخليفة الفاطمي يعلق في عنقه مسؤولية هذا الخطأ المميت بشهادة من اهل العصر .



لوحة ٦٤ و ٦٥ قصر اجدابيا :

من المرجح ان قصر اجدابيا كان احد القصور التي بناها الخليفة الفاطمي على طول الطريق بين المهدية وبين القاهرة خلال انتقاله الى مصر في اواسط القرن الرابع .

هو بناء مستطيل قائم الزوايا طوله ٣٥ مترا وعرضه ٢٥ مترا ، يرتفع في كل زاوية من زواياه الاربع برج مستدير يبلغ قطره خمسة امتار ، وتقوم في منتصف كل من جدرانه الطويلة دعامة حجرية مربعة . مدخله الفخم يؤدي الى ساحة داخلية مساحتها ١٤ مترا مربعا تقوم على جانبيها حجرات الحراس والخدم . في صدر الساحة صف آخر من الحجرات الضخمة يدخل اليها عبر رواق .

شهادة من أهل العصر

مدن ليبيا قبل الحرب الاهلية
في نص ابن حوقل المتوفى سنة ٣٨٠ هـ
وفي نص البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ

اجدابيا عند البكري :

بها عين ماء عذب ولها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الاشجار الا الأراك . وبها اسواق حافلة مقصودة وأهلها ذوو يسار ، وهي راخية الاسعار كثيرة التمر الذي تأتيها صنوف منه من أوجلة .

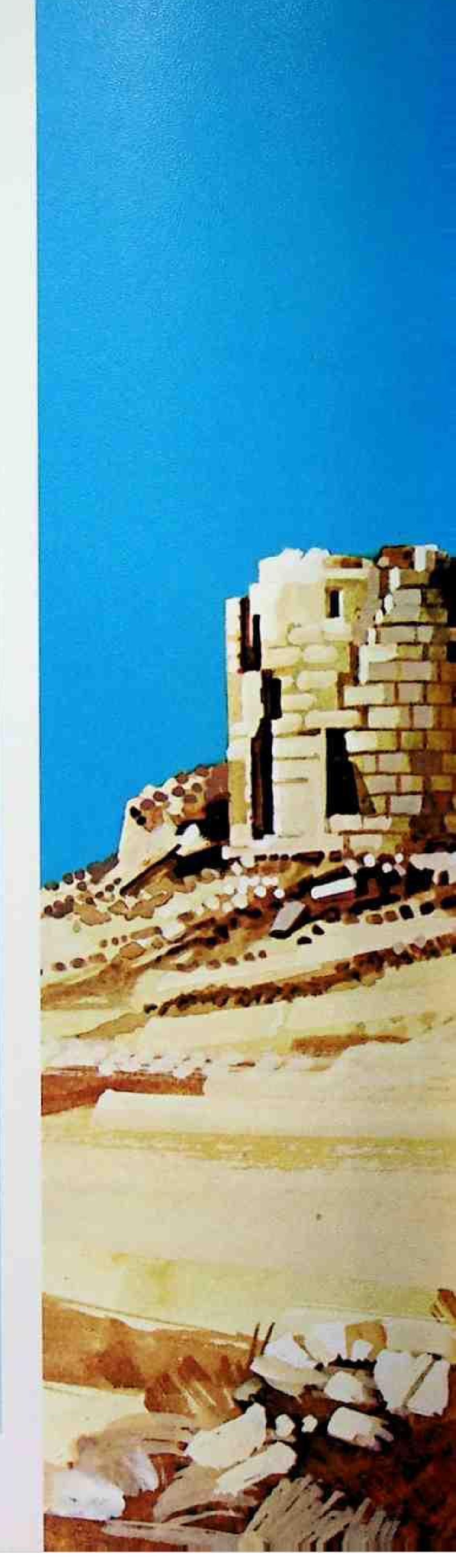
عند ابن حوقل :

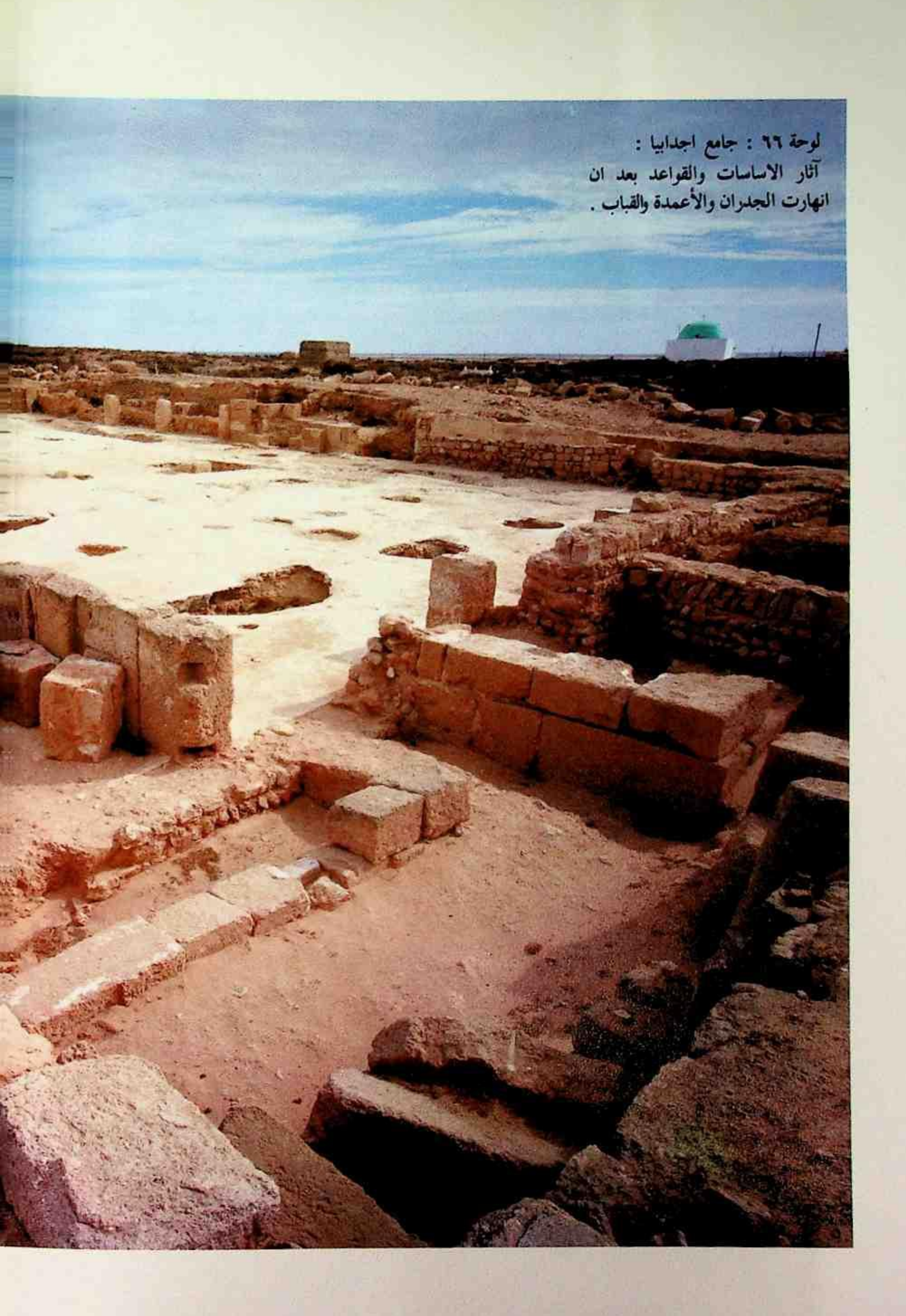
هي قريبة من البحر ، ترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها بضروب من التجارة . واكثر ما يصدر منها الاكسية وشقق الصوف . وهي تستقبل المتاجر الصادرة من السودان والواردة اليه على ظهور القوافل ، ويجبي عاملها من تلك القوافل الضرائب الجمركية المناسبة .

ولها زرع بالبخس ، وليس بها ماء جار ، وبها نخيل حسب كفاية اهلها وبمقدار حاجتهم . ويقوم عاملها بما عليها من وجوه الاموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم .

الجامع :

بناء شبه مستطيل قائم الزوايا طوله ٤٧ مترا وعرضه ٣١ مترا ، يحيط به على جهاته الاربع فناء يحده صف متصل من الاعمدة .





لوحة ٦٦ : جامع اجدابيا :
آثار الاساسات والقواعد بعد ان انهارت الجدران والأعمدة والقباب .



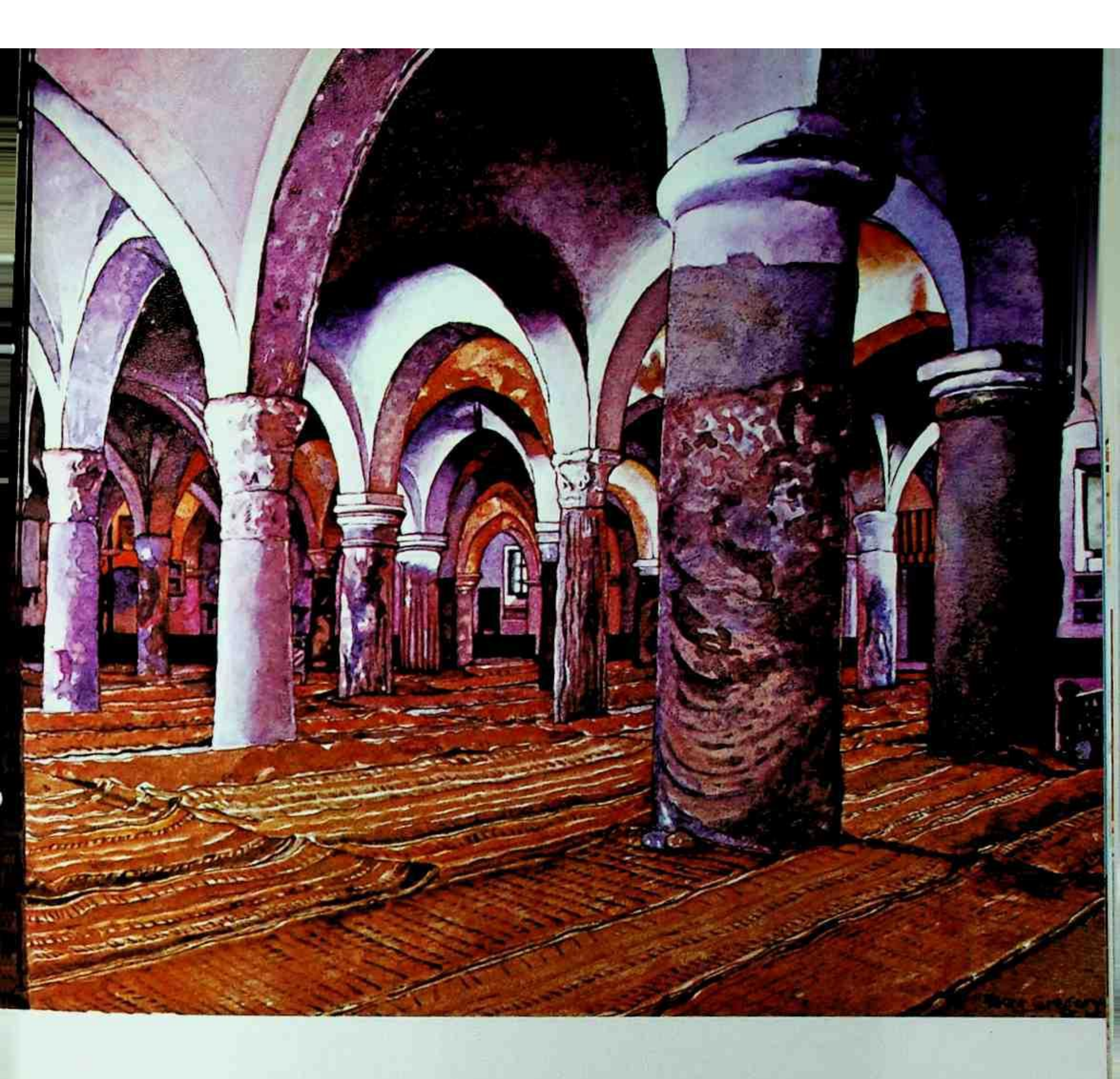
متحف شحات .



لوحة ٦٧

مئذنته ـ كما وصفها البكري ـ بناء ينتهي في اعلاه بقاعدة صخرية مربعة يعلوها بناء مثمن الشكل ، لكنها تتميز بخاصة معمارية غير عادية وهي وجود درج حجري خارجي يصعد عليه الى القاعدة الصخرية المربعة، فضلا عن درج آخر داخل البناء المثمن .

تاريخ تشييده يظهر على بقايا نقوش حفرت عليها سنة ٣١٠ او ٣٢٠ ، واسم بانيه الخليفة الفاطمي الثاني القائم ابو القاسم . لذلك يمكننا التأكيد ان هذا المسجد يعود الى العهد الفاطمي الباكر . وهو بالواقع يمثل مرحلة من مراحل تطور الفن الفاطمي ، او بتعبير ادق ، يمثل مرحلة وسطى بين اول مسجد فاطمي بني في المهدية سنة ٣٠٠ ـ وهو مبني على مثاله ـ وبين الجامع الازهر المبني سنة ٣٦٠ .



لوحة ٦٨ و ٦٩ : جامع الناقة :

اقدم الجوامع في طرابلس ، فثمة رواية تنسب بناءه الى عمرو بن العاص نفسه ، لكن الظاهر ان المقصود هو الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي يقال انه مر بطرابلس في طريقه الى مصر سنة ٣٦٢ ، « فخرج اهلها لاستقبال موكبه بحفاوة رد عليها الخليفة بأن أعطاهم حمل ناقة من الذهب . فاختار الأهالي ان ينفقوا المال في بناء الجامع ودعوه باسم جامع الناقة .. »

بيت الصلاة مقسم من الداخل الى مربعات تعلوها قبب صغيرة فوق السقف ، والمحراب يقع في وسط الحائط الجنوبي تقريبا بانحراف يسير نحو الشرق لمراعاة اتجاه القبلة ، لكن اشهر خصائص جامع الناقة ان بعض عواميده أخذت من مبان رومانية قديمة ، وهي ظاهرة تجلت ايضا في مساجد أخرى نائية مثل مسجد غدامس الذي تظهر عواميده الرومانية الى اليسار .

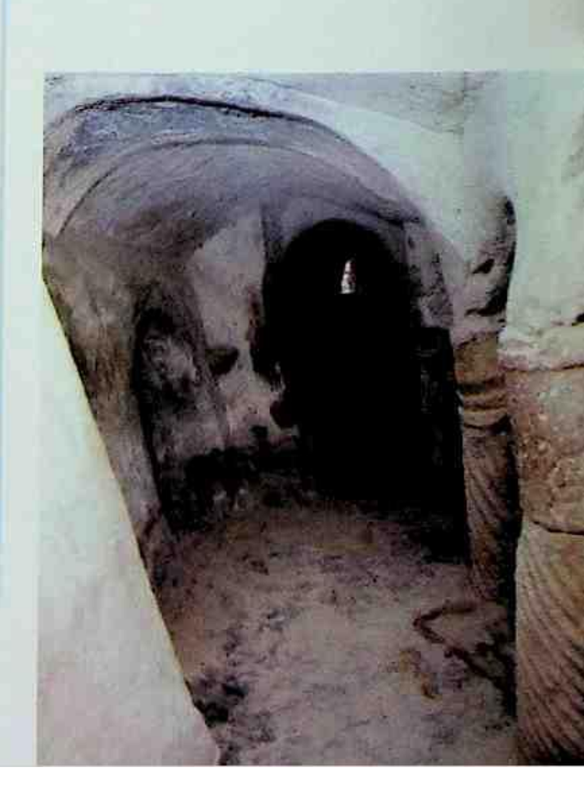
لدينا من هذا المسجد بقايا من قطع الجص المحفور كلها تنم عن صنعة فاطمية باكرة . كذلك يحتفظ متحف شحات من آثار هذا المسجد بثلاث قطع صخرية بعلو يتراوح بين ٣٣ و ٥٤ سنتيمترا ، ظهرت عليها نقوش ناتئة . احد تلك النقوش يسجل وقتا مؤرخا سنة ٣١٠ او سنة ٣٢٠ ، وهو فنيا ابسط النقوش التي عثر عليها حتى الآن من اثار هذا المسجد . النقش الثاني ، المؤرخ سنة ٣٥١ ، تبرز بتفنن على اطرافه العليا الكتابة العربية الكوفية المزخرفة بغصنيات . أما النقش الثالث ، فلا تاريخ عليه ، لكنه اغنى النقوش برسمات الزهر المطوقة بالطوق الساساني . ولعله اقرب النقوش الينا زمنيا .

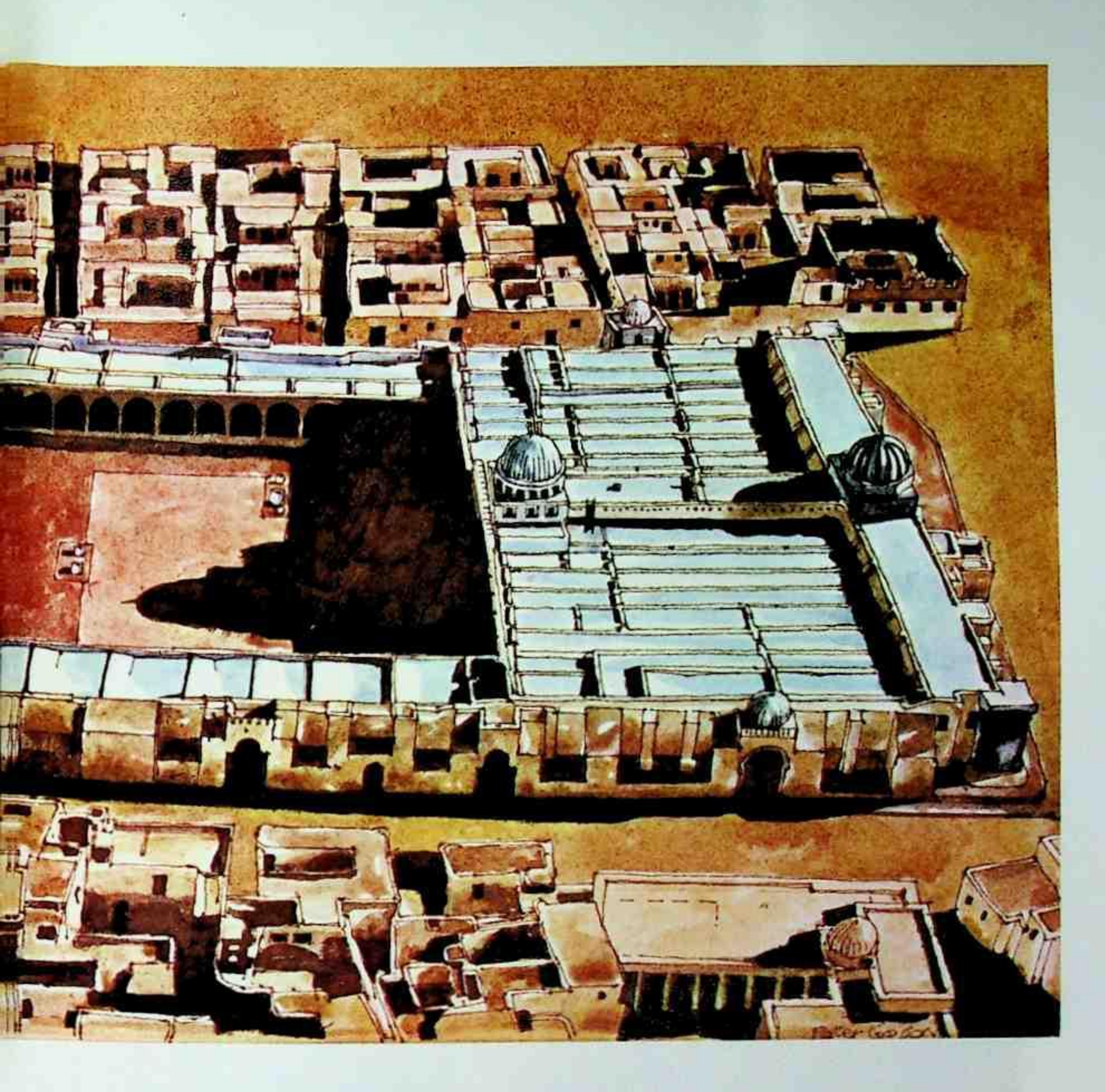


لوحة ٧٠ و ٧١ :



متحف شحات





جامع سيدي عقبة في القيروان

- ينتمي جناحه المصالب ومئذنته الرباعية الجوانب الى الفن الاموي رغم أن بعض ميزات الفن العباسي الباكر بارزة فيه أيضا .

- بناه عقبة بن نافع عندما بنى مدينة القيروان بين سنة ٥٠ و ٥٥ .
- تم توسيعه بعد عدة تعديلات أهمها بناء مئذنته المندمجة ضمن جدار الفناء الشمالي بامر من الخليفة هشام بين سنة ١٠٦ و ١٠٩ .

- زخرفته تتميز بخصائص اساسية منها : المشكاوات المعقودة عقدا كاملا

او هلاليا ، غصنيات الكرمة المنطلقة من رسم بشكل اناء تتفرع منه كالشمعدان وتغطي بالوانها المذهبة قبة المحراب ذات الارضية السوداء ، رسمات الصدف المتكررة على قاعدة المحراب ضمن المشكاوات الزخرفية التي صنعت من الرخام على هيئة اقواس بارزة .

- يقوم على كل جانب من جانبيه الاماميين عمود من الرخام الاحمر .
- قاعدته مغطاة بالواح المرمر المنحوت نحتا ناعما .
- قنطرته الهلالية مبلطة بالقوالب الخزفية ذات اللمعان المعدني . وهذا اقدم تبليط معروف في العالم الاسلامي .

لوحة ٧٢ :

بعد التعديل الاخير الذي أدخله الامير الاغلبي زيادة الله الثاني سنة ٢٢٢ اصبحت مساحة الجامع ١٧٥ مترا طولا ، ٧٠ مترا عرضا وفي داخله ٤١٤ ركيزة تحف بالجناح .

منبره :

- اقدم منبر معروف حاليا ، يعود بناؤه الى ما بين سنة ٢٤٨ وبين سنة ٢٤٩ .
- صنع من خشب الدلب الهندي (التيك) المستورد من بغداد .
- يصعد اليه باحدى عشرة درجة .
- جانبا المنبر مركبان من الواح خشبية منضدة الواحد فوق الآخر في حقول مستطيلة قائمة الزوايا .
- الرسوم المحفورة عليه مؤلفة من غصنيات الكرمة ، والسعائف النصفية باشكالها المتنوعة ، والاقواس . ويتخلل ذلك تطعيم بالصدف والعاج وانواع الاخشاب الثمينة المختلفة الالوان . ويطبع هذه الزخرفة كلها طابع هندسي واضح ينم عن الزخرفة التجريدية التي سيتسم بها اكثر فاكثر الفن الاسلامي من الآن وصاعدا .

مئذنته :

- اقدم مئذنة اسلامية .
- اموية بجوانبها الاربعة وهيكلها الثقيل وقامتها القصيرة .
- تتميز عن الطابع العام لمآذن الامويين في انها غير منفصلة عن بناء الجامع بل مندمجة في جدار السور .





طرابلس عند البكري :

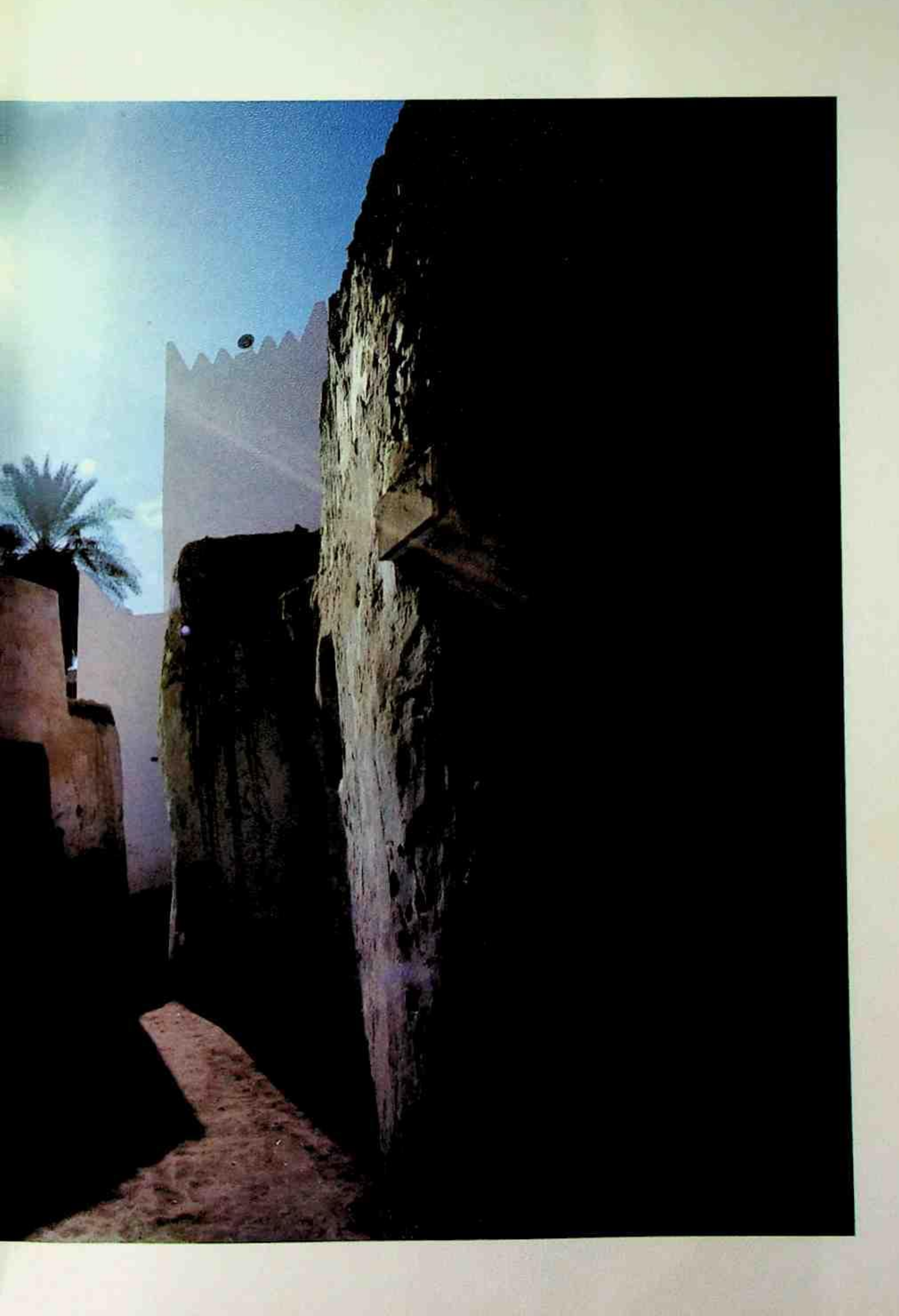
كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقيها ، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير ، وداخل المدينة بئر يعرف ببير أبي الكنود يعيرون به ويحمق من شرب منه ، فيقال للرجل اذا أتى بما لا يلام : لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي الكنود . وأعذب آبارها بئر القبة ... ولمدينة أطرابلس فحص يسمى سوبجين (سوف الجين) يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة ، وهم يقولون فحص سوبجين يصيب سنة في سنين .

عند ابن حوقل :

مدينة بيضاء من الصخر الابيض على ساحل البحر ، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الاسواق . وكان لها في ربضها (ما خارج سورها) اسواق كبيرة نقل السلطان بعضها الى داخل السور . وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطبقات الاكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة ، الى مراكب تحط بها ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مر الاوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وارض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم . واهلها قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الاعراض والثياب والاحوال ،

لوحة ٧٣ : مدن تحت الشمس :

مشكلة توفير الظل في صيف طويل حار مثل صيف افريقية تم حلها هندسيا بثلاث طرق احداها بناء شوارع مسقوفة على جسر من الأقواس .



متميزون بالتجمل في اللباس وحسن الصور والقصد في المعاش ، الى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة مستفاضة ونيات جميلة ، الى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحة بنية ومعاملة محمودة ومذهب في طاعة السلطان سديد ، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب اثيرة ذائعة . ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم فيه اي بلد آخر ، فاذا وردت المراكب ميناءهم عرضت لها دائما الريح البحرية ، فيشتد الموج لانكشاف الميناء ويصعب الارساء ، فيبادر اهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين ، فيقيد المركب ويرسى به في اسرع وقت بغير كلفة لأحد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثقال .

برقة عند البكري :

مدينة دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها ، وأكثر ذبائح أهل مصر منها ، ويحمل منها الى مصر الصوف والعسل والقطران ، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها مقة فوق جبل وعر لا يرقى اليها فارس على حال . وهي كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ، ويتصل بها شعراء عريضة من شجر العرعر .

عند ابن حوقل :

مدينة وسط ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية ، وهي برية بحرية جبلية .

لوحة ٧٤ : مدن تحت الشمس :

الحل الثاني لمشكلة الظل تمثل في بناء أزقة متلاصقة بحيث تتداخل ظلال الجدران لحماية البيوت حتى في منتصف النهار .



ووجوه اموالها جمة . وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة ، وعابرين عليها مغربين ومشرقين . وذلك انها تتفرد في التجارة بالقطران الذي ليس له مثيل في كثير من النواحي ، والجلود المجلوبة للدباغة بمصر ، والتمور الواصلة اليها من واحة اوجلة . ولها كذلك اسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من الشرق والواردة من الغرب ، واسعارها في اكثر الاوقات فائضة بالرخص في جميع الاغذية ...

لبرقة كور عامرة وغامرة وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوما وكسرا في مثله ، ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها ، وارضها حمراء خلوقية التّربة ، وثياب اهلها ابدا محمرة ، ويعرف اهلها بالفسطاط من بين اهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغبرهم . ومن منتجاتها العسل والفلفل والزيت .

سرت عند البكري :

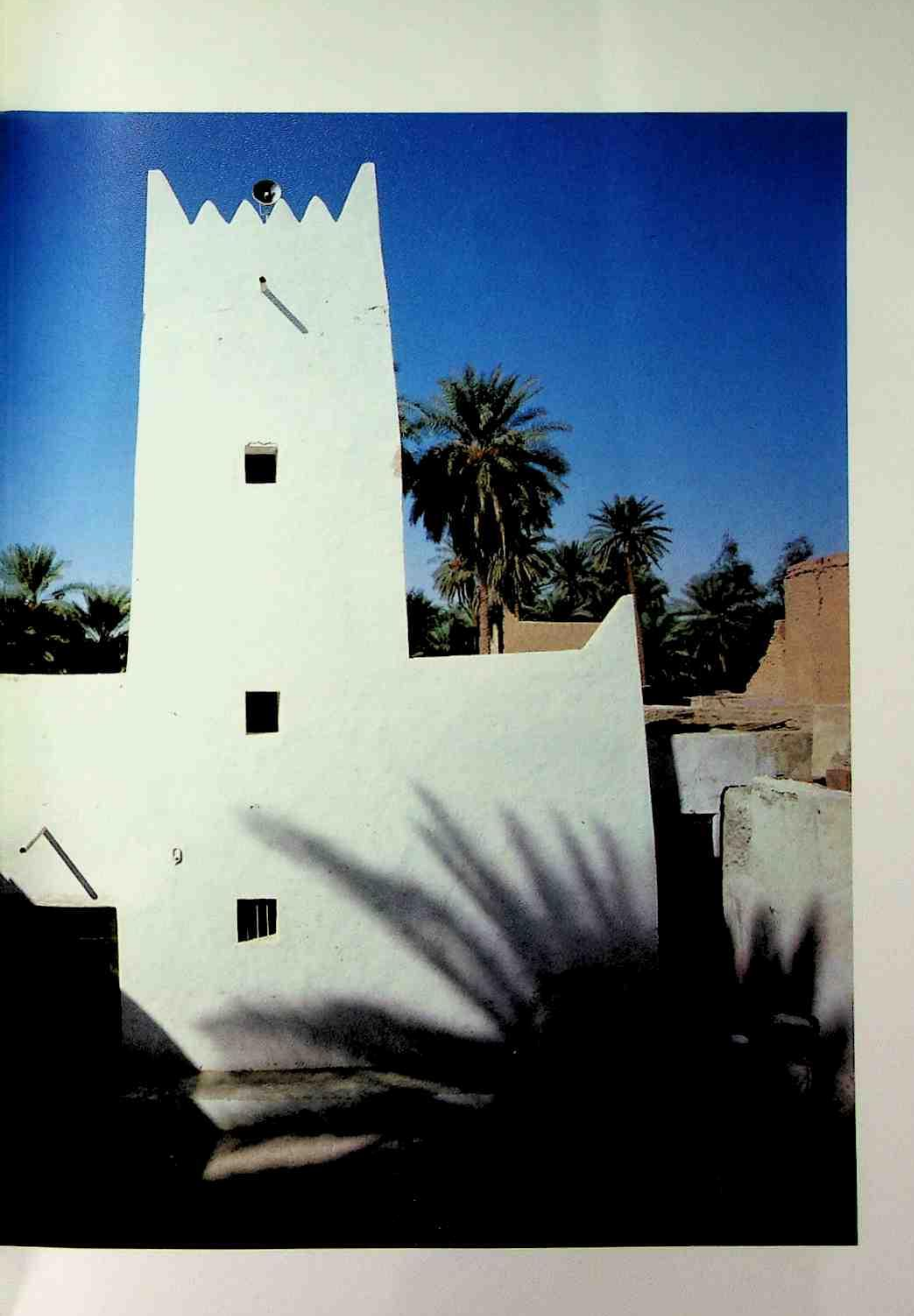
مدينة كبيرة على سيف البحر ، وبها بساتين وآبار عذبة ، وذبائحها من المعز ، ولحمانها عذبة طيبة ليس يؤكل بطريق مصر أطيب من لحومها .

عند ابن حوقل :

هي على غلوة سهم عن البحر في مستواة من رمل . ترد المراكب عليها بالمتاع وتصدر

لوحة ٧٥ : مدن تحت الشمس :

الحل الثالث لمشكلة الظل تمثل في تجزئة الزقاق الى اقسام مسقوفة تعمل فتحاتها على احتجاز تيار الريح .



عنها بشيء منه ، كالشب السرتي الذي هو بها غزير كثير ، والصوف والغنم والابل والاعناب والفواكه . ويتولى صاحب الصلاة في سرت جباية خراجها وجمع صدقاتها وتحصيل ما يجب على القوافل المجتازة بها من ضرائب جمركية . وهو مسؤول عن جميع امور البلد ، وعن النظر فيما يرد اليها او يصدر منها ، واستيفاء ضرائبه ولوازمه ، واعتبار السجلات والبيانات الخاصة بالبضائع وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الاداء عنه بافريقية .

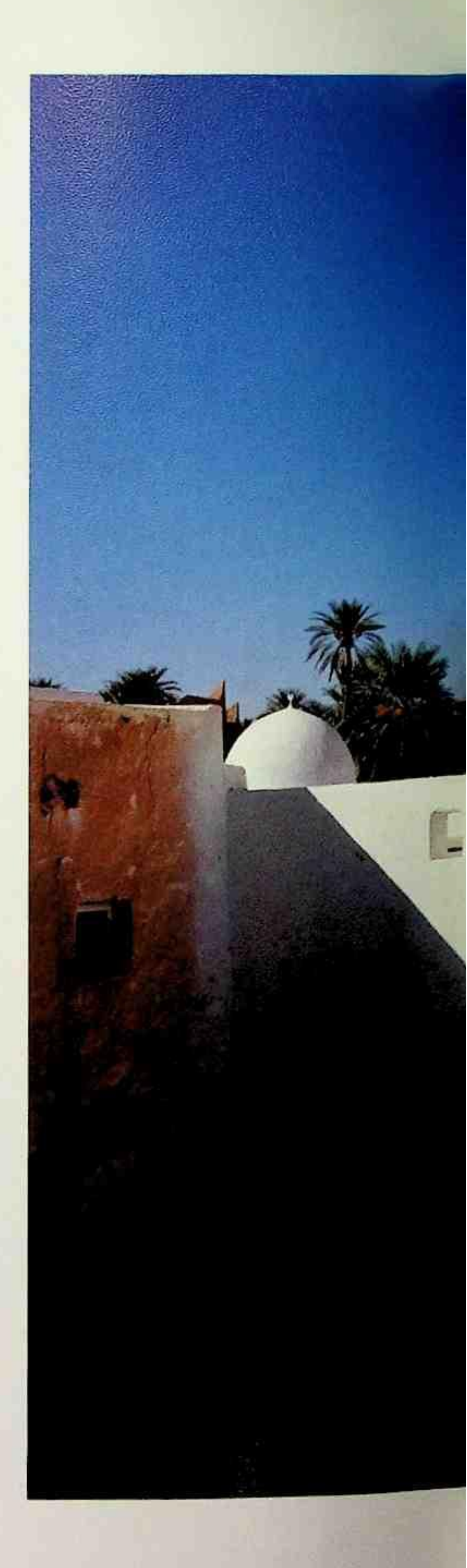
مدن الصحراء
في نص البكري :

شروس : أم قرى جبل نفوسة ، وهي كبيرة آهلة جليلة ، حولها أزيد من ثلاثمائة قرية آهلة . وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون الكثير والفواكه .

جادو : مدينة كبيرة بجبل نفوسة لها اسواق ويسكنها يهود كثيرون .

تيري : موضع على مسيرة ثلاثة ايام من جادو باتجاه زويلة ، وهو في سفح جبل فيه آبار كثيرة ونخيل .

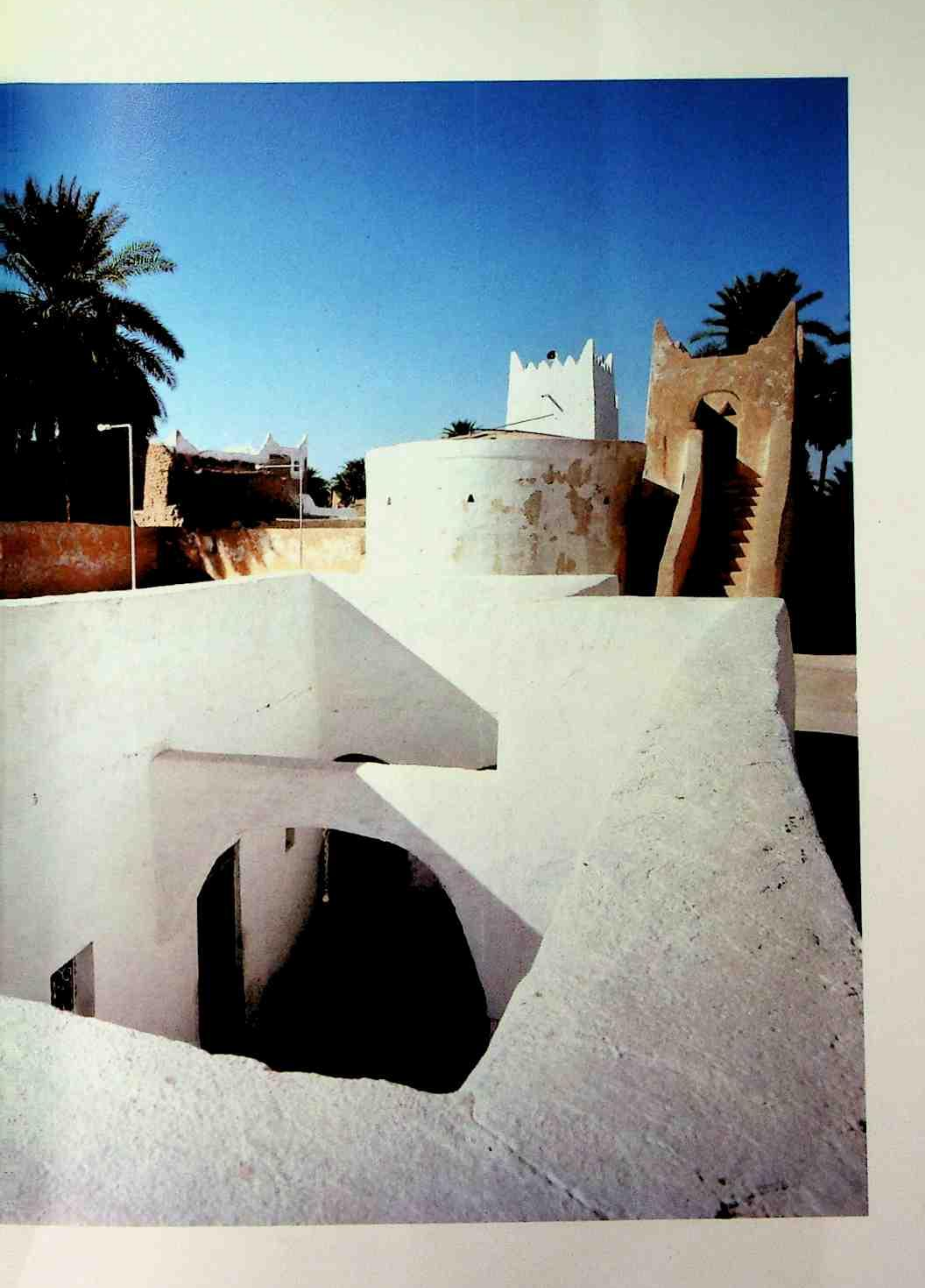
تامرما : بلد على مسيرة عشرة ايام من جادو باتجاه زويلة ، وفيها نخيل كثير .



لوحة ٧٦ : المسجد العتيق في غدامس :

تم بناؤه سنة ٤٥ ، على أرض مساحتها نصف هكتار ، وله ثلاثة أبواب احدها يطل على سوق غدامس القديم الذي يعرف الآن باسم ميدان الحرية .

بيت الصلاة مقسم من الوسط بخمسة عشر عمودا تجمعها أربعة أقواس تحمل القبة . وكان يضم غرفة خاصة بالنساء ، وركنا منزويا للعجزة وذوي العاهات .



سباب : بلد كثير النخيل على مسيرة يومين من تامرما باتجاه زويلة . واهل سباب يزرعون النبات الذي يكون منه الصبغ المعروف بالنيل .

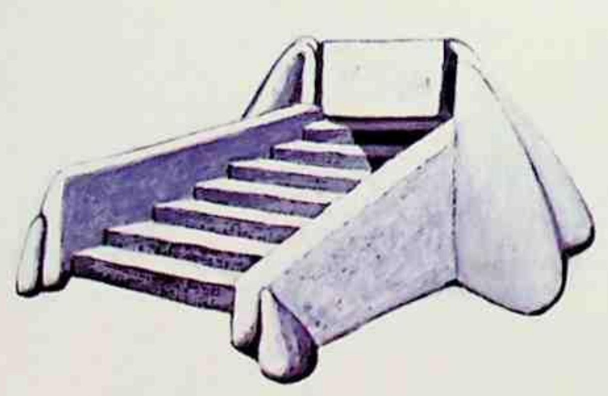
زويلة : بها نخيل وبساط للزرع يسقى بالابل ويجلب منها الرقيق الى ناحية افريقية .

سبها : مدينة كبيرة بها جامع وأسواق .

هل : مدينة على مسيرة خمسة أيام من سبها ، وهي مدينة عامرة كثيرة النخيل وعيون الماء .

ودان : اكثر معيشة أهلها من التمر ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح .

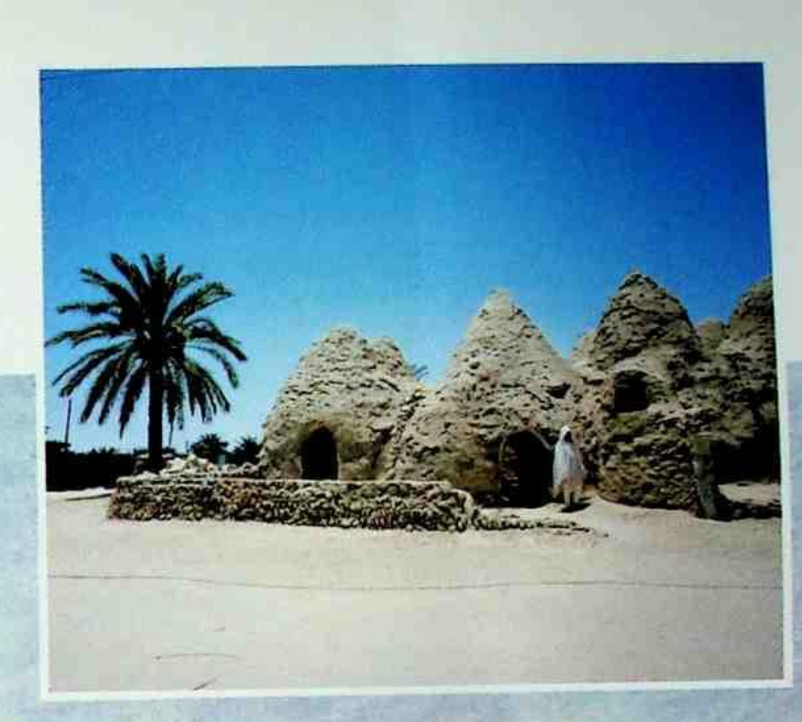






لوحة ٧٧ : المسجد العتيق في غدامس :

يقع المسجد بين محلة وليد وبين محلة وازيت ، ومدخله الرئيسي مواجه لشارع بني ذرار ، أما البابان الآخران ، فاحدهما يطل على شارع تصكو والآخر يطل على السوق القديم . والمعروف ان المسجد هدمته قنابل الحلفاء سنة ١٩٤٢ ، ثم أعيد بناؤه في وقت لاحق والغيت منه الغرف المخصصة للنساء .



لوحة ٧٨ و ٧٩ :

الجامع في أوجلة : القبب المدببة مهمتها تشتيت اشعة الشمس المنعكسة على السطح وتجميع اكبر قدر ممكن من الهواء البارد في تجويف القبة من الداخل . أما الفتحات ، فان سكان الصحراء المتلهفين الى هبة نسيم عابرة لا يرون ثمة حاجة الى تزويدها بابواب.

اوجلة : واحة عامرة كثيرة النخل . واسم مدينتها ازراقية . وبأوجلة قرى كثيرة فيها نخيل وشجر كثير وفواكه ، وبمدينتها مساجد وأسواق .

سنترية (سيوة) : بلدة على مسافة عشر مراحل (حوالى ستمائة كيلومتر) من أوجلة . وهي كثيرة العيون والثمار والحصون .

بهنسى الواح : مدينة مسورة على مسافة عشر مراحل من سنترية ، وفيها أسواق ومساجد ، وأهلها عرب مسلمون وقبط نصارى .

اريش الواح : تبعد مسافة ثماني مراحل عن بهنسى الواح ، وهي بلد كثير العيون الحارة والثمار والنخيل .

تاجرفت : مدينة على مسيرة ثلاثة ايام من ودان ، وهي آهلة ، وبها جامع ، والتمر بها كثير وأكثر أجناسه البرني ومنها يخرج الى مدينة سرت .

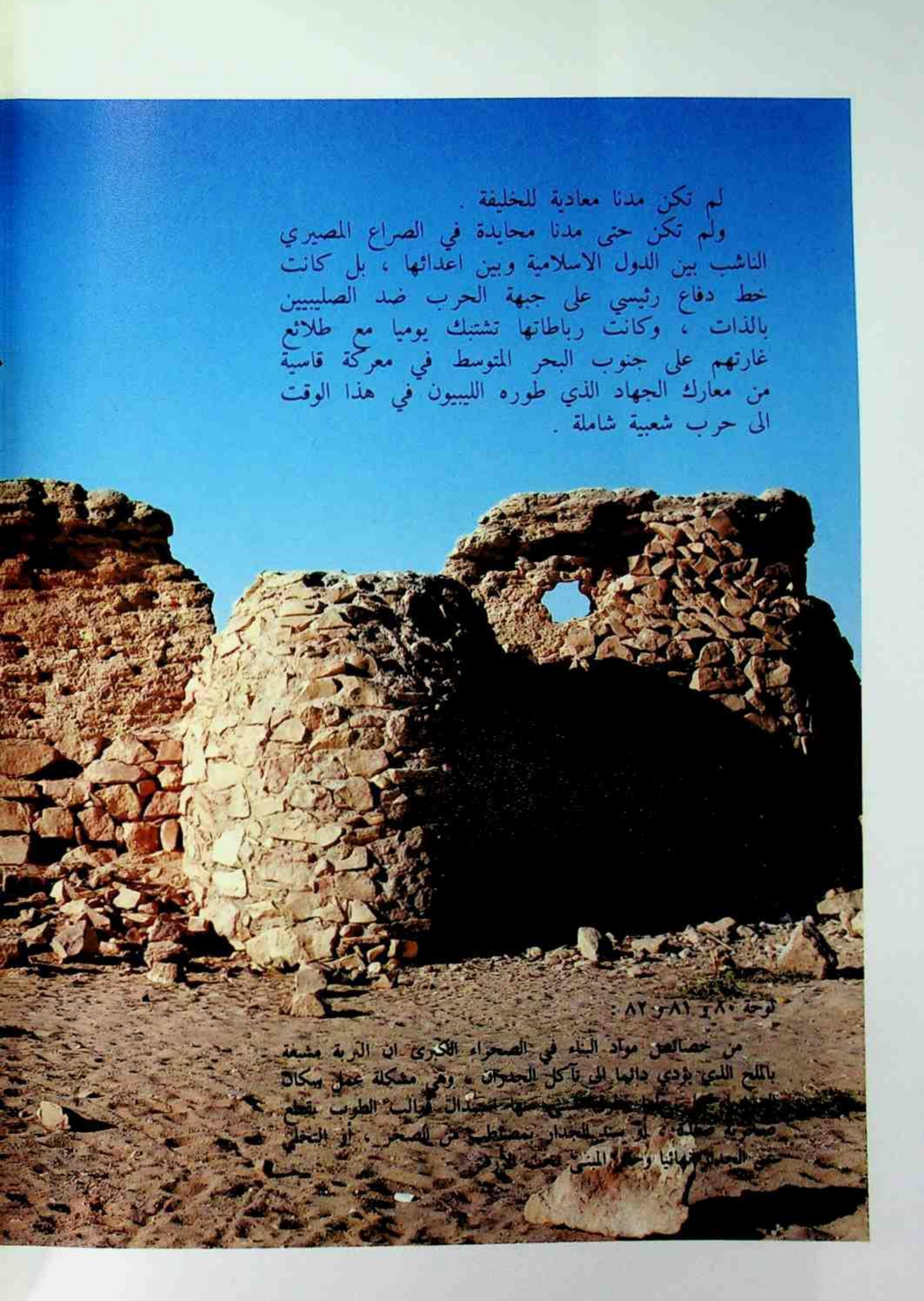
زلهي (زلة) : مدينة كبيرة واسعة ، فيها جامع ، ولها نخل كثير وعين ماء نزة . وتبلغ المسافة بينها وبين زويلة مسيرة عشرة أيام .

هذه هي مدن ليبيا التي خربها الخليفة الفاطمي متعمدا سنة ٤٤٢ : مراكز حضارية مزدهرة ، تنتظم على جانبي خطوط التجارة العالمية عبر البحر والصحراء معا ، وتتكفل بمهمة الدفاع عن مداخل افريقية ضد الغارة الصليبية التي كانت تستعد لاجتياح العالم الاسلامي بأسره .



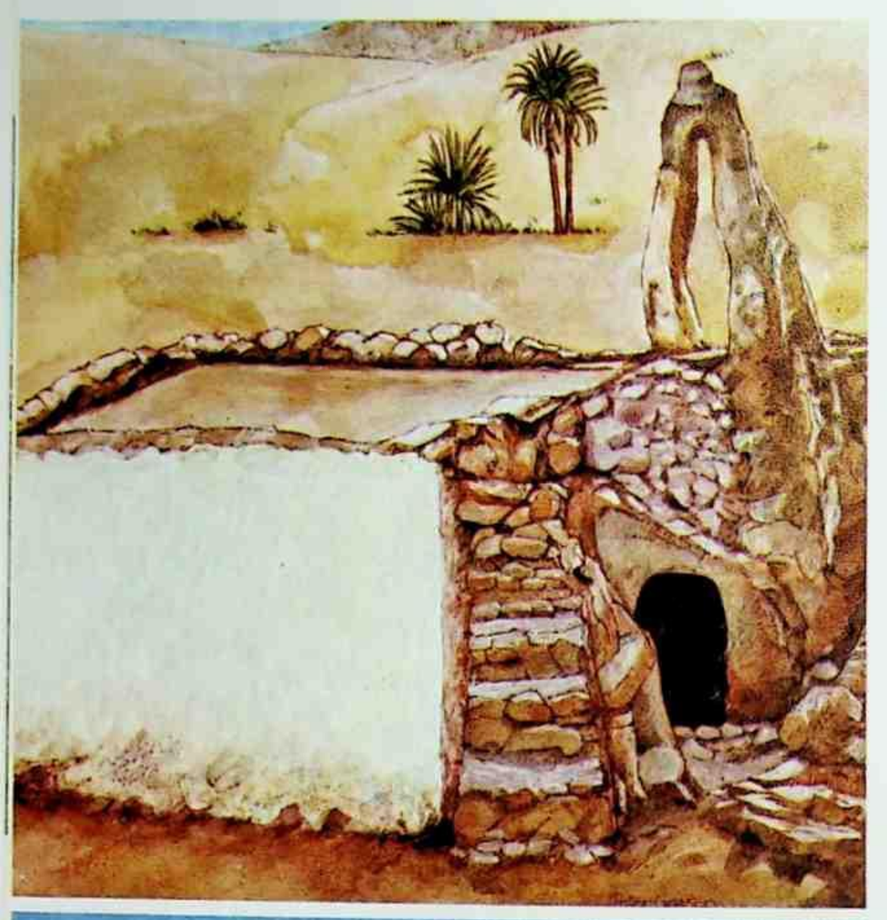
لم تكن مدنا معادية للخليفة .

ولم تكن حتى مدنا محايدة في الصراع المصيري الناشب بين الدول الاسلامية وبين اعدائها ، بل كانت خط دفاع رئيسي على جبهة الحرب ضد الصليبيين بالذات ، وكانت رباطاتها تشتبك يوميا مع طلائع غارتهم على جنوب البحر المتوسط في معركة قاسية من معارك الجهاد الذي طوره الليبيون في هذا الوقت الى حرب شعبية شاملة .

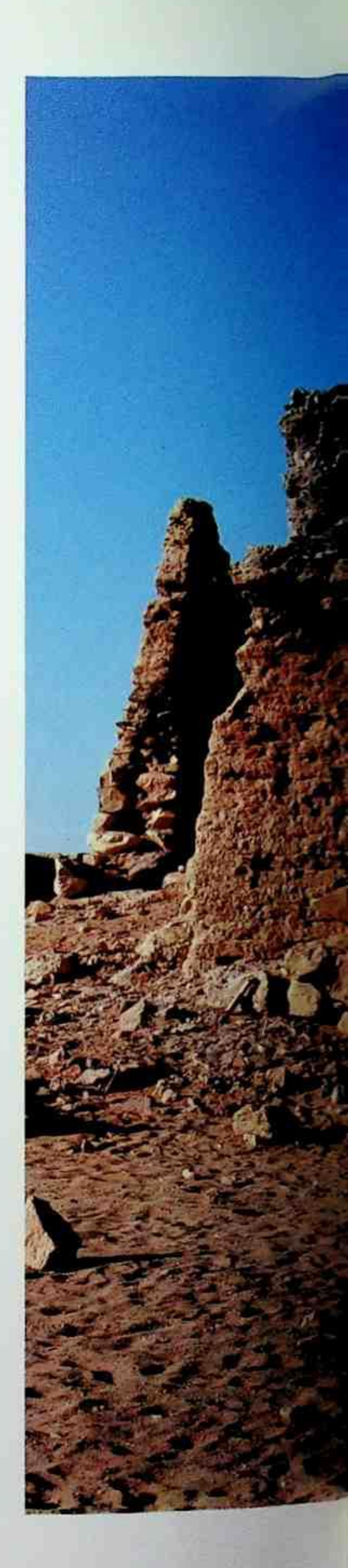


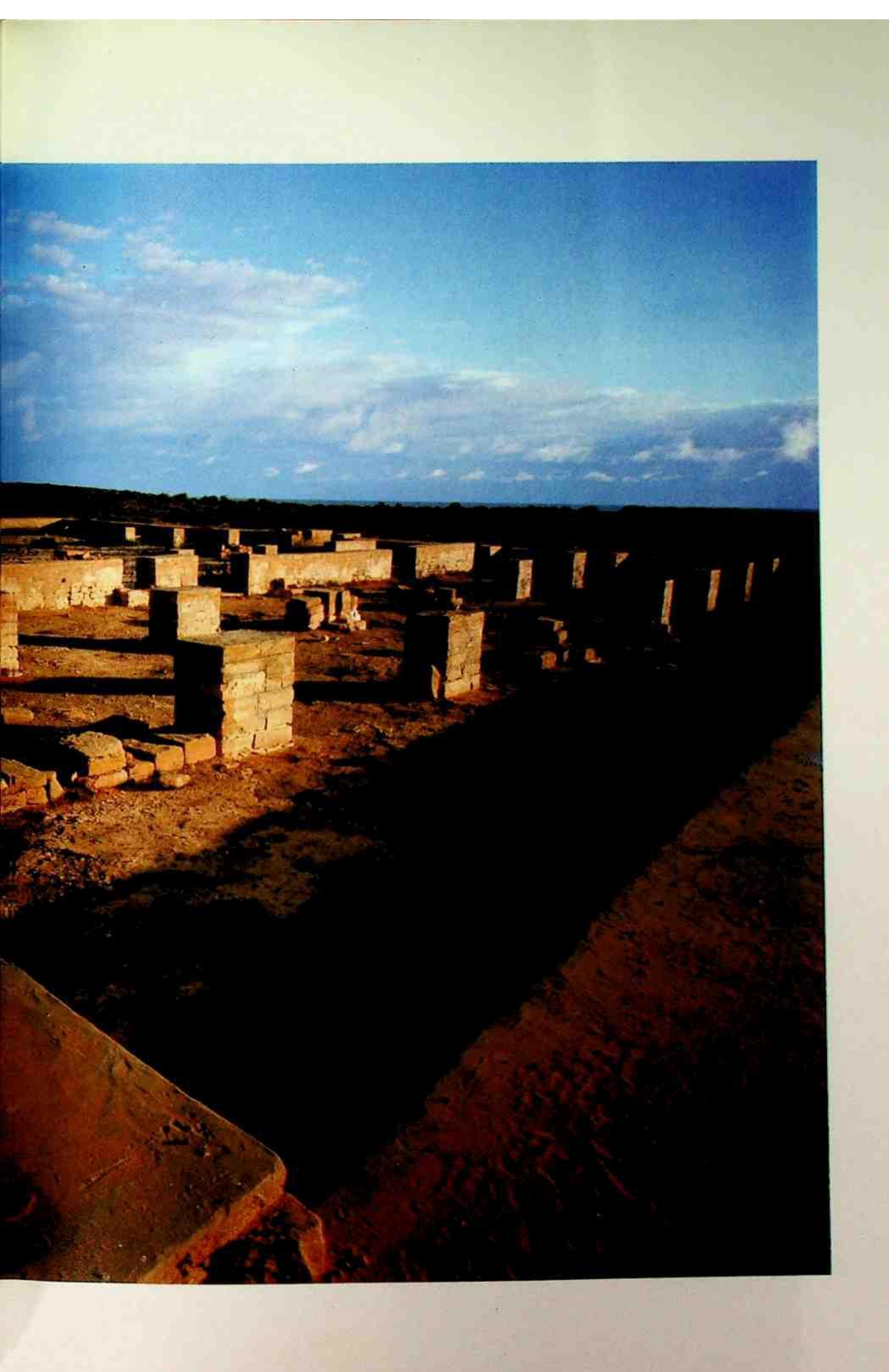
لوحة ٨٠ و ٨١ و ٨٢ :

من خصائص مواد البناء في الصحراء الكبرى ان التربة مشبعة بالملح الذي يؤدي دائما الى تآكل الجدران ، وهي مشكلة عمل سكان [illegible] استبدال قوالب الطوب بقطع صخرية صلبة ، او سند الجدار بمصطبة من الصخر ، أو التخلي عن الجدار نهائيا وحفر المبنى تحت الارض .





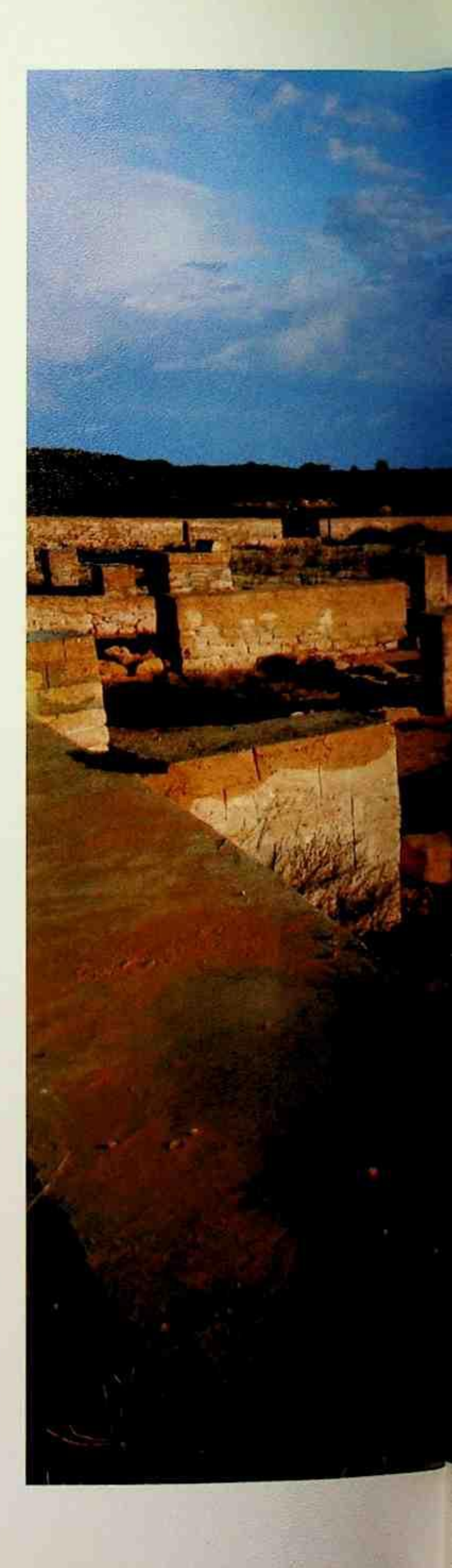




لكن الخليفة الفاطمي كان يملك رأيا آخر . وقد نفذ خطته تجاه هذه المدن ، وتسبب في خرابها فعلا بعد خمسة قرون من الحرب . كل ما في الامر ان احدا لا يريد ان يراه بمثابة مسؤول عن كارثة الخراب . فالمصادر تتفق جميعا على تعليق التهمة في عنق القبائل العربية وحدها ، في تفسير جامح وشبه هزلي يكاد ان يقول ان الشعب قد خرب ارضه بيديه .

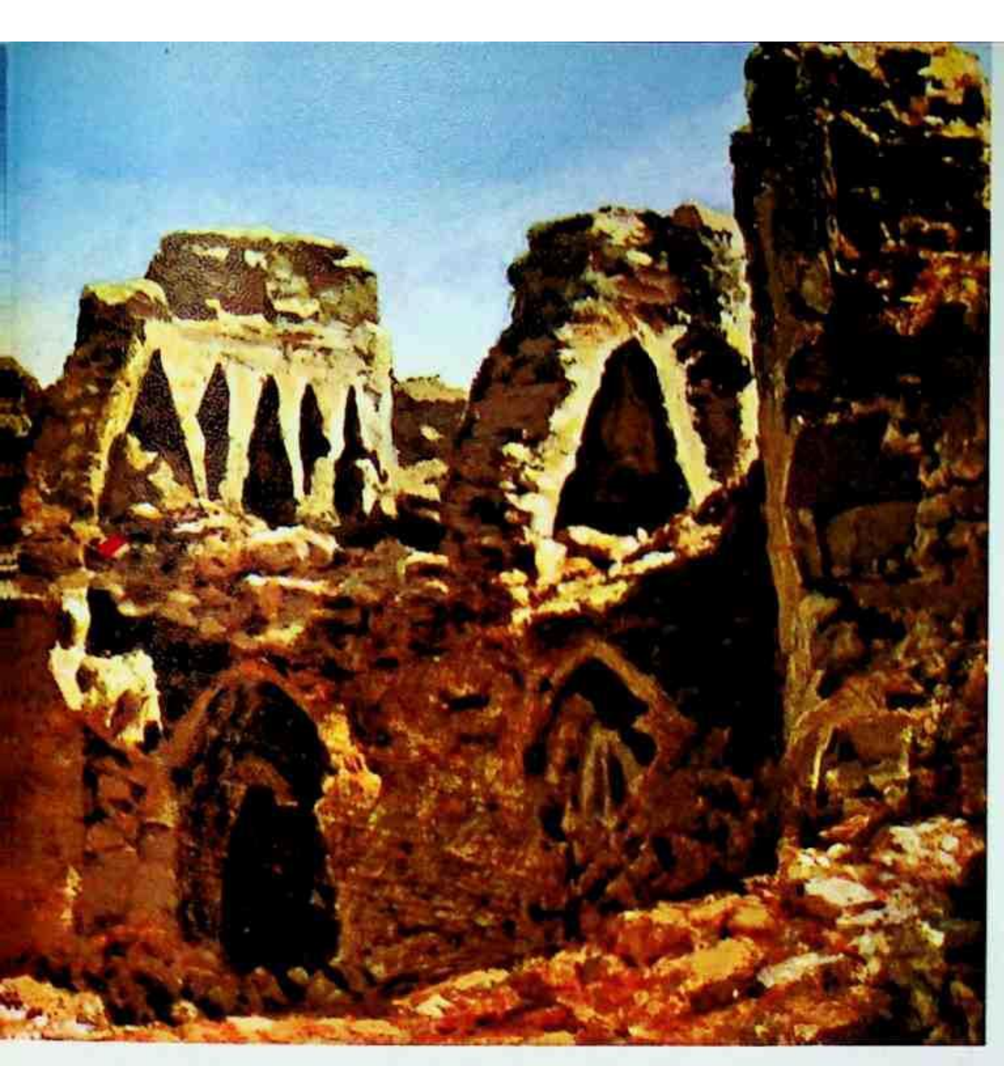
جاء في كتاب تاريخ ليبيا الاسلامي :

[اذا تذكرنا ان اولئك المهاجرين كانوا من البدو الشرسين الذين سبق لهم ان مارسوا ما ورثوه في دمائهم عن الجاهلية العربية من حب الغزو والسلب والنهب والسبي ، أثناء وجودهم في الحجاز ، وأثناء انضوائهم تحت لواء القرامطة ، وأثناء وجودهم في صعيد مصر الى الشرق من النيل ، استطعنا أن نتصور مدى ما ألحقوه بليبيا وافريقية من خراب لم تشهد له المنطقة مثيلا لا من قبل ولا من بعد . وهو خراب كان وبالا على الزراعة وموارد الماء والابنية والمنشآت في الدرجة الأولى ، ثم على بقية مرافق الحياة من تجارة ومواصلات وأمن وثقافة وغيرها في الدرجة الثانية . وقد وصف العلامة ابن خلدون ما لحق برقة من خراب على أيدي هؤلاء الأعراب المهاجرين فقال : « وتمرست بمدائنها بادية العرب وناجعتهم فتحيفوها غارة ونهبا ، الى أن



لوحة ٨٣ : مدينة سلطان :

المدينة مسورة وفي داخلها قلعتان دفاعيتان محصنتان فضلا عن قلعة ثالثة قائمة بين المدينة والشاطئ .
مسجدها يعود الى بداية العصر الفاطمي في أوائل القرن الرابع . وأروقته ليست متقاطعة مع حائط القبلة بل موازية له .







لوحة ٨٤ و ٨٥ :

ثقل مواد البناء في الصحراء الكبرى مشكلة تم حلها بتركيز الضغط الواقع على الجدران فوق مصاطب العقود أو الأقواس التي شاع منها نوعان :

الأول : القوس المخموس وهو مدبب الشكل ، ومن نماذجه اقواس القلعة في شيزاوة .

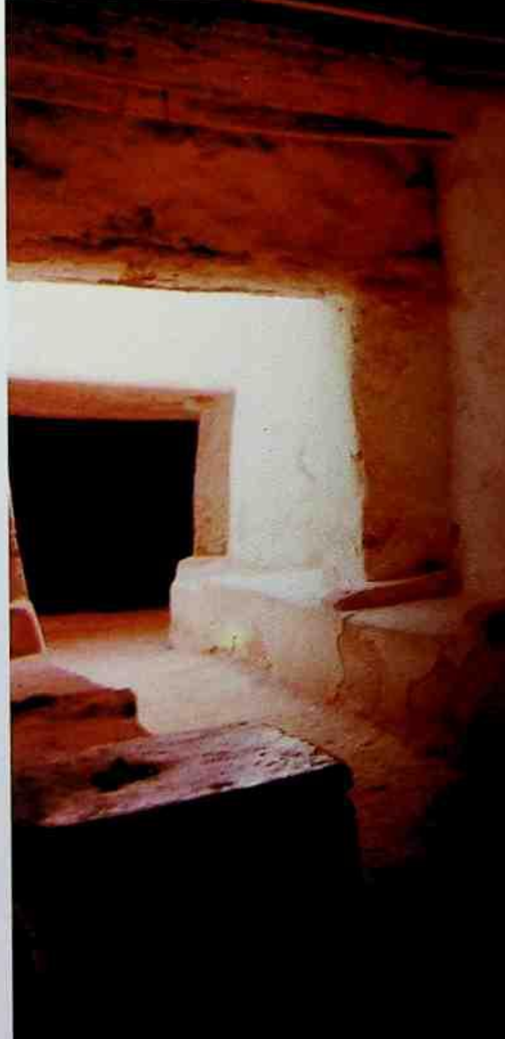
الثاني : حدوة الحصان، وهو عقد يتألف من قطاع دائري اكبر من نصف دائرة ، ومن نماذجه اقواس البوابات المقامة تحت الأرض في غدامس .

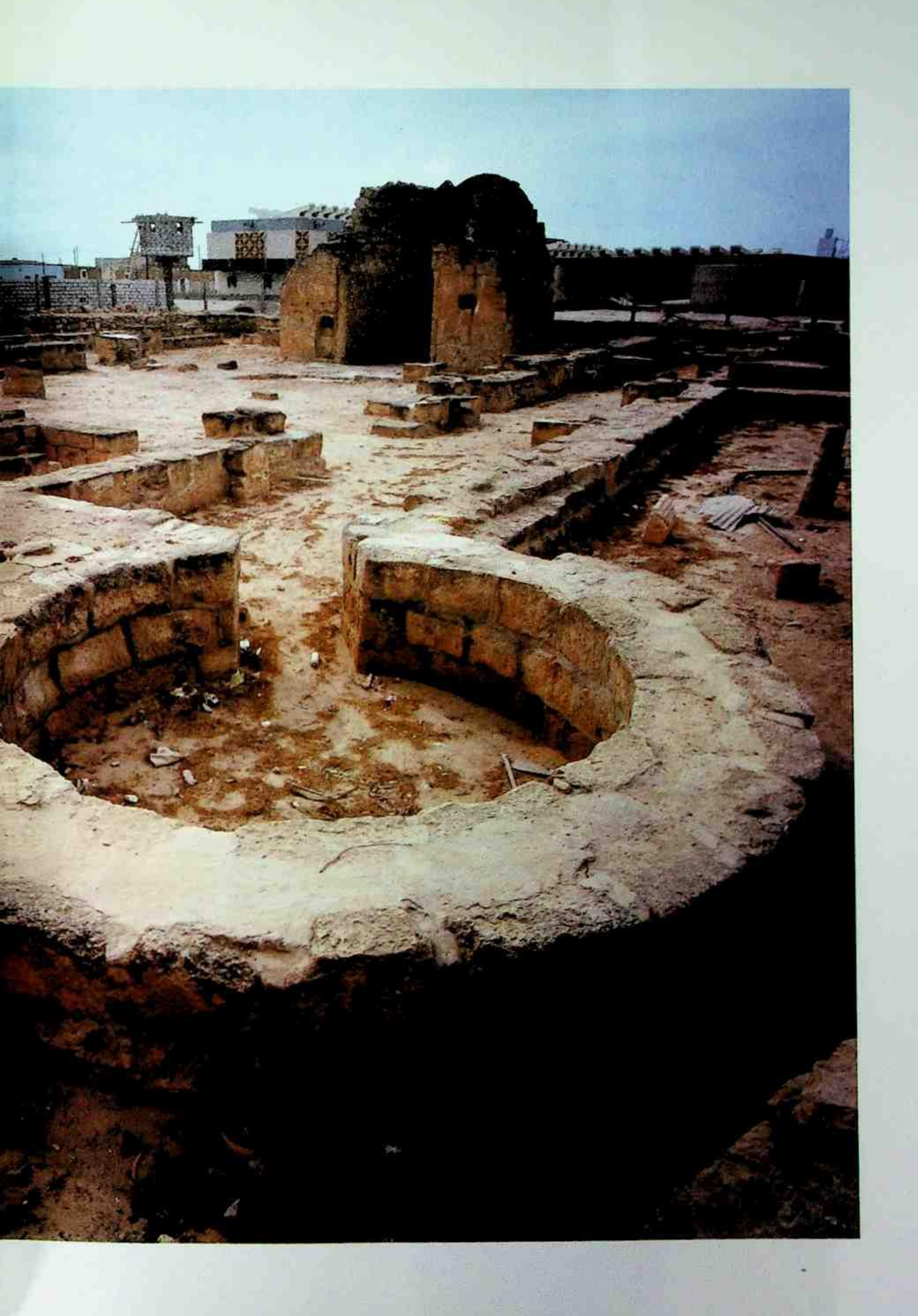
فسدت فيها مذاهب المعاش وانتقض العمران فخربت ، وصار معاش الأكثر من هؤلاء العرب المواطنين بها لهذا العهد من الملح يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير وبالنساء اذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش ، وينجعون الى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من أوجلة وسترية والواحات وما وراء المجاورين لهم . »]

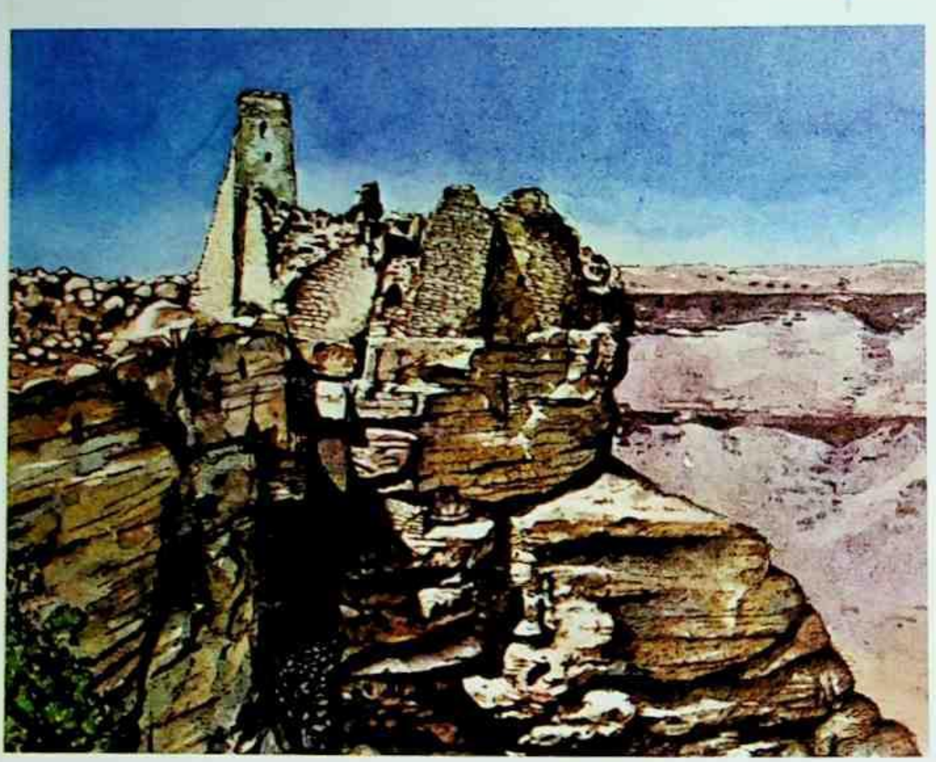
وفي كتاب تاريخ ليبيا :

[وقد ترتب على هجرة هذه القبائل واستيطانها نتائج خطيرة في منطقة ليبيا . فهم المسؤولون عن خراب العمران الذي وصفناه في فصل سابق ، أو كما يقول ابن خلدون : «وجميع بطون هيب هذه استولت على اقليم طويل خربوا مدنه ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية الا لأشياخهم » . ويقول في موضع آخر : « وكانت بها الامصار المستبحرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان وأمثالها فعادت يبابا ومفاوز كأن لم تكن » . وفسدت في كثير من جهات برقة مذاهب المعاش وخاصة في مناطق الجعافرة ، وصار معاش اكثر العرب فيها من الملح يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير ، أو ينتجعون الى مناطق النخل في الواحات ، أو يدخلون بلاد السودان . وتطالعنا صورة هذا الخراب في ما كتبه الجغرافيون والرحالون من أمثال الادريسي وابن سعيد والعبدري ، وفيه صورة مفارقة تماما للصورة التي رسمها اليعقوبي وابن حوقل من قبل . ولما كان الادريسي أقرب هؤلاء الكتاب الى عصر الاستيطان ، رأينا أن نحتكم اليه في تصور حال ليبيا : فهو يحدثنا أن المنازل بين قابس وطرابلس خلاء بلقع قد أتت العرب (أي الأعراب) على عمارتها وطمست آثارها وأخربت عمارها وأفنت خيراتها ، فليس بها (الآن) أنيس قاطن









لوحة ٨٧ :
قلعة نالوت .

ولا حليف ساكن ، وهي مستباحة لقبيلة من العرب تسمى مرداس ورياح . ويقول ان مدينة طرابلس كانت مفضلة العمارات من جميع جهاتها ، كثيرة شجر الزيتون والتين وبها فواكه جمة ونخل . الا أن الأعراب اضرّت بها وبما حولها وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وغورت مياهها . فاذا وقف عند سرت ، تحدث عن بقايا نخيل وتين فيها وأنه لا يوجد فيها زيتون . « غير ان العرب تأتي على أكثر ذلك . » ولم يبق من أجدابية الا قصران في الصحراء وقصور حسان لا عامر بها وانما هي (الآن) خراب .]

المؤرخ محمد العبدري البلنسي ـ الذي عبر ليبيا سنة ٦٨٨ متجها الى مكة ـ هو صاحب النسخة الاصلية عن عربضة هذا الاتهام

لوحة ٨٦ :
قلعة اجدابيا :

كشفت الحفريات عن قصر محصن وعن قلعة تدعى باسم القلعة البيزنطية تدل آثارها على تعديلات اساسية ادخلها العرب على تصميم المبنى . القطع الفخارية الباقية منها تشير الى تاريخ مبكر ، وشكل قواعد الابراج المستديرة الباقية تحمل ملامح الفن المعماري الاموي .



لوحة ٨٨ و ٨٩ : بيت تحت الشمس :

خلال عصر التخريب الشامل الذي عم شمال افريقية ، ظلت مدن الصحراء في الجنوب اكثر أمانا وراء حاجز الرمل ، وظلت طريقة الحياة فيها تلتزم مجراها الدائم بتغيير طفيف لا يكاد يذكر . ان كل مواطن في مدينة غدامس ما يزال حتى الآن يجهز بيته كما تعود اسلافه ان يجهزوا بيوتهم في القرن الهجري الخامس ، وما يزال يدعو كل طبق يعلقه ، وكل صورة وجرة وصحن ، بالاسماء نفسها التي استعملها اسلافه ، كأن احقاب التاريخ لا تفصل بين الأجيال في عالم الصحراء الابدية .

الموجه الى الشعب بدل الحاكم المسؤول . انه أول من قام بتسجيل ابعاد الخراب الشامل في المنطقة ، وأول نموذج انجبته الكارثة بمثابة دليل على ابعادها الحقيقية في أسلوبه وفي رؤيته معا .

عن برقة قال العبدري :

« وبعد مكابدة الأين ، ومعاينة الحين ، ومقاساة غصة وحرقة ... وصلنا الى القفر القواء أرض برقة ، فوجدنا برية هي أم البراري والقفار ، والمهامه التي يحار فيها أرباب الأسفار ... امتدت وطالت ، واشتدت وهالت ، واربدت وحالت ، ولو أنشدت لقالت :

أنا الغول غالت من يطور فناءها
وتخدع بالألطاف طورا وبالبر
فان أكلوا بري شربت نفوسهم
وكم بين نفس المرء في الغدر والبر

سكنها من الاعراب كل فظ غليظ ، يحرج بجفائه الأحنف ويغيظ ، حتى تكاد منه النفس تفيظ ، لا جرم أنهم يقرؤون التنزيل ، ويوالون المنفض بالجميل ، ولا معترض للحجاج عندهم وان كان فهو قليل ، والشأن عندهم في التبايع المعاوضة في المبيعات ، والتبادل في المثمونات ، لا يجري بينهم فيها دينار ولا درهم ، وباب التعامل بهما عندهم مبهم . وقد ساوم أحد الحجاج بعضهم بجمل يعطيه به بكرا وزيادة دينارين ، فقال له : لا أدخل خيمتي ما لم يدخل قط خيمة أبي ولا جدي . وهذا حالهم في العينين (الذهب والفضة) يجهلون بهما أثمان الأشياء ، ويستعملون نساءهم في البيع والشراء ، فلا يتوصل الحاج الى شراء القوت الا بعرض مبتذل وحال ممقوت . ومن العجب





لوحة ٩٠ :

عطش للفن ؟
عطش للماء ؟

داخل احد بيوت غدامس القديمة : الجرار والمرايا وهي من جهاز العروس التقليدي .

عندهم أن كل امرأة لا بد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها البرقع ، وهي تتخلل الناس مكشوفة الرأس والأطراف حافية القدمين ... » .

وراء هذه اللهجة المتطرفة .

ووراء السخط على حياة البدو واتهام القبائل المهاجرة بتخريب افريقية ، تكمن النتائج الحقيقية للكارثة التي الحقها الخليفة الفاطمي بالمنطقة . فاطلاق سيل القبائل على شمال افريقية ، لم يكن عملا عسكريا موجها ضد الصنهاجيين ، بل كان اجراء لتقويض سلطتهم عن طريق تخريب مراكز الادارة ، وهي خطة بارعة من جانب الخليفة لاسترداد شمال افريقية مجانا ومن دون نفقات الحرب النظامية . لكن الخليفة يؤخذ عليه انه نسي ان يضع في حساباته نقطتين :

الاولى : ان تخريب مراكز الادارة يعني في الواقع تخريب المدن .

والثانية : ان اختيار القبائل لاداء هذه المهمة عمل يعني فقط اشعال حرب اهلية بين اهل المدن وبين اهل البادية . وسواء عرف الخليفة أو لم يعرف ، فان التاريخ قد اثبت دائما ـ وبالذات في ما يخص شعوب الصحراء ـ ان الحرب الاهلية لا يكسبها احد الطرفين بل يخسرها الطرفان معا .

وذلك ما حدث .

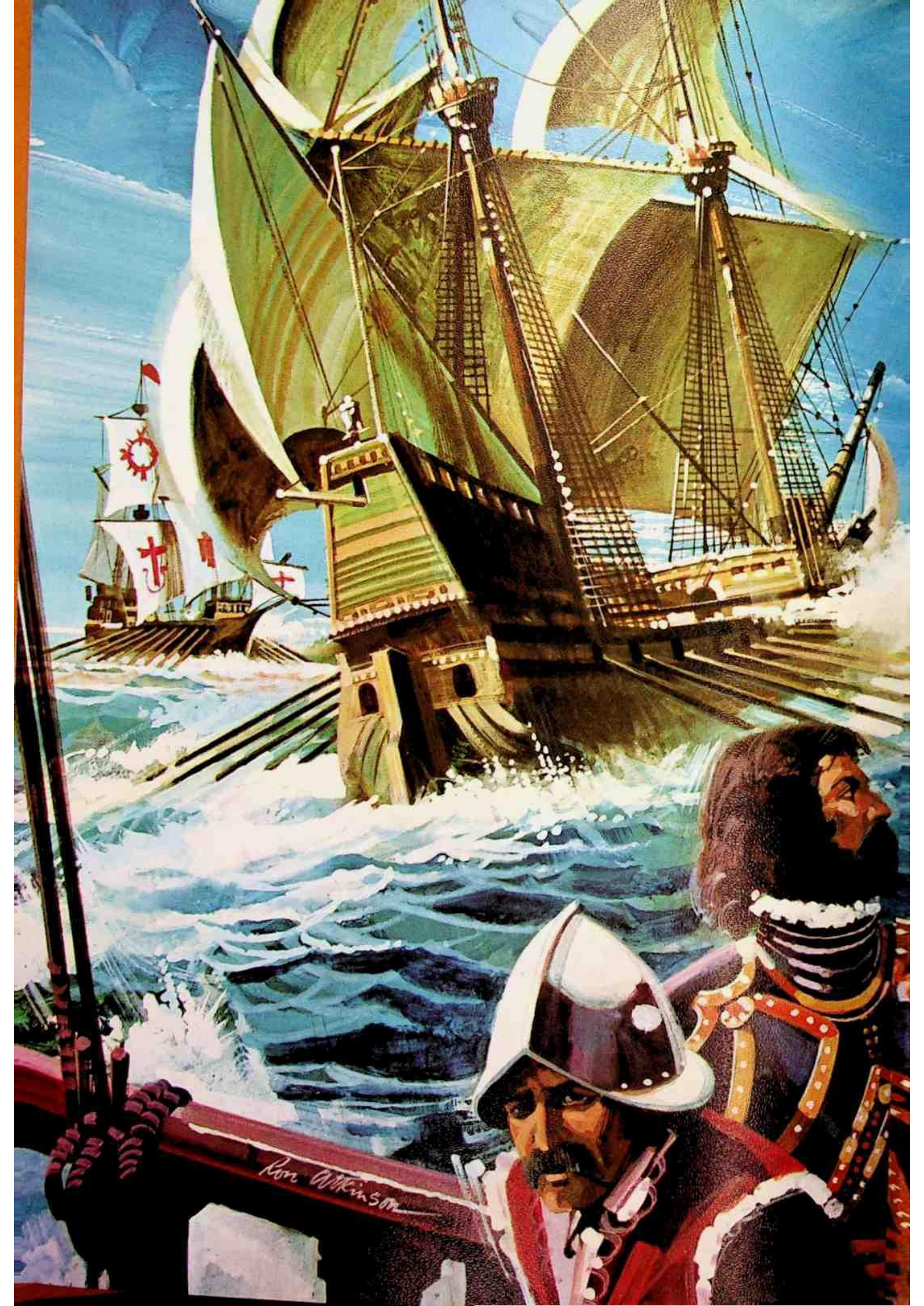
لقد اشتبكت القبائل مع المدن في الحرب التي دامت خمسمائة عام . وعندما بلغوا نهاية الطريق ، وبدأ كل طرف يحصي خسائره ، كانت الصورة كما تمناها الخليفة الفاطمي الراقد في قبره منذ اربعة قرون ، وكان الخراب الشامل ينشر اجنحته على المنطقة ، والاسبان يتسللون اليها تحت ستار الظلمة بقوات بحرية حسنة التجهيز والعتاد .





الهجوم الاسباني
على
موانئ شمال افريقية

لوحة ٩١ : بعد اربعة ايام من احتلال طرابلس سنة ٩١٦ ارسل الكونت بياترو دي نافارا تقريرا الى نائب الملك في صقلية قال فيه عن هذه المدينة : « انها اكبر مما كنت أتصور ، واني أرى ان الذين كانوا يشيدون بذكرها لم يقولوا الا نصف الحقيقة سواء في ما يخص تحصيناتها أو ثروتها ، حتى انها تبدو بمثابة عاصمة لامبراطورية كاملة ، وليست مجرد مدينة لا يهم امرها احدا . » .


Ron Atkinson

سنة ٨٩٨ سقطت غرناطة آخر معاقل الاسلام في الاندلس ، وخرج منها حاكمها محمد ابو عبد الله الذي يقال ان البكاء غلبه وهو يودع مدينته الضائعة فقالت له والدته : « يحق لك ان تبكي كالنساء ملكا لم تستطع ان تدافع عنه كالرجال » .

بعد غرناطة بدأت حرب التصفية وقام الاسبان بحرب ابادة منظمة ضد المسلمين بلغت ذروتها حين باشر الكاردينال خمينس ـ بتكليف رسمي من صاحبي الجلالة فردينان وايزابيلا ـ تنفيذ برنامج صارم لارغام المسلمين على التنصر . والواقع ان الاسبان انشاوا لذلك الغرض محاكم تفتيش خاصة على غرار المحاكم الشهيرة التي كانوا قد أقاموها في ارغونة خلال القرون الوسطى الاولى .

بعد حرب التصفية بدأت غارة الاحتلال ، وتقدمت اسبانيا في مطلع القرن العاشر بقوات بحرية ضخمة لغزو شمال افريقية . فاستولى الكونت بياترو دي نافارا على المرسى الكبير سنة ٩١٠ ، ووهران سنة ٩١٤ ، وبجاية سنة ٩١٥ ، وضم هذه المدن لملك اسبانيا . وبعد أن بسط نفوذه على أراضي الجزائر وتونس تقدم يزحف شرقا في اتجاه طرابلس :

قوام اسطوله مائة وعشرون قطعة بحرية ـ باستثناء السفن التي انضمت اليها في مالطة ـ تحمل خمسة عشر ألف جندي من الأسبان وثلاثة آلاف من الأيطاليين والمالطيين . وقد ظهر الاسطول في مياه طرابلس سنة ٩١٦ ، ورست سفنه بظاهر البحر ، ثم أنزلت ليلا القوارب والمراكب الصغرى فنقلت على جناح السرعة ستة آلاف رجل ، كانوا صبيحة اليوم التالي متمركزين بمدفعيتهم عند الشاطئ جنوب شرقي المدينة في منطقة سيدي الشعاب .

في الصباح الباكر بدأ الهجوم برا وبحرا .

وتمكن الاسبان من اختراق السور وفتح احد الابواب امام بقية قوات الانزال خلال الاربع ساعات الاولى . وقبل ان ينقضي ذلك النهار كان الاسبان قد أتموا السيطرة على المدينة ، وكانت قواتهم في الواقع تحتل جميع نقاطها الرئيسية مثل القلعة والجامع الكبير . لكن اهالي طرابلس ظلوا يواصلون المقاومة في محاولة مستحيلة لاغلاق الباب المخلوع في وجه الاعصار مما تسبب في مذبحة رهيبة بلغ عدد ضحاياها حوالى خمسة آلاف قتيل وستة آلاف اسير في مدينة لم يتجاوز تعداد سكانها اكثر من ضعفي هذا العدد . اما الاسبان ، فكان بين قتلاهم اميرال البحرية نفسه .

بعد استسلام المدينة اضطر معظم سكانها ان يجلوا عنها تحت ضغط ادارة الاحتلال . وانطلقوا جنوبا نحو الاراضي الواسعة التي تعودت ان تأويهم في سنوات الضيق ، وحفروا خنادقهم ـ في خط الدفاع الثاني ـ عند مدينة تاجوراء التي تحولت فورا الى نقطة تجمع للمجاهدين ومركز لادارة العمليات العسكرية . اما الشيخ شرف الدين ـ والي طرابلس ـ فقد نقل اسيرا مع عياله الى باليرمو في صقلية وظل في الاسر حتى اكتشف الامبراطور شارل الخامس انه يحتاج الى معونته لحل مشكلة ملحة جدا :

فخلال بضعة اعوام من حكم الاسبان لطرابلس ، كانت المدينة قد اقفرت تدريجيا تحت مطرقة المقاومة اليومية وعمليات الهجرة المستمرة واصرار الاسبان على الاستئثار بالسوق لانفسهم دون التجار الاجانب والمحليين على حد سواء ، بالاضافة الى رفع الرسوم الجمركية بمقدار النصف على جميع الواردات .

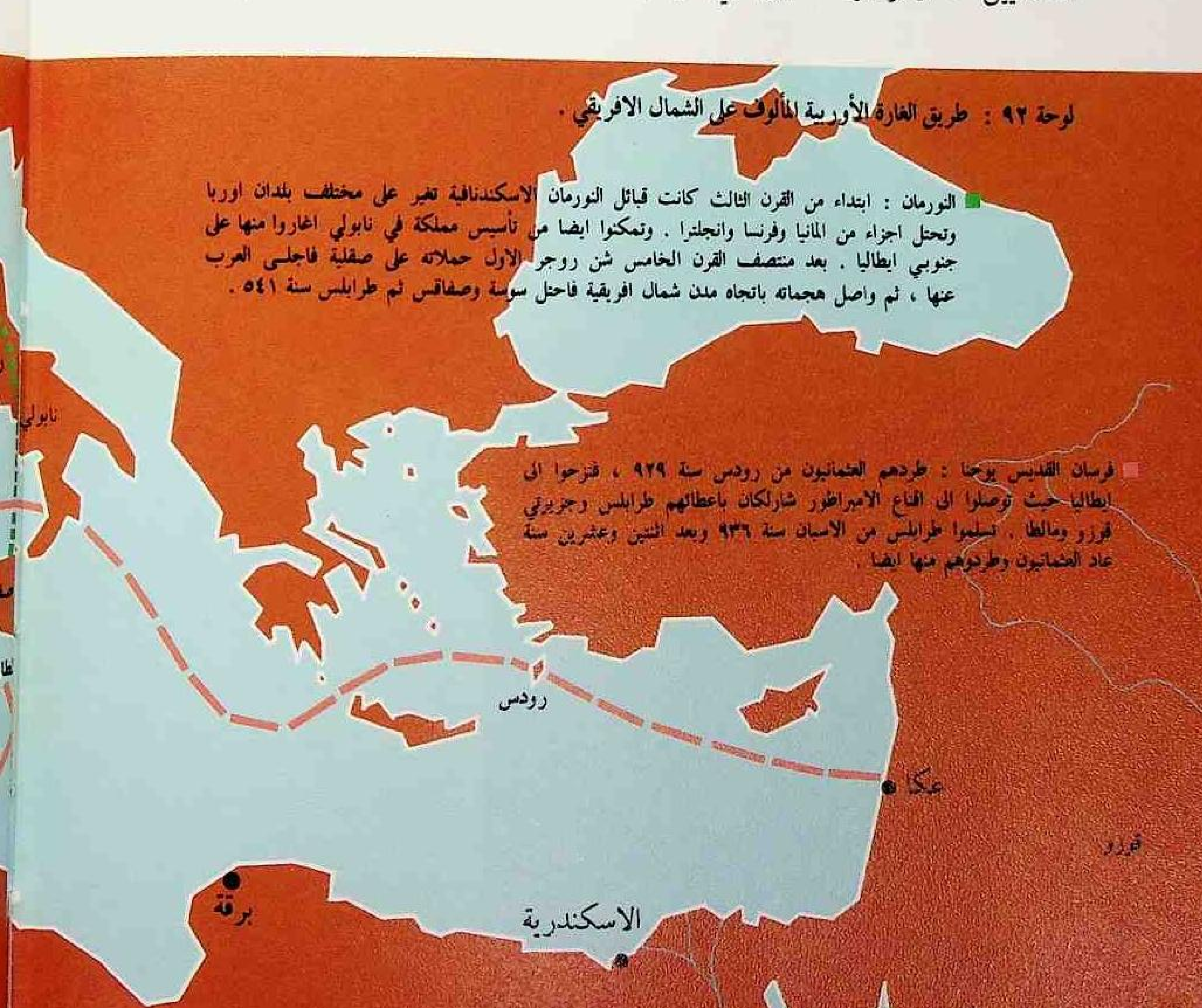
وأمام ظروف الكساد الشامل ، وتحول التجارة الى موانئ اخرى مثل مصراتة وتاجوراء ، كان احتلال طرابلس يكلف اسبانيا في الواقع اضعاف المبلغ الذي تحصله من اسواقها ، وكان الامبراطور شارل الخامس في حاجة الى معونة من الشيخ شرف الدين لكي ينقذ خزينته من هذا النزيف . وقد اخرجه من السجن ، وجهزه بالمال ، وارسله الى طرابلس أملا ان يشجع ذلك على عودة المواطنين اليها ، لكن الشيخ نفسه هرب الى تاجوراء ، وترك الامبراطور يواجه مشكلته من دون حل .

لم تنجح تجربة العمالة .
ولم تنجح محاولة استيطان طرابلس باعداد كثيفة من الاسبان ، رغم ان نائب الملك الاسباني في صقلية كان قد حرص منذ سنة ٩١٦ على ان يصدر باسمه شخصيا نداء الى مواطنيه يعلن فيه « ان الذين يرغبون في سكن طرابلس سيمنحون مساكن ملائمة ، واراضي يزرعونها معفاة من الضرائب والأتاوات لمدة عشر سنوات ، بالاضافة الى العفو الناجز عن اية جناية مدنية او جريمة قد ارتكبوها » .

وأكثر من كل شيء آخر ، لم تنجح القوة العسكرية نفسها في تحسين هذا الوضع رغم كل نفقاتها الباهظة . فحلم اسبانيا بالتوسع غربا من قواعدها في طرابلس انهار فجأة من اساسه عندما تراجع اسطولها عن جزيرة جربة مهزوما ـ ومحطما ـ في أول مرحلة من مراحل تنفيذ الخطة سنة ٩١٦ . اما طرابلس فقد تعرضت خلال العام نفسه لهجوم شامل من رباطات تاجوراء ، شارك فيه اربعون الف مقاتل من بينهم جنود الجيش النظامي الذي ارسله الامير الحفصي بقيادة محمد ابي الحداد . ورغم ان الحملة لم تنجح في استعادة المدينة ، ورغم ان مدفعية الاسبان كانت ما تزال سيدة الموقف

من دون منازع ، فان خسائر الدولة منذ ذلك الحين كانت اكثر مما يتمنى الامبراطور ، وكان مقتل صديقه دياس دي بورتاس، قائد الاسطول في البحر المتوسط خلال معركة طرابلس ، مجرد تجسيد لمدى فداحة هذه الخسائر .

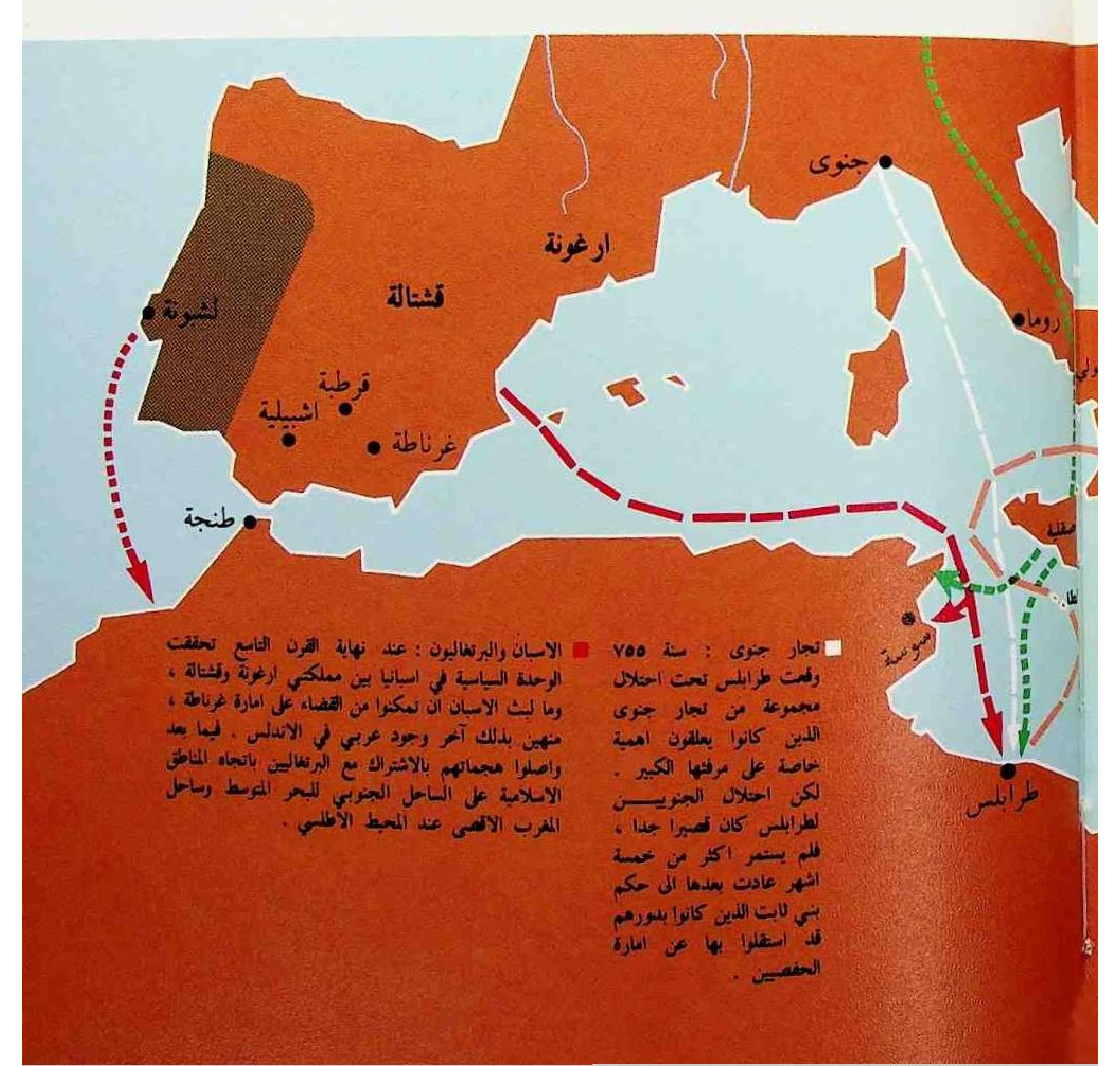
وموجز ما حدث ان اسبانيا ـ بعد اربع سنوات من احتلالها لطرابلس ـ كانت سعيدة بالتخلي عنها لأي احد ، وبأية شروط ، لكنها اضطرت الى الحاقها مؤقتا بولاية صقلية وخصصت مبلغا سنويا كبيرا لنفقات ادارتها والدفاع عنها ، في انتظار اول فرصة سانحة للخلاص من هذا العبء . بعد سبع عشرة سنة من الانتظار حانت ساعة الخلاص فجأة على يد عصابة مسلحة من المغامرين الاغريق الذين كانوا قد انحسروا عن جزيرة رودس امام هجوم العثمانيين ، وخرجوا هائمين في البحر المتوسط بحثا عن وطن كعادتهم



لوحة ٩٢ : طريق الغارة الأوربية المألوف على الشمال الافريقي .

دائما منذ عصر هوميروس .

اسمهم الرسمي : منظمة فرسان القديس يوحنا .
مقرهم الوحيد : جزيرة رودس التي طردهم منها الاتراك سنة ٩٢٩
شعارهم المعلن : مواصلة الجهاد باسم المسيح للوصول الى بيت المقدس وتأسيس دولة مسيحية في فلسطين. أما دورهم الفعلي في ارض الواقع فلم يكن اساسيا ـ او دينيا حقا ـ الى هذا الحد ، ولم تكن المنظمة نفسها تحت ظروف الصراع السائدة سوى مخلب قط محنط تستخدمه اسبانيا لكي تخوض به حربها من بعيد دون ان تحرق يدها في مواقد شمال افريقية .



فالقرن الهجري العاشر ـ مثل القرن الثاني قبل الميلاد ـ عصر تميز بانحسار المد الافريقي عن اسبانيا وجزر البحر المتوسط ، وخروج اوربا في موجة الهجوم التالي لاحتلال شمال افريقية مرة اخرى تحت ظروف شديدة الشبه بالظروف التي شهدت غارة روما على قرطاجة سنة ١٤٦ قبل الميلاد . وفي حرب دولية واسعة النطاق الى هذا الحد ، لم يكن بوسع منظمة صغيرة مثل منظمة فرسان القديس يوحنا ان تلعب دورا اكثر جدوى من مجرد دور العميل ، ولم يكن ثمة شك في ان اسبانيا ـ التي كانت تنقل قصتها حرفيا من كتاب روما ـ كانت ايضا قد بدأت من النقطة نفسها ، ووجدت شعوب جزر الاغريق المقفرة ينتظرون ـ كعادتهم ـ على عتبة الباب .

اننا نشرف على مسرح الاحداث في البحر المتوسط خلال القرن الهجري العاشر ، فتطالعنا صورة طبق الاصل عن صورة الاحداث على هذا المسرح نفسه خلال القرن الثاني قبل الميلاد . كل التفاصيل تبدو للوهلة الاولى من نسخة واحدة :

ففي القرن الثاني قبل الميلاد كانت روما قد التحمت مع قرطاجة على ارض اسبانيا وارغمتها على اخلائها ، ثم عبرت وراءها الى شمال افريقية في الغارة التي انتهت باحتلال مدن الساحل واخضاع المنطقة لحكم الرومان طوال ستة قرون .

وفي القرن العاشر للهجرة كانت اسبانيا ايضا قد ارغمت المسلمين على اخلاء آخر معاقلهم في غرناطة ، ثم عبرت وراءهم الى شمال افريقية في غارة تهدف الى تحقيق الخطة نفسها ، ونجحت فعلاً في احتلال موانئ رئيسية في تونس والجزائر ، وتأمين موضع القدم لاعداد القفزة النهائية على بقية المنطقة .

لكن القفزة ـ هذه المرة ـ لم تتم قط .

لوحة ٩٣ : لغة الغاب :

منظمة فرسان القديس يوحنا أعلنت عن نفسها رسميا بمثابة منظمة دينية ، لكن شعارها لم يكن يضم في الواقع سوى قلاع عسكرية محصنة وأسود تتواثب رافعة ذيولها ومخالبها بحثا عن فريسة ، والشعار كله موضوع بعناية تحت حماية أسد اضافي . لقد كان من الواضح ان الكنيسة في أوربا نسيت حقا لغة المسيح .



التشابه الكامل بين روما
وبين اسبانيا لم يكن في الواقع سوى تشابه في نوع الخطط والنوايا،
اما الظروف الحضارية التي عاصرت قيام هاتين الدولتين ، فقد كانت مختلفة جدا في
ادق تفاصيلها ، وكان هذا الاختلاف بالذات هو السبب والتفسير لما لقيته اسبانيا من الارهاق
والفشل في تنفيذ الخطة نفسها التي كانت روما قد نفذتها قبل ذلك بكثير من النجاح . فالحرب في
عصر روما كانت تعني فقط حرب دولة ضد أخرى أو شعب ضد آخر، وكان ميدانها ومستواها محصورين
دائما داخل هذا النطاق المحدد مما جعلها مجرد مغامرة عسكرية محسوبة النتائج . اما في عصر اسبانيا فقد اصبحت
الحرب صداما بين معسكرات باكملها يضم كل معسكر منها دولا وشعوبا عديدة ، ويبسط نفوذه على مناطق شاسعة ، ويتقدم
للقتال بامكانات لا تنفد من جبهات عريضة – ومفاجئة – يستحيل التنبوء بها مقدما . واذا كانت روما قد خاضت معركتها ضد شعوب
شمال افريقية وحدهم لكي تستولي على اراضيهم ، فان اسبانيا كانت مضطرة – من اجل اداء المهمة نفسها – الى خوض معركتها ضد
المعسكر الاسلامي بأسره ، وهو معسكر يطوق معظم البحر المتوسط في دائرة تمتد من شرق اوربا عبر آسيا الصغرى الى طرف الساحل الغربي
لافريقية . وفيما كان اسطول روما في القرن الثاني قبل الميلاد يبسط ظله على البحر المتوسط باعتباره مجرد بحيرة رومانية ، كانت اسبانيا في القرن الهجري
العاشر تواجه حربا بحرية كاملة تشنها ضدها جميع الدول الاسلامية المقيمة حول سواحل البحر المتوسط ، وبالذات العثمانيون الذين كانوا في هذا الوقت
الحرج يملكون من دون شك اكبر جيوش العالم ، واكثرها قدرة على التصدي للقتال في هذه الجبهة الواسعة النطاق . ان اسبانيا التي تقدمت لغزو
شمال أفريقية متوقعة ان تنفرد بشعوبه وتكسر مقاومتهم المحدودة كما فعلت روما ، تكتشف فورا ومن دون حاجة الى حسابات كثيرة ان شعب شمال افريقية
صبح فجأة غير محدود . والسر ؟ ... السر يكمن في نظرية الأمة التي جاء بها الاسلام . فلم يعد ثمة شعب يقاتل على جبهة وحده ، ولم تعد مسؤولية
للدفاع عن الارض قضية تخص سكانها المحليين فقط ، بل اندمجت الشعوب في امة واحدة متماسكة الصفوف ، واصبحت الارض قطعة من عالم هذه
الامة ، تشترك كلها في تحمل اعباء الدفاع عنها ، وتلزمها الشريعة نفسها بالمبادرة الى نجدتها تحت جميع الظروف . ان اسبانيا لا تكاد تتقدم لضرب
شعوب شمال افريقية حتى يتصدى لها الاتراك القادمون من آسيا الصغرى في اول تجربة على نطاق عالمي لنظرية الامة الواحدة والمصير الواحد ، وهي الظاهرة التي
كان ابن خلدون مشغولا بتفسيرها عندما قال : « حتى اذا استغرقت الدولة العربية في الحضارة والترف ، ولبست اثواب البلاء والعجز، ورميت الدولة بكفرة
التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة ، وطمسوا رونق البلاد ، وادالوا بالكفر من الايمان بما اخذ اهلها عند الاستغراق في التنعم ، والتشاغل في الملذات ،
والاسترسال في الترف ، من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولية ، فكان من لطف الله سبحانه ان تدارك الايمان
باحياء رمقه ، وتلافى شمل المسلمين بالبلاد المصرية بحفظ نظامه ، وحماية سياجه ، بان بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها الغزيرة المتوافرة ، امراء
حامية وانصارا متوافرة ... يدخلون في الدين بعزائم ايمانية ، واخلاق بدوية ، لم يدنسها لؤم الطباع ، ولا خالطتها اقذار اللذات ، ولا دنستها عوائد
الحضارة ، ولا كسر من سورتها غزارة الترف ...». ولعل ابن خلدون الذي توفي في بداية القرن التاسع لم يشهد في الواقع سوى الدور الذي لعبه
لاتراك في الدفاع عن النصف الشرقي من اراضي الأمة الاسلامية ، وهو دور احدى منجزاته اختراق حاجز القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ وفتح الطريق امام
الاسلام نحو مشرق اوربا في مسيرة شديدة الشبه بمسيرة طارق الى اسبانيا التي تمت خلال القرن الهجري الثاني ، لكن دور الاتراك في الدفاع
عن شمال افريقية – وبالذات عن طرابلس – يبدو دليلا اكثر اثارة وقربا على مدى التلاحم الذي تحقق بين شعوب الامة الواحدة . ان
طرابلس يدافع عنها تركي اسمــه « طورغود » ، ويقاتل مع جنوده الاتراك لتحريرها شبرا شبرا ، ثم ينطلق وراء اعدائها الهاربين لتخريب
قواعدهم في البحر المتوسط ، وعندما تصيبه شظية قاتلة خلال الهجوم على احد الحصون ، يسمعه رجاله يقول في آخر لحظة من
حياته : « اللهم بجاه ملايكة السماء السبع ، وبجاه ملايكة الارض السبع ، تجعل كل من حفر على طرابلس يكون مغلاقها رأسه » .
واذا كانت صيغة هذا الابتهال البسيط لا تبدو لغة عربية نقية مثل لغة اهل المشرق الذين عرفتهم منابر الخطابة
في عصور الخلافة السابقة ، فانها على أي حال اسلامية الطابع والهوية ، تستمد ظلالها من ايات القرآن الكريم ،
وتكشف عن تأثر واضح باسلوبه ومعانيه . واكثر من ذلك هي نموذج كامل للغة المفعمة برائحة البحر
التي كانت قد سادت بين المسلمين المقيمين حول البحر المتوسط في القرن الهجري العاشر ،
بعد عصر شهد صدام الاساطيل الاسلامية والمسيحية على طول سواحل اوربا الجنوبيـــة
وشمال افريقية ، وشهد ظهور ربابنة كبار ذوي دراية حقيقية بقضايا الصراع
في المنطقة ، مثل طورغود نفسه وصديقه سنان باشا قائد
اسطول السلطان والشقيقين الشهيرين عروج
وخير الدين .

الفجر مرة أخرى

"لماذا فشلت اسبانيا
حيث نجحت روما ؟"

والنوايا
مختلفة جدا في
اسبانيا من الارهاق
النجاح . فالحرب في
ميدانها ومستواها محصورين
اما في عصر اسبانيا فقد اصبحت
نفوذه على مناطق شاسعة ، ويتقد
روما قد خاضت معركتها ضد شعوب
المهمة نفسها — الى خوض معركتها ضد
آسيا الصغرى الى طرف الساحل الغربي
بحيرة رومانية ، كانت اسبانيا في القرن الهجري
وبالذات العثمانيون الذين كانوا في هذا الوقت
الواسعة النطاق . ان اسبانيا التي تقدمت لغزو
حاجة الى حسابات كثيرة ان شعب شمال افريقية
شعب يقاتل على جبهة وحده ، ولم تعد مسؤولية
الصفوف ، واصبحت الارض قطعة من عالم هذ
الظروف . ان اسبانيا لا تكاد تتقدم لضرب
الامة الواحدة والمصير الواحد ، وهي الظاهرة التي
ولبست اثواب البلاء والعجز ، ورميت الدولة بكفر
الاستغراق في التنعم ، والتشاغل في الملذات
فكان من لطف الله سبحانه ان تدارك الايمان
الطائفة التركية وقبائلها الغزيرة المتوافرة ، امرا
خالطتها اقذار اللذات ، ولا دنستها عوائد
لم يشهد في الواقع سوى الدور الذي لعبه
القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ وفتح الطريق اما
الهجري الثاني ، لكن دور الاتراك في الدفاع
تحقق بين شعوب الامة الواحدة . ان
ينطلق وراء اعدائها الهاربين لتخريب
رجاله يقول في آخر لحظة من
طرابلس يكون مغلاقها رأسه »
الذين عرفتهم منابر الخطابة
ايات القرآن الكريم
المفعمة برائحة البحر
الهجري العاشر
الجنو بيـــ
الصراع

التشابه الكامل بين روما
وبين اسبانيا لم يكن في الواقع سوى تشابه في نوع الخطط
إما الظروف الحضارية التي عاصرت قيام هاتين الدولتين، فقد كانت
أدق تفاصيلها ، وكان هذا الاختلاف بالذات هو السبب والتفسير لما لقيته
والفشل في تنفيذ الخطة نفسها التي كانت روما قد نفذتها قبل ذلك بكثير من
عصر روما كانت تعني فقط حرب دولة ضد أخرى أو شعب ضد آخر، وكان
دائما داخل هذا النطاق المحدد مما جعلها مجرد مغامرة عسكرية محسوبة النتائج .
الحرب صداما بين معسكرات باكملها يضم كل معسكر منها دولا وشعوبا عديدة ، ويبسط
للقتال بامكانات لا تنفد من جبهات عريضة ـ ومفاجئة ـ يستحيل التنبوء بها مقدما . واذا كانت
شمال افريقية وحدهم لكي تستولي على اراضيهم ، فان اسبانيا كانت مضطرة ـ من اجل اداء
المعسكر الاسلامي بأسره ، وهو معسكر يطوق معظم البحر المتوسط في دائرة تمتد من شرق اوربا عبر
لافريقية . وفيما كان اسطول روما في القرن الثاني قبل الميلاد يبسط ظله على البحر المتوسط باعتباره مجرد
العاشر تواجه حربا بحرية كاملة تشنها ضدها جميع الدول الاسلامية المقيمة حول سواحل البحر المتوسط ،
الحرج يملكون من دون شك اكبر جيوش العالم ، واكثرها قدرة على التصدي للقتال في هذه الجبهة
شمال أفريقية متوقعة ان تنفرد بشعوبه وتكسر مقاومتهم المحدودة كما فعلت روما ، تكتشف فورا ومن دون
صبح فجأة غير محدود . والسر ؟ ... السر يكمن في نظرية الأمة التي جاء بها الاسلام . فلم يعد ثمة
الدفاع عن الارض قضية تخص سكانها المحليين فقط ، بل اندمجت الشعوب في امة واحدة متماسكة
لامة ، تشترك كلها في تحمل اعباء الدفاع عنها ، وتلزمها الشريعة نفسها بالمبادرة الى نجدتها تحت جميع
شعوب شمال افريقية حتى يتصدى لها الاتراك القادمون من آسيا الصغرى في اول تجربة على نطاق عالمي لنظرية
كان ابن خلدون مشغولا بتفسيرها عندما قال : « حتى اذا استغرقت الدولة العربية في الحضارة والترف ،
لتتر الذين أزالوا كرسي الخلافة ، وطمسوا رونق البلاد ، وادالوا بالكفر من الايمان بما اخذ اهلها عند
والاسترسال في الترف ، من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولية ،
احياء رمقه ، وتلاقى شمل المسلمين بالبلاد المصرية بحفظ نظامه ، وحماية سياجه ، بان بعث لهم من هذه
حامية وانصارا متوافرة ... يدخلون في الدين بعزائم ايمانية ، واخلاق بدوية ، لم يدنسها لؤم الطباع ، ولا
لحضارة ، ولا كسر من سورتها غزارة الترف ...». ولعل ابن خلدون الذي توفي في بداية القرن التاسع
لاتراك في الدفاع عن النصف الشرقي من اراضي الأمة الاسلامية ، وهو دور احدى منجزاته اختراق حاجز
لاسلام نحو مشرق اوربا في مسيرة شديدة الشبه بمسيرة طارق الى اسبانيا التي تمت خلال القرن
ن شمال افريقية ـ وبالذات عن طرابلس ـ يبدو دليلا اكثر اثارة وقربا على مدى التلاحم الذي
طرابلس يدافع عنها تركي اسمه « طورغود » ، ويقاتل مع جنوده الاتراك لتحريرها شبرا شبرا ، ثم
واعدهم في البحر المتوسط ، وعندما تصيبه شظية قاتلة خلال الهجوم على احد الحصون ، يسمعه
حياته : « اللهم بجاه ملايكة السماء السبع ، وبجاه ملايكة الارض السبع ، تجعل كل من حفر على
اذا كانت صيغة هذا الابتهال البسيط لا تبدو لغة عربية نقية مثل لغة اهل المشرق
ي عصور الخلافة السابقة ، فانها على أي حال اسلامية الطابع والهوية ، تستمد ظلالها من
تكشف عن تأثر واضح باسلوبه ومعانيه . واكثر من ذلك هي نموذج كامل للغة
تي كانت قد سادت بين المسلمين المقيمين حول البحر المتوسط في القرن
عد عصر شهد صدام الاساطيل الاسلامية والمسيحية على طول سواحل اوربا
شمال افريقية ، وشهد ظهور ربابنة كبار ذوي دراية حقيقية بقضايا
ي المنطقة ، مثل طورغود نفسه وصديقه سنان باشا قائد

انا ننوي ان نتعرض لتفاصيل الدور الذي لعبه الاتراك في شمال افريقية لكي نرى ابعاد التلاحم الطارئ الذي حققته المنطقة تحت راية الاسلام . لكن هذا العمل قد لا يمكن انجازه ـ او تفسير نتائجه ـ الا في اطار التطور الهائل الذي طرأ على صناعة السفن في العالم ، وأدى بالتدريج الى تغيير موازين القوى في البحر المتوسط ، وهجوم الاساطيل الاوربية الحديثة على سواحل شمال افريقية في مطلع عصر الاستعمار .



تـم الكتـــاب الرابـــع
ويليه الكتاب الخامـس